

الشّرائط المُخضّرون

د. عبد الحليم حفني



المَهْيَةُ الْمُلْكِيَّةُ الْعَامَّةُ لِلكِتَابِ

١٩٨٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

لا يكاد كتاب من كتب التراث يخلو من حديث أو إشارة عن الشعراء المخضرمين ، ولكن هذه الأحاديث لا تهدف إلى إيجاد بحث أو منهج عن شعراء هذه الحقبة بحيث يتنهى البحث إلى نتيجة محددة في غرض من الأغراض ، وإنما هي أحاديث متواترة تنصصر معظم أهدافها في الأخبار أو الطائف ، وهذا الفرض بطبيعته شخصي وليس جماعياً أو طائفياً ، يعني أن هذه الأحاديث إنما تتناول الأفراد من هؤلاء الشعراء ، فتتحدث عن الشاعر الذي تعرض للحديث عنه في موقف يتعلق به ، أو بخبر يمساق عنه ، أما عن الشعراء المخضرمين بوصفهم طائفة أو جماعة فقلما تجد حديثاً للعلماء القدامي عنهم ، وإن وجد مثل هذا الحديث على ندرته فإنما يمساق أيضاً بوصفه خبراً ، لا بوصفه بحثاً يتناول منهجاً أو يهدف إلى حكم على منهج الشعراء المخضرمين ، أو على جماعة منهم يجمعهم موطن أو هدف واحد .

ثم ظهرت في الحقبة الأخيرة بحوث قليلة حول الشعراء المخضرمين في بعض الجوانب التي يدور معظمها حول أثر الإسلام في شعرهم ،

ولكن الجوهر الذي تعلمته إلى أن أرأه وأضحك قلم أجده فيما وصل إلى علمي من بحوث هو موقف الشعراء المختضرمين أنفسهم من الإسلام بوصفه دينا.

وقد يقال كيف هذا مع أنه من المشهور أن للإسلام شعراء ، ولأعداء الإسلام أيضاً شعراء ؟ والجواب أن هنا في ظاهره ليس بالمحظى ، ولكن حقيقة الأمر أنهم لم يكونوا شعراء للإسلام بوصفه دينا ، وإنما كان أولئك وهؤلاء شعراء يصارع بعضهم ببعض ، كما كانوا يفعلون قبل الإسلام ، وكما كان يفعل كل شعراء العصبية والشعبية في أي عصر من العصور ، فشعراء الإسلام لم يدافعوا عن الدين نفسه ، وإنما دافعوا عن كيانهم وانتظامهم ، وكذلك فعل شعراء أعدائهم ، لم يطعنوا في الإسلام نفسه ولم يهاجموه لذاته ، وإنما هاجموا خصومهم الذين يعتقدون هذا الدين ، وأية ذلك أن شعر الطرفين لم يظهر إلا حينما احتدمت المعركة ، وأنحد الصراع صورة العصبية الجماعية بين الطرفين منذ موقعة بدر ، أما قبل ذلك فلا نكاد نعلم أن الشعراء اتخذوا من الدين موضوعاً لهم ، سواء بالدعوة إليه ، أو بالتنفير منه ، وهذه ظاهرة تدعو إلى التأمل والبحث ، كيف لا يكون للشعر موقف جاد واضح من هذا الحدث الذي قلب حياة الجزيرة العربية وغيرها رأساً على عقب في سنوات معدودة ؟ وكان هنا من دوافعى إلى هذا البحث .

وثقة أمر آخر لا يخلو من غرابة ، وهو أن هذا الجيل الذي بلغ ذروة من الخلق والسلوك لم يبلغها جيلٌ قبله ولا بعده حتى حظى بهذه

الشهادة في القرآن الكريم (كنتم خير أمة أخرجت للناس) تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وروعة الإيجاز في الوصف أنهم لم تكن صفتهم التزام المعرفة والانتهاء عن المنكر في أنفسهم وحسب ، وإنما يلتزمون أن يأمروا غيرهم بما التزموه ، وأن ينهوا غيرهم عما انتهوا عنه هم ، ولم تكن هذه صفة جماعة معيّنة من الجيل الذي رباه النبي صلى الله عليه وسلم ، وإنما كانت صفة الجيل كله في مجدهم ، ولكن الأمر الذي أشرنا إلى أنه لا يخلو من غرابة هو أن الشعراء في مجدهم كانوا يبتلون الشذوذ في هذا الحكم أو في هذه القاعدة ، فقد كان الشعراء في مجدهم - أضفنا هذا الجيل مسماً بالإسلام وآدابه ، وسلوكه الشاعر ليس بعيداً عن شعره ، بل إن الشعر كمسار هو معروف ليس إلا صدى لحياة الشاعر ومشاعره ، وكان هذا أيضاً من دوافعنا إلى هذا البحث .

وهناك جوانب طرقتها بعض آراء النقاد وبمحاجتهم سواء في التقديم والحديث كالآراء والبحوث التي تناولت هبوط مستوى الشعر في الحقبة الأولى من الإسلام عما سبقها وما تلاها من الأحداث ، ولكن هذه الآراء والبحوث لم تقدم من التعليل وإvidence الأسباب ما يقتضي التفوس كل الاتجاه ، وهناك ذلك ما يشبه الانتفاق بين النقاد قد يفهمون وحديثهم على أن حسان بن ثابت كان فحلاً من فحول الشعر في الجاهلية ، فلما جاء الإسلام ضعف شعره ، والنفس قد تتقبل هذا بصفتها واقعاً ، ولكنها تخص به حين تزيد الاتجاه بالتبني في هذا

بالقياس إلى حسان بالذات ، مع ما أتيح له في الإسلام من وضع قد يغبطه عليه سائر الشعراء .

ومن أمثلة ذلك شهرة الخنساء برأيها أخيها غير الشقيق صخر ، فالنفس قد تقبل كل ما قبل من ثناء على جودة رثائها لصخر ، ولكنها لا تسمح في يسر أن يكون رثاؤها لأخيها الشقيق معاوية أضعف عاطفة وشعوراً مهما بلغ بر صخرها .

ومن أمثلة ذلك أيضاً شهرة قريش في هذه الحقبة بأنها من أضعف القبائل شرعاً ، فقد تقبل النفس أيضاً أن تكون قريش في أي مستوى من الشعر ، ولكنها تحتاج إلى إقناع أو فهم للأسباب التي تجعلها تختلف عن غيرها من القبائل في حين أنها قد أتيحت لها من الأوضاع ما كان يرجي معه التفوق لا التخلف .

وكان مثل هذه الجوانب والنقاط من دوافعى إلى هذا البحث .

ولذا كان من لوازيم الأمانة في البحث العلمي رد كل معلومة إلى مصدرها ، وإسناد كل خبر إلى راويه ، فإن هذه الأمانة أشد ازدوماً في الحديث عن عصر يحيى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كهذا الحديث ، لذلك التزمت رد كل خبر إلى مصدره ، أما ما يتصل به من تعقيب أو تفسير أو تعليل فهذا ما يطالب أى باحث بأن يكون له فيه موقف أو وجهة ، وهذا ما أرجو ألا يكون قد جانبي فيه الصواب

على أنه ينبغي أن يكون واضحاً أن البحث إنما يتناول ما يتعلق
بموضوع الكتاب ، أما الجوانب الأخرى سواء أكانت متصلة بالأدب
أم بالدين فلم يكن هناك ما يدعو إلى دراستها .
وفي كل حال أسأل المولى جل علمه التوفيق

د . عبد الحليم حفني

المحضر

ما يستقر العرف على إطلاق وصف المحضر على من أدرك الجاهلية والاسلام ، ولكننا حين نتتبع هنا الوصف نجد له دلالات أخرى ، وإن كانت مرتبطة بما انتهى إليه العرف ، ففى اللغة نجد استعمالات المحضرمة (يفتح الماء) تدور حول النقص ، سواء أكان النقص مادياً أم معنوياً ، فلما لاحظ في كل هذه الاستعمالات أنها تشتمل على التقليل من قدر الموصوف بها ، حيث لم يكن العرب في الجاهلية يستعملون وصف المحضرم عادة إلا من كان فيه عيب أو نقص نسبي يشد به عن غيره .

فمن استعمالات المحضرم⁽¹⁾ عند العرب ، الدعى ، وهو المنتسب إلى قوم أدعاء ، ومنها الناقص الحسب ، ومن لا يعرف أبوه ، وكل ذلك فيه نقص واضح ، ومن استعمالاته الأسود الذي أبوه أبيض ، حيث كان يتبين في عرف الناس أن يولد أبيض كأبيه ، فكان سواده نقصاً لنذاته السواد ، ونقصاً للخلاف الولد عن أبيه في اللون ، ولمعنى الأخير هو المناسب لاستعمالات المحضرم ، فإن هذه الاستعمالات لا تلتزم النقص

(1) المحضرم يفتح الراء وقد تكسر : انظر مخازنة اليقدادي ٢٦٨٣

لذاته ، وإنما تلتزم النسرين - النسرين ، يعني أننا قد نجد في بعضها دلالة على وصف لا يعد في ذاته نقصا ، وإنما يعد نقصا إذا قيس بغيره ، كما سترى .
فمن استخدام اللغة لهذه الكلمة قولهم ظاعن مخضرم إذا كان خثيراً تافها ، ولهم مخضرم إذا لم يكن يعرف فهو لحم حيوان ذكر أم أنثى ، فاللهم حينئذ لا عيب فيه لذاته ، ولكن الشك في مصدره يجعله أقل درجة من اللحم المعروف الأصل ، وكذلك يقال ما مخضرم إذا نزلت درجه عن الماء الجيد النقي . وبمقال ثانية مخضرة إذا قطع شيء من أذنها

ومن هنا نتبين أن النقص بصفة عامة هدف واضح لاستعمالات المخضرم ، وقد بلغت دقة مراعاة هذا المعنى في الاستخدام ، لأننا نجدهم يصفون من لم يختتن من الرجال بأنه مخضرم ، بينما يصفون المرأة المختننة بأنها مخضرة ، وكأنهم يراغعون أن عدم الختان في الرجل نقص ، والختان كمال في رجلته ، بينما الختان نقص في أنوثة المرأة ، وعلمه كمال فيها ، فدار وصف المخضرة حول النقص .

ومن هنا جاء وصف المخضرم من أدرك الجاهلية والإسلام ، فكلّهم رأوا أن الحياة في الجاهلية نقص في صاحبها ، وهذا المعنى يصرح به صاحب أساس البلاحة حيث يقول (ناقة مخضرة جدع) نصفت أذنها ، وهذه المخضرم الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، كأنما قطع نصفه حيث كان في الجاهلية ⁽¹⁾

(1) انظر فيها سبق الصاحب البجرهري والقاموس المحيط للقديروز أبيادي وأساس البلاحة لزهيري مادة (مخضرم).

وهذا يدعونا إلى التساؤل : كيّف يتحقق جلال الجيل المعاصر للنبي صلى الله عليه وسلم مع وصفه بالتقى الذي يوحى له فقط . الخضرمة ؟

ويمكن الرد على هذا التساؤل بأن نظرة الإجلال التي ينظر بها إلى هذا الجيل ، إنما تحدّدت بتصورها الكاملة بعد انقضائه الجيل نفسه ، بل بالدرج بعد انقضائه ، يعني أنه كلما يُعد المهد بهذا الجيل زاد جلاله في نظرة الأجيال إليه ، أما الجيل نفسه على نطاقه الواسع في الجزيرة العربية ، فلم يكن ينظر إلى نفسه هذه النظرة ، بل كان على العكس من ذلك ، أول ما يبدو من نظرته إلى نفسه هو الألم والحقيقة بما أسلفه من حياته في الجاهلية ، وكان عمق إحساسه بالدين ، وسيطرة التشيش بالإيمان تزيد من إحساسه بالسخط . على ما أسلف في الجاهلية مما يخالف هذا الدين السيطر على نفسه ، وكثيراً ما يداه من الذين يجرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم مسلمين ، ولم يكن يخفى من حزن هؤلاء على ما ضيّعوه في حياتهم الجاهلية إلا مثل قول النبي لهم (الإسلام يجب ما قبله)

وهذا التعميم لا ينطبق كل الانطباق على الذين عايشوا النبي صلى الله عليه وسلم واتصلوا به عن قرب ، ومعظمهم من أهل المدينة ، سواء أكانوا من المهاجرين أم من الأنصار ، فهو لا يعود مجرد معاصرين للنبي ، وإنما كانوا تلاميذ مباشرين ، حملوا إلى الناس جوهر الدين مثلاً في القرآن الكريم وتعاليم الإسلام ، وحملوا فوق ذلك آداب الإسلام مثلاً في سنة النبي وحديثه الشريف ، ومع ذلك كان انبهارهم

باليأسنام وعمق الإيمان في نفوسهم يجعلهم بين مخاوفين ، مخافة أن تلاحمهم مساواة حياتهم الجاهلية ، ومخافة أن يمسهم عذاب الله لشيء لم يرضه منهم ، ولكنهم بعد حين أخذت نفوسهم تستقر ، وبخاصة حينما استمعوا إلى مثل قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وإلى مثل قول النبي (خير القرون قرني) بعد ذلك ، وبخاصة بعد وفاة النبي ، ثم مخالطتهم لغيرهم ، أخلوا يقدرون قدرهم الديني ، ويدركون مدى أهميتهم .

أما من عدا هذه الجماعة من تلاميذ النبي صلى الله عليه وسلم وصحابه والقريبين منه ، فقد كانوا بعدهم عن معايشة النبي أقل عمقاً في الدين ، ويعkin أن يقال إن أبناءهم الذين ولدوا في الإسلام كانوا خيراً منهم فتقها في الدين ، وعمقاً فيه ، ولا يخل هذا بالحديث الشريف (خيراً ليرون قرن) فهم وأبناؤهم من قرن النبي .

وإذن ففي كل الأحوال كانت الفترة التي كان المسلمون قد قضوها من حياتهم في الجاهلية شحيحة في حلوتهم ، أو ماضياً بطيئاً إلى نفوسهم في أيسر الفروض ، ومن هذا الجانب نشأت تسمية المخضرم للذى أدرك الجاهلية والإسلام تعبيراً عن السخط على حياة الجاهلية .

وحين تتابع استعمال العلماء القدماء لوصف المخضرم ، تجدهم لا يلتزمون مدلولاً ثابتاً له ، ولا يلتزمون أيضاً تعليلاً متلقياً عليه بسبب تسمية الشخص بالمخضرم ، فتجد أحدهم كأنى الفرج الأصفهانى يعم استعمال الخضرمة في كل من عاصر عهدين ، بالإضافة إلى

لخصرمة الجاهلية والإسلام ، فهو أحياناً يقول عن بعض من يصرخون
لهم ، هو مخصرم أدرك الجاهلية والإسلام ، وأحياناً هو من
مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية^(١) . ولكن ابن رشيق يسلك
في فهم اصطلاح المخصرم منهاجاً مختلفاً عن الفهم السابق ، فهو يرى
أن الخصرمة تنتهي عن الكثرة والانساع^(٢) وأن المخصرم إنما يسمى
 بذلك لأنّه جمع كل المزايا أو لأنّه يتمتّز عن عاش في عصر واحد ،
 بأنه عاش في العصورين ، كأنّه استوفى الأمرين ، أو تنصيبه من
الأمررين ، وهو يعرّف أن الأذن المقطوعة تسمى عند العرب مخصرمة
ولكنه يحمل ذلك على أن المخصرم انقطع عن الجاهلية من حيث الدين
إلى الإسلام ، فيكون إذن قد انتقل إلى خير كثير لا حدود له ،
وينقل ابن رشيق من الأخفش قوله ماء مخصرم (بكسر الخاء والراء)
إذا تناهى في الكثرة والسعّة ويرى أن منه اشتراق المخصرم لاستيفائه
الأمررين معاً .

وينتقل ابن رشيق رأياً آخر عن ابن قبيبة ، وهو أن المخصرم
لا يكون صاحبها ، وإنما يتشرط أن يكون قد أسلم بعد وفاة النبي
صلى الله عليه وسلم ، ولكن ابن رشيق ينكر هذا الرأي مستشهدًا
على خصته كما سترى .

(١) انظر كتاب الأخلاق للأصحاب

(٢) السنة لابن رشيق ١١٣٦ - ١١٣٧

الصحابي

والوضيف بالصحبة ملابس للحضرمة ، من حيث إنها قد يجتمعان في شخص ، وقد يفترقان ، لذلك كان لأيدٍ من الإمام بالحديث عن

الصحابي والزاد بالصحبة صحبة شخص التي صلى الله عليه وسلم .
ولم يتفق العلماء على تحديد معنى الصحبة ، وإنما كانت لهم في ذلك آراء متعددة لم تخل في مضمونها من تباهي ، وبعضهم يشدد في وصف الصحبة ، فلا يبيح منها إلا من عايش النبي صلى الله عليه وسلم عن قرب حقبة طويلة ، يحددها بأن يكون قد أقام مع النبي سنة أو سنتين ، أو غزا معه غزوة أو غروتين ، ومن أشهر المتمسكون بهذا الرأي سعيد ابن المسيب ، وبعضهم يتسامح في اشتھاق وصف الصحبة ، فيرى أنه يوصف بالصحبة كل من لقى النبي ولو ساعة من نهار ، أو رأه مجرد رؤية ، ومن أشهر المتأدين بهذا الرأي البخاري وابن حبيب والواقدي ، وبعض هؤلاء يحاول أن يصوغ من رأيه تعريفا علميا ، كالحافظ بن حجر ، الذي يعرف الصحابي بأنه (من لقى النبي مؤمنا به ومات على الإسلام) ليخرج بذلك التبرير من لقى النبي غير مؤمن به ، ومن لقيه مسلما ثم ارتد عن الإسلام ، وهناك من يسلك طريقا

وسطًا بين التشددتين والتساهليتين ، كابن الجوزي الذي يحثكم إلى العرف في تحديد معنى الصحابة ، متنها إلى أن أدق صور الصحابة في العرف المجالسة والمشاشة وإن قصرت ، وبهذا يخرج من وصف الصحابة حقيقة من رأى النبي ولم يجالسه ، ويرى ابن الجوزي أن الذين رصفوا بالصحابة مجرد رؤية النبي ، إنما أطلقوا بالصحابة إلحاقاً^(١)

عدالة الصحابة :

وأصحاب الذي حل الله عليه وسلم بوصفهم جماعة أو أمة ، ليس من شك في الدين والتاريخ أنهم كانوا كما وصفهم القرآن الكريم « كتم خير أمة أخرجت للناس » ولكن هذا الحكم إنما ينطبق متعلقياً^(٢) على المجموع ، ولا يراد انتطابه على الأفراد فرداً فرداً ، وهذا أمر يدعي ، ويزيد يدعا به وضوهاً أن الوصف منصب على الأمة من حيث إنها أمة ، وليس عليهم بوصفهم أفراداً أو أشخاصاً ، ومني ذلك أن هذا الحكم العام لا يمتنع من أن يكون هناك أفراد من المسلمين المعاصرین للنبي لا يستحقون هذا الوصف ، ومع أن هذه النتيجة من الوضوح بحيث لا ينزع فيها عقل أو منطق ، فإن العاطفة الدينية التي تملأ نفوس المسلمين في العصور المتأخرة إجلالاً لهذا الجيل الذي سعد وشرف بروبة النبي وصحته ، تجعلهم ينفرون من هذه النتيجة ، مع أنهم لا ينكرونها في عقولهم ، ولا ينزعون فيها عنطاقهم ، بل ومع أنهم

(١) انظر تلقيح فهوم أهل الآخر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزي ١٠١ والاصابة لابن حجر ٤-١-٤

(٢) من المعروف في علم المتعار أن الحكم على المجموع لا يناسب على الأفراد

يقرأون من أخبار هذا الجيل ما يؤكد هذه النتيجة ، أو ما هو على
أدنى الفروض مثال لها وشاهد عليها .

ووضوح هذا المفهوم شديد الأهمية لموضوع الكتاب وهو الشعراء
المخضرون ، فستجده في حديث كثير منهم ما يبيّن إلى صفة التدين
أو الخلق ، وهو ما يمس عدالتهم ، مع أنهم من ينطبق عليهم وصف
الصحة للنبي صلى الله عليه وسلم كما عرفه كثير من العلماء فيما
ألمتنا بهديته آنفاً ، وهذا مما يدعونا إلى أن نعود إلى حديث العلماء
عن تحديد الصحة ، وحيثند يمكن لسائل أن يسأل : لماذا كان []
جيل النبي في هذه المرتبة التي سمعت على كل المذاهب ؟ وقد يجب
مجيب بهم يبلغوا لأنهم انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام
فامثلات به نفوسهم ، واستقامت له جوارحهم ، فأضسحوا لا يعلمون
ولا يتعلمون إلا بما يملئه عليهم الإسلام ويرضاه لهم ، ولكن السائل قد
يجد من حقه أن يقول : فما بال المسلمين في العصور الأخرى لم
أ يكونوا كما كان هذا الجيل ، مع أن الإسلام بشرعه ماثل بينهم ؟
أوهما يلتبس المجيب من وجوه الجواب ، فإن يأخذ طريقه إلى
الإقناع إلا حينما يجعل شخص النبي صلى الله عليه وسلم محور الجواب
فلا شك أنه مهما تعددت أسباب تسامي جيل النبي على سائر الأجيال
فإن محور هذه الأسباب تلمنهم المباشرة للنبي ، وتتأثر شخصية
النبي فيهم ، ولذلك كان من الواضح أن أفضلية كل واحد من أصحابه
في فضله وخلقه تتحدد بقدر معاشرته للنبي وصلته به .

و هذه المعاشرة ، أو هذه الصلة ، هي التي يتبعى أن يتحدد في
ضوئها و صفت الصحابة ، بمعنى أنه يمكن أن يقال في بساطة لا تكفي
فيها ولا اعوجاج : أفضل المسلمين عسكراً بالإسلام وتطبيقاً له
 أصحاب النبي ، وهم إنما كانوا كذلك لصاحبهم النبي ، وتأثرهم
بخلقه وشخصيته ، وإنذن فالذين لم يصاحبوا الصحابة المؤثرة في الخلق
والسلوك لا يستحقون هذا الوصف ، وإن كانوا قد رأوه ولو مراراً ،
أو اتصلوا به صلة غير ذات تأثير ، فهو لا جميماً ، ومن في حكمهم
لا يتبعى أن يوصفوا بأنهم أصحاب النبي ، بل يتبعى أن يقتصر
فهمنا للصحبة على الصلة المباشرة التي من شأنها عادة أن تؤثر في النفس
تأثيراً يظهر أثره في التدين والخلق والسلوك .

وليس هذا اختراعاً أو تجديداً في الرأي ، بل هو مضمون ما قرره
كثير من العلماء ، كما رأينا في مذهب سعيد بن المسيب ، وفي بعض
ما قاله ابن حجر ، بل إننا نجد من العلماء من يتجاوز هذا تشديداً
وتحرزاً في وصف الصحابة ، كالمازري الذي ينقل عنه ابن حجر قوله
«لسنا نعني بقولنا : الصحابة عدول كل من رأى النبي صلى الله عليه
 وسلم يوماً أو زاره لاماً أو اجتمع به لغرض وانصرف عن كتبه ، وإنما نعني
 به الذين لازموه وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك
 هم المفلحون » ومع أن المازري يقتبس من القرآن ما يشير إلى معنى
 الصحبة ، وإلى قصر الفلاح على هذا المعنى ، فالآلية التي اقتبس
 منها المازري هي « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه

مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون^(١) فـأولئك هم المفلحون أى دون غيرهم من الذين لم يؤمنوا به ، أو من الذين آمنوا به ولم يتحقق فهم بحقيقة ما ذكرته الآية ، نقول إن المازري في تفاسيره تعميم العدالة على الصحابة إلا من تحفظ فيه ما وصفه القرآن لم يكن إلا مفسراً للقرآن الكريم أو مسترشداً به ، ومع ذلك فإن ابن حجر يحكم عليه بالشاذة والابنادع^(٢) وموقت ابن حجر من المازري هو موقف أهل السنة ، وجمهور العلماء ، والواقع أن هذا الموقف لا ينتهي من بحث علمي ، فقد ندار ما ينتهي من عاطفة دينية تفضي إلى إجلاله وإغبطة للمعاصرين للنبي ، هذه العاطفة التي تبدي لنا أنها تؤثر حب المعاصرين للنبي على التزام الدقة في استخلاص النتائج العلمية والمنطقية ، ولستا نعني بذلك من قريب أو بعيد مساساً بأمانة هؤلاء العلماء في بحثهم العلمي الذي يعد مفخرة للعلم القديم في تحديد مناهج البحث والنقض فيما يتعلّق بالحديث النبوي وأسانیده ، وبخاصة في مجال الجرح والتعديل لرواية الحديث ، ولكننا نعني جانباً معيناً لم يلتزموا فيه بدقّتهم المعتادة ، وهو تحديد الصحة للنبي .

(١) الآية ١٥٧ سورة الأعراف

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة لـ ابن حجر المسفيوي ٧-٨

الشاعر المخضرم

يبدو أن لفظ المخضرم في إطلاقه على من أدرك الجاهلية والإسلام إنما بدأ استخدامه في الشعراء، بمعنى أنه بدأ الأصطلاح على أن الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام يسمى مخضرماً، ثم توسعوا في إطلاقه فأطلقوه على الرجل الذي أدرك الجاهلية والإسلام، وأطلقوه أيضاً على الشاعر الذي عاصر عهدين، كما يقال للشاعر الذي عاصر دولة بنى أمية، ودولة بنى العباس إنه مخضرم، وما يدل على أن لفظ المخضرم استخدم أولاً في الشعراء أن بعض علماء اللغة ظل يقسر تعريف المخضرم على أنه الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام⁽¹⁾

والبغدادي في تقسيمه للشعراء من حيث الزمن، يجعل المختبرمين قسماً ممثلاً، حيث يقول إن الشعراء أربع طبقات، جاهلي قديم، ومخضرم، وإسلامي، ومحدث⁽²⁾ وهي ذلك أنه يراعي اختلاف الشعر باختلاف البيئات والمصور والأحداث، وإنما كان هناك داع لهذا التقسيم الرمزي، وهذا التقسيم الذي يبرزه البغدادي، والذي راعاه كثير من العلماء والقادميين، هو ما لجأ إليه الدراسات

(1) انظر حرثة الأدب البغدادي ٢٦٨-١.

(2) المصادر السابق ٢٦٩-١.

الأدبية الحديثة في تقسيم الأدب العربي إلى عصور ذمنية ، ولكن الكثيرون ينسبون هذا إلى اختراع المستشرقين ، ويرونه وليد فكرهم وجوهودهم ، وليس هذا الاستطراد هو ما يعنينا لذاته ، وإنما يعنينا منه أن علماء الأدب القدماء يجعلون الشعراء المخصوصين طبقة مستقلة بآدابها ، ومعنى ذلك أنهم يراغعون أن لأدبهم طابعاً معيناً ، وخصائص تميزه عن غيره ، ولكن الحديث عن أنهم وخصائصه يتبعني أن يسميه تحديد معنى الخصوصة في الشعراء ، هل هي مجرد إدراك الشاعر للجاهلية والإسلام؟ وهل إذا كان هناك شاعر أدرك الجاهلية والإسلام ولكنه لم يقل شعراً في الجاهلية ، وإنما كان شعره كله في الإسلام ، يسمى شاعراً مخصوصاً؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فما الفارق بين هذا الشاعر والشاعر الذي نشأ في الإسلام؟ فكلاهما كان شعره في الإسلام وحده ، ومثل هذا يقال عن الشاعر الذي أدرك الجاهلية والإسلام ، ولكنه لم يقل شعراً في الإسلام ، وإنما كان شعره كله في الجاهلية كليب بن ربيعة ، هل يسمى شاعراً مخصوصاً؟ وإذا كان كذلك فما الفارق بين هذا والشاعر الجاهلي الذي لم يدرك الإسلام؟ فكلاهما كان شعره في الجاهلية وحدها .

ونستطيع أن نخرج من هذا التساؤل بثني « محدد » ، هو أن هناك فرقاً بين أن نقول هذا رجل مخصوص ، وأن نقول هذا شاعر مخصوص ، فالأخير يقصد بخصوصته أنه جمع بين الدينين ، دين الجاهلية ، ودين الإسلام ، يعنى أنه كان يدين بدين الجاهلية ، ثم جاء الإسلام فأشلم . أما حين نتحدث عن شخص بوصفه شاعراً ، فنقول إنه

مخضرم ، فهذا يعني ، أو يتبعى أن يعني أن الخضرمة ليست منصبة على تدينه ، وإنما على شاعريته ، يعنى أنتا نقصد ، أو يتبعى أن نقصد حينئذ أن شعرهتناول العهدين ، عهد الجاهلية ، وعهد الإسلام ، يعني أنه قال شعرا في كل الزمتين . ونقول يتبعى أن نقصد ، لأن أحاديث القدمة لم تقف عند هذه النقطة لتوليهها شيئاً من توضيح أو اهتمام ، وإنما انصب حديثهم على أن الخضرمة هي معاصرة الجاهلية والإسلام معاً ، دون تفرق واضح بين الشاعر وغيره في هذه المعاصرة ولعل لهم في ذلك بعض الغلر ، وما يغدرون به أن التفرق بين الشعر الجاهلي والإسلامي في شعر المخضرمين بالغ الصعوبة والتعقيد ، فلأغاب الشعراء المخضرمين لا يستطيع التفرق الواضح بين شعرهم الإسلامي وشعرهم الجاهلي ، والقلة التي يستطيع هذا التفرق في شعرها ، لا يستطيع ذلك في شعرهم كلهم ، وإنما فيما ارتبطت بمناسبة معينة توضح أنه قيل في الجاهلية أو الإسلام ، ذلك لأن هؤلاء الشعراء لم يدونوا شعرهم في حياتهم ، ولم يدونه الجيل الثالث لهم ، وإنما بدأ التدوين بعد ذلك ، وكان هم جامعي الشعر حيئند حصر ما يمكن حصره من شعر كل شاعر معروف ، دون التركيز على الزمن الذي قيل فيه ، ولم يكن يعنيهم حينئذ إلا ربطه بالمناسبة إن عرفت مناسبته ولم يكن تحديد المناسبات لغرض علمي ، أو معمداً على منهجه يراد منه مثلاً بيان تأثير المناسبات أو الأحداث في الشعر ، وإنما كانت تذكر المناسبة من باب التوضيح للغرض من هذا الشعر ، أو من باب سرد بعض الطرائف ، أو نحو ذلك .

ونتيجة لهذا الغموض نلمس بوضوح أن الرواة وجامعي الشعر يعمدون غالباً إلى تحاشي التفصيل أو التحديد ، لأنهم لا يملكون ذلك وبخاصة في نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام ، فهم يتحاشون تحاشياً تاماً أن يحددو ما قاله الشاعر في الجاهلية ، وما قاله في الإسلام ، لأنهم لا يملكون هذا التحديد ، ومثال ذلك ما صنعته السكري حين جمع شعر الهدالين^(١) وفيهم بعض المخضرمين ككلي خراش وأبي ذؤيب ، فإنه في جمهور شعرهما يتحاشى نسبة الشعر إلى الجاهلية أو الإسلام ، ولو كان على ذلك التحديد لعناد أن يثبتته ، كما في بالبات المناسبات التي قيل فيها الشعر ، فضلاً عن ناحية أخرى كان يدركها بعض النقاد ، في الفارق بين الشعر الإسلامي والجاهلي للمخضرمين ، كالأصمعي الذي لحظ أنَّ شعر الجاهلية أقوى من شعر الإسلام في شعر المخضرمين ، وعل ذلك بأنَّ الشعر نزاع إلى الشر ، يقوى وينتشر في بيئة الشر ، وينبئ ويسمح في بيئة الخير ، وضرره لذلك مثلاً بحسان بن ثابت ، حيث يقول الأصمعي (الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضفت ، هذا حسان فحل من فحول الجاهلية فلما جاء الإسلام سقط شعره)^(٢) وإن فالأشعري يقرر منهياً ورأياً في الفارق بين شعر الجاهلية وشعر الإسلام عامة لدى المخضرمين ، فكان يهمه ويهتم مثله أنْ يميز الشعر الجاهلي من الإسلامي في حديثه عن المخضرمين وشعرهم ولو للاستشهاد

(١) انظر شرح أشعار الهدالين للسكري .

(٢) الشر والشراء لابن قتيبة ٤٠٥-٤٠٦

على رأيه ، ولكننا لا نجد ذلك التمييز في الأصمعيات ، ولا في غيرها من الكتب التي عنيت بجمع شعر المختصر بين ، ولم يكن ذلك الحالط في أغلب الفاظ عفوا ، وإنما دعت إليه دواع كثيرة أحاطت بشعر هذه الحقبة التي سبقت التاريخ العربي المكتوب وهو الذي بدأ بجهود الشدوين في أواخر العصر الاموي ، ومن أهم هذه الدواعي إلى الخلط بالقياس إلى شعر المختصرمين ، أنه لم يكن في مدينتهم تاريخ أدنى مكتوب ، ولم تحدد الروايات الشفوية على وجه دقيق ، أي شعرهم قبل في الجاهلية ، وأيه قيل في الإسلام ،

ونخرج من هذا كله بأن تعبير الشاعر المختصر ، كان ينبغي ألا يطلق إلا على الشاعر الذي له شعر في الجاهلية ، وشعر في الإسلام ، حتى تتحقق الخضرمة في شعره ، فإن الخضرمة في الدين غير الخضرمة في الشعر ، ومثال ذلك أن لبيد بن ربيعة العامري لا شك في أنه مختصر في الدين ، يعنى أنه عاش في الجاهلية جاهلياً وعاش في الإسلام مسلماً ، وهو من أكبر شعراء العرب ، ومن أصحاب المعلقات ، ولكن شعره كله كان في الجاهلية ، ولم يقل شعراً في الإسلام ، فشعره جاهلي فقط ، ولا يصدق عليه أنه مختصر ، مع أن لبيدا نفسه مختصر . وكذلك الشعراء الشبيان في الإسلام الذين كانوا أئمَّةً قليلاً من النعمان بن بشير الشاعر الأنصارى ، الذي كان أول مولود للأنصار بعد الهجرة ^(٢) ، هؤلاء يصدق عليهم أنهم مختصرمون

(٢) تلقيح فهوم الآخر في عيون التاريخ والسير لابن الجوزى ص ١٠٥

لأنهم أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولكن شعرهم كله كان في الإسلام
فشعرهم كله إسلام ، ولا يصدق عليه أنه مختصم ، لأنهم لم يقولوا
شيرا في الجاهلية .

ولكن العلماء القدماء رغم قرب زمنهم من المخصوصين لم يكن
من المستطاع لهم تحديد الشعر الذي قيل في الجاهلية ، والشعر الذي
قيل في الإسلام من شعر المخصوصين إلا ما كان منه مرتبطة بمناسبة ،
كشعر شعرة الرسول ، حسان وحب وابن رواحة ، الذي قالوه
دافعا عن الإسلام والسلمين ، فإنه معلوم أنه قيل في الإسلام ،
وكقصيدة كعب بن زهير (بانت سعاد) التي ألقاها بين يدي النبي
صلى الله عليه وسلم ، وكقصيدة أبي ذؤيب الهنلي (أمن المنون وريتها
تتوجع؟) التي قالها بعد فتحه أبناء الدين متواتا في فتح المسلمين لمصر ،
أما ما عدا هذا الشعر المرتبط بمناسبة جاهلية أو إسلامية ، فلم يكن
مستطاعا لهم تحديد تسببه إلى الجاهلية أو الإسلام وفي أغلب الفتن
أنهم لذلك لم يرتكروا حديثهم على خضرمة الشعر نفسه ، وأكثروا
بالحديث عن الخضرمة الدينية . وقد يقال : إن الشعر لا يمكن أن
تصور فيه الخضرمة ، فهو إما قيل في الجاهلية وإما قيل في الإسلام ،
فكيف يتصور شعر معين عاصر الجاهلية والإسلام؟ والجواب أن هذا
غير منازع فيه، بل ليس هذا ما نعنيه ، وإنما نعني أنه حينما يكون
للشاعر شعر قاله في الجاهلية ، وشعر قاله في الإسلام ، يمكن الموازنة بين
الشعرين ، على وجه هو أقرب ما يكون إلى الدقة في الموازنة ، من
حيث إن قائلهما شخص واحد ، بخلاف ما لو وازنا بين شعر قاله

شاعر في الإسلام ، وشعر قاله شاعر آخر في الجاهلية ، فقد نجائب العدالة والدقة في الموازنة ، بأن يكون أحد الشاعرين أقوى شاعرية من الآخر ، فإذا كان هذا الشاعر القوى إسلاميا ، فمحكمتنا بأن الشعر الإسلامي أقوى ، تكون قد ظلمنا الجاهلية ، حيث اعتبرنا لها شاعرا ضعيفا في شاعريته ، ووضعناه في مجال الموازنة أمام شاعر أقوى منه ، ولكن العلماء القدماء حين لم يضع لهم الوجه الدقيق الذي يستطاعون تعميمه على كل الشعراء المخصوصين ، اضطروا إلى التجاوز وإلى غض النظر عن كون الشاعر قال شعرا في العصررين ، أو في عصر واحد سواء في الجاهلية وحدها ، أو في الإسلام وحده ، وحيثما ينضاف سهيج الموازنة ، فيبعد أن يمكن أن تكون في شعر الشاعر نفسه ، كما وزن الأصمعي بين شعر حسان الجاهلي وشعره الإسلامي ، تصبح في جملة الشعر الإسلامي للمخصوصين ، موازنا يشعرهم الجاهلي في جملته .

ومهما يكن من شيء في هذه البحوث المتعلقة بالخصوصة ، وبالصحبة للنبي صلى الله عليه وسلم ، كانت في معظمها بعيدة بعدها شدیدا أو يمسيرا عن الواقع ، فهي لما معتمدة على البحوث اللغوية كالخصوصة ، وإنما على العاطفة الدينية كالصحبة للنبي ، وفي كل الأحوال كان اعتمادها على الجانب النظري أشد من اعتمادها على التطبيق العملي ، واعتمادها على العاطفة أكثر من اعتمادها على القواعد العلمية وتعدد آراء علماء الحديث ، وكثرة اختلافهم في تحديد الصحة التي دليل واضح على أن كل فريق أو صاحب رأى كان يعتمد على

عاطفته وميله الشخصى ، أما لو اتجهوا إلى تحديد أسمى عقلية أو علمية ، فلن يكون هناك مجال واسع للخلاف .

ومثال الفجوة الكبيرة بين التعريفات النظرية لصحة النبي والجانب التطبيقى أنهم يعدون النعمان بن بشير من أصحاب النبي مع أنه من المؤكد أنه كان طفلاً لم يبلغ العاشرة عند وفاة النبي ، لأنَّه ولد بعد هجرة النبي إلى المدينة . ومعنى ذلك أنه حتى وفاة النبي لم يكن قد بلغ الحلم لأنَّه بلوغ الحلم عادة يكون بعد العاشرة على تفاوت بين البالغين ، والطائل الذى لم يبلغ الحلم لا يوصف بأنه صاحب النبي ، بل إنَّ علماء الحديث يعلمون أنه حين تلتزم الدقة العلمية فلا يوصف من لم يبلغ الحلم بأنه مسلم ولا رأي له على وجه التكليف^(١) ، ولكنهم مع ذلك يعدونه من أصحاب النبي ، بل من المشهورين من أصحاب النبي مع أنهم لو عرضوا هذا الوصف على أيِّ تعريف لما عرفوا به صحة النبي ، أو اشترطوه لاستحقاق وصف الصحة فلن يستقيم لهم ، ولكنه من الواضح أنَّ مجرد رؤية النعمان للنبي رغم أنه كان طفلاً صغيراً أكسبته شرفاً جعل علماء الحديث يتتجاوزون حتى عن شروطهم التي اشترطوها لتحقيق الصحة ، والنعمان قد ثبت أنه وهو طفل رأى النبي ، حين أراد أبوه بشير بن سعد الانصارى أن يخصمه دون سائر بيته بستان إرضاء لأم النعمان ، وأثبتت أم النعمان إلا أنَّ يشهد النبي على هذه الوصية ، أو هذه المحاباة ، فذهب بشير بطفله النعمان إلى

(١) لأنَّ التكليف في التشريع الإسلامي يبدأ بالرجوع

(٢) تلقيح قبور أهل الاتر لابن الجوزى ١٤٥

النبي وطلب منه أن يشهد على ذلك ، فلما النبي قال : لا أشهد ،
أولاً أشهد على ظلم في رواية أخرى ^(١) بل هناك أمثلة أشد توضيحا
لهذه الفجوة التي نتحدث عنها ، ومن هذه الأمثلة أبو ذؤيب الهذلي
الشاعر ، قال روايات جمیعاً تتفق على أنه لم يبر النبي صلى الله عليه
وسلم ، وإنما حضر جنازة النبي والصلوة عليه ، ثم دفنه عليه السلام ،
ومع ذلك يعدونه من أصحاب النبي ومن الذين رأوه ^(٢) ولعلهم يعنون
أنه رأى جنازة النبي صلوات الله عليه .

(١) انظر مسح البخاري .

(٢) تلقيح قبور أهل الأثر لابن الجوزي من ٢١٤ فصل (من مرفق بيته من أنساب
النبي)

الدين والشعر

ليس المراد من هذا الحديث بيان الموقف التشريعي للدين نحو الشعر ، فمن المعروف أن الإسلام لا يحرم الشعر ولا يتغى عنه ، بل إن الذي صلى الله عليه وسلم كان يحسن الاستماع إلى الشعر ، وفي كثير من المناسبات أظهر رضاه وسروه من بعض الشعر ، كبعض شعر حسان وكمب بن زهير والخنساء ، ودعا لبعض الشعراء كحسان والتايقة الجعدي ، مما هو مشهور لا يحتاج إلى بسط في القول .

ولكن هذا الموقف يمثل الجانب التشريعي الذي يعني ببيان الحظر والإباحة ، والثواب العقاب الدنيوي أو الآخروي ، وليس هنا ما يهدف إليه هذا الحديث ، وإنما تهدف إلى بيان مدى التلاوم والتوافق بين النزعة الشاعرية ، ونزعة الدين العميق ، بمعنى أنه هل تجتمع في النفس النزعة الشاعرية الأصلية ، والإيمان العميق المتغلل المسيطر على النفس ؟ أو بمعنى آخر : هل تجتمع في شخص واحد ، الشاعرية الكاملة أو القوية ، مع الإيمان النفسي الكامل أو القوى ؟

وفي محاولة الإجابة عن هذا التساؤل ، يمكن أن يقال في غير تكاليف ولا شطط ، إنما لا يتفقان أو لا يجتمعان ، بمعنى أنما لا يجتمعان

درجة واحدة ، فإذا انقدت شعلة الشاعرية ، بدأ شعلة الإيمان في الخبو ،
ولذا اشتغلت جنوة الإيمان تهافت جنوة الشاعرية ، أو بدأت في التهافت .

ويمكن أن يدعى هذه الدعوى أن يقيم عليها أكثر من دليل ، وأول
هذه الأدلة قوله تعالى « هل أنتشكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على
كل أفالك أئم ، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون . والشعراء يتبعهم
الغاوون ، ألم تر أئم في كل واد يهرون ، وأئم يقولون مالا يفعلون ،
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من
بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقليون »^(١) فمن
الواضح أن القرآن جعل الشعراء طائفة مستقلة ، ومعنى هذا أنها متشابهة
يصدق عليها الحكم الذي ورد في الآيات ، والأحكام دائما تتعلق إلى
الأغلبية ، وهذا لا يمنع شذوذ أقلية تخرج من هذا الحكم ، هي التي
استثنتها الآية الأخيرة وأما الحكم الذي أصدرته الآيات على طائفة
الشعراء ، فهو شقان ، شق صريح ، شق ضئ ، فاما الصريح
 فهو وصفهم بأئم (يتبعهم الغاوون) ثم (وأئم يقولون مالا يفعلون)
فالوصف الأول يعني أئم من مصادر الغواية والإفساد ، والثاني يعني
أن في طبيعتهم الكذب ، وكل ذلك من البدهى أنه لا يتحقق ولا
يجتمع مع الإيمان العميق ، وأما الشق الضئي الذي كان يتبعى على
المفسرين أن يبرزوه ، فهو الحديث عن تنزل الشياطين ، فمن المعرف
عند العرب أن الشياطين تننزل على نوعين ، الكهان والشعراء ، ولكن

(١) آخر سورة الشراء

الشعراء أكثر شهرة بذلك ، وهم أنفسهم يتحدثون ويفخرون بأن لكل شاعر منهم شيطاناً يوحى إليه الشعر ، كما يقول هذا الشاعر إن وكل شاعر من البشر شيطانه أمني وشيطاني ذكر

وما دام الشعراء ضمن من تنزل عليهم الشياطين ، فهم بالضرورة موصوفون بالإفك والإثم الشديدين ، لأن المعنى أن الشياطين لا تنزل إلا على من طبيعته الإفك وهو الكذب والإثم ، وهذا لا يلزم منه أن يكون كل كلامه كذباً ، ولكن الأصل فيه الكذب ، ولا مانع من أن يكون بعض كلامه صلحاً ، وهو معنى (وأكثرهم كاذبون) وفي كل حال ، فالآيات تتضمن وصف الشعراء بالإفك والإثم ، وهذا أيضاً من البدهي أنه لا يتفق ولا يجتمع مع الإيمان العميق .

وثاني الأدلة قوله تعالى عن محمد صلى الله عليه وسلم (وما علمتاه الشعر وما ينبغي له) فكون النبي لم يتعلم الشعر ولم يقله أمر واضح ، ولكن موضع الشامل فيما يعنيها هو (وما ينبغي له) فلماذا لا ينبغي للنبي الشعر ، ولا يناسبه أن يوصف بحرفة الشعر ؟ مع أن كثيراً من الأنبياء احترفوا مهنا مختلفة ، فقد كان نوح نجاراً ، وكان داود حداداً ، وكان موسي راعياً ، بل كان داود موسقياً ، ويستخدم من الموسقي نوعاً من العبادة ، فلماذا لم يكن الشعر كنوع من هذه الأنواع ؟ ولماذا يصرح القرآن بأنه لا يناسب النبوة والدعوة إلى الإيمان ؟ ومهما تتعدد الإجابات عن هذا التساؤل ، فلا شك أنه سيكون من صلبها أن الشاعرية بما تستلزمها من الجوانب الخلقية غير

المرضية مما أورده الآيات السابقة لاتناسب أمانة النبوة ، والتزامها الكامل للصدق والحقيقة ، وإن فالنبي وهو قدوة المؤمنين ، وهو الداعي إلى الإيمان ، لا يليق به ، ولا يناسبه أن يكون شاعرا ، ومضمون هذا أن صفة الدين أو الإيمان في صورته الكاملة لا تتفق ولا تجتمع مع صفة الشاعرية بصفتها الكاملة ، وتكون الشاعرية كاملة حينما تبلغ حد الاحتراف ، أو ملائمة قرض الشعر .

وثالثها أن بعض العلماء من أئمة النقد والأدب يدركون هذه الحقيقة بوضوح ، وهي أن الشعر لا يتفق ولا يجتمع مع المثالية في الدين والفضيلة ، بل يصرحون بما هو أبعد من ذلك ، وهو أن الشعر لا تناسبه بيئة الخير فقط ، وأنه لا ينمو ولا يزدهر إلا في بيئة الشر كما يقول الأصمي (الشعر نكبة الشارع ، فإذا دخل في الخير ضعف)^(١) ومن المشهور قولهم أجود الشعر أكذبه ، ولم يعترض أحد من العلماء والتقاد على هذا ، فكان هذا المعنى إجماعا ، وهو أن الشعر لا يتفق ولا يجتمع مع الإيمان في صورته الكاملة أو القوية .

ورابعها أن بعض الشعراء من يلغوا قيمة الشاعرية ، كلبيد بن ربيعة الذي كان من أصحاب العلقات ، حين دخل الإسلام كأنه أحسن أن روحه لا تتسع للإيمان العميق الذي يتشده ، وللشاعرية مما ، فقرر أن يهجي الشعر ، ليتسع له أن يصلح ما يريد ، وكأنه يقرر أن الشاعرية والإيمان لا يجتمعان بالصورة التي سبق ذكرها ، ومهما عالى

(١) الشعر والشراه ابن قتيبة ٢٠٥-١

لبيد ترك للشعر بالاكتفاء بالقرآن الكريم ، فإن ذلك لا ينفي العلة السابقة ، لأن القرآن لم يوضع أمام الشعراء موضع التسابق أو الموازنة حتى يعلن لبيد حكمه على ترجيح إحدى الكفتين ، ولم يكن القرآن والشعر متزادفين أو متقاربين حتى يستخفى بالأخذهما عن الآخر ، وإنما المقصود أن لبيداً وجد أن حلاوة الإيمان الذي عشوائه القرآن هي السيطرة على نفسه ، وأن الشعر من وادٍ يختلف عن وادٍ بالإيمان ، فائز طريق الإيمان على طريق الشعر ، ومن المتوقع أن يكون هناك شعراء كثيرون سلكوا منهج لبيد ، ولو في صورة أن يجعلوا الإيمان في نفوسهم في الكفة الأرجح ، والشعر في الكفة الأضعف ، ويبدل على هذا ما لحظه كثير من النقاد من أن الشعر في الإسلام كان أضعف منه في الجاهلية ، وهذا يعني أن الشعراء صرفووا الجانب الأكبر من همهم إلى الدين ، لأنهم لو صرفووا الجانب الأكبر من همهم إلى الشعر ، لظل شعر الإسلام في نظر هؤلاء النقاد قوياً كما كان في الجاهلية وتخالص من هذا أيضاً إلى جوهر النتيجة السابقة ، وهي أن الشعر والدين لا يتفقان ككل الاتفاق

وخامس الأدلة أن واقع الشعراء يؤكد هذه النتيجة ، فمع أن هؤلاء الشعراء كانوا يعيشون في أعظم جيل عرفه التاريخ ، وبخاصة في تطبيق الشريعة على الخلق والسلوك ، إلا أنهم كانوا يمثلون الشذوذ على هذا الحكم ، يعني أنه يمكن أن يقال إن هذا الجيل بكل طوائفه وطبقاته كان أعظم الأجيال ، باستثناء طائفة الشعراء ، وإن يكون

في هذا جور عن الحقيقة ، ولا تحامل على الشعراء ، فسترى فيما يعد أنه – باستثناء النادر – ما من شاعر إلا وكانت له سيئة أو مساوية تجعله نمراً يكاد يكون غريباً في هذا المجتمع العظيم ، ويكتفى أن يكون حسان بن ثابت ، الموصوف بأنه شاعر الإسلام أو شاعر الرسول ، من أكبر المسمومين في حديث الإفك ضد عائشة ، وقد ضرب حد القذف من أجل ذلك ^(١) ، بل إن عائشة كانت ترى أنه المعنى بقوله تعالى (والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم) ^(٢) وكذلك كان كل واحد من الشعراء له في دينه أو خلقه أو ملوكه من المسوء ما يجعله يكاد يكون غريباً في هذا المجتمع الذي وصفه القرآن الكريم بقوله (كتم خير أمة أخرجت للناس) وهذا كله يؤدي بنا إلى النتيجة السابقة ، وهي أن الإيمان الصادق العميق ، والشعر ، كل منها في طريق ، وأنهما حين يلتقيان فإنهما لا يتفقان ككل الاتفاق .

وما يتوازد حيث أنه يقال : فلماذا انفرد الشاعر بهذه الصفة دون سائر الناس ؟ ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن نقطة الاختلاف بين طبيعة الشعراء وبين الإيمان هي الاستقرار وعدمه ، في بينما من أهم أسس الإيمان الاستقرار ، فإن طبيعة الشعراء لا تقوم على الاستقرار بل ولا يناسبها الاستقرار ، فلما اتباه الإيمان على الاستقرار ، فالآن كل شيء في الإيمان من خصائصه الاستقرار والثبات ، فالعقيدة لا توصف بأنها عقيدة إلا إذا كانت ثابتة مستقرة ، وكذلك ما يمنع

(١) سيرة ابن هيثم ٢-٧٦٩-٧٧٠

(٢) من الآية ١١ سوره التور

ـ منها ويتفرع عنها يحتاج إلى الثبات والاستقرار ، فكل تشرع في الدين ثابت ، لا يكون حلالا في يوم ، وحراما في يوم آخر ، ولا يكون مباحا عند قوم ، ومحظوا عند آخرين ، حتى المواعظ والانفعالات يدعو الدين إلى ثباتها واستقرارها ، سواء في الرضا والغضب ، وفي الحزن والسرور ، كما في القرآن الكريم توجيهها للمؤمنين (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفروا بما آتاكم) ^(١) وكل ما يصدر عن المؤمن يدعو الدين إلى جعله مستقرا على صورة ثابتة هي الاعتدال ، فالمتشدد بين السرعة والبطء ، فمن صفات المؤمنين (وعياد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا . . .) ^(٢) ولقد ينادي (وقصد في مشيك وأغضض من صوتك . . .) ^(٣) فالصوت أيضا يتبع أن يكون متذلا بين الارتفاع والانخفاض ، وأما طبيعة الشعراء فإنها لا تعرف الاستقرار ، وحيثما تستقر فلن يكون صاحبها شاعرا أصيلا ولابد للشاعر حين يشعر أن يكون دائما محلقا مطوفا متقلبا بين أجواء الخيال وأذانين التصوير ، وهذا المعنى يصرح به القرآن في قوله : (ألم تر أئمهم في كل واد يهيمون) وإذا كانت هذه النقطة أو القاعدة هي أساس الخلاف بين الشاعرية والإيجان ، فإن كل ما يتفرع عنها بعد ذلك لا يخلو من اختلاف

(١) من الآية ٢٣ سورة الحجية

(٢) من الآية ٦٣ سورة الفرقان

(٣) من الآية ١٩ سورة لقمان

(٤) ٢٥١-٢٣٠ سورة الشورى

الشعراء

نريد في هذا القسم أن نسير مع الشعراء المخضرمين ، لنلقى نظرة على موقفهم من الحياة في جوانبها الهمة ، أو التي لا يتسنى للناس أن يجتذبواها . وأول ما يبادرنا في هذه الصاحبة النظرة إلى عدد الشعراء المخضرمين ، والواقع أنه ليس من السهير أحباء عددهم على وجه دقيق ، ليس من جهة الروايات وعدم استيعابها إلا للشاعر الذين ظهروا على سطح الحياة العامة فحسب ، وإنما لسبب آخر يشيع في الحياة العربية القديمة ، وهو التفرق بين الشاعر المحترف ، وشاعر الذاتية أو المناسبات ، فالاستعداد للشعر شائع بين كثير من العرب القدماء ، وبخاصة في فترات الأممية ، حيث كان الشعر حينئذ هو التنفس الوحيد تقريراً لواهبيهم ومشاعرهم ، والوسيلة الوحيدة أيضاً للإعلام في مجتمعهم ، حينئذ كان كثير منهم يبدو لديه الاستعداد لقرض الشعر ، ولكن قلة من لديهم الاستعداد هم الذين يحترفون الشعر ، فيتحذرون منه يصل الشاعر من خلالها إلى أهدافه ، إما منصب أبي في المجتمع ، حين يجد أن المناصب الأدبية قد شغلها رؤساء القبيلة وقادتها وفرسانها ، وإنما وسيلة لكتاب العيش ، فيما يعرف بالكتاب بالشعر ، وهذا الاتجاه لم يعرف إلا

في أواخر الحياة الجاهلية ، أظهره النابعة النبئاني ، وسار على نهجه أغلب معاصريه من كبار الشعراء ، وبخاصة زهير بن أبي سلمي ، والأعشى ، وحسان بن ثابت في فترته الجاهلية . أما الكثرة فهم الذين كان لديهم الاستعداد للشعر ولم يحترفوه ، فكانوا يقولون في المناسبات التي يجدون فيها داعياً نفسياً لهم أن يعبروا عما يتعلمون به بالشعر وهؤلاء وإن كانوا تستشهد بهم ، لكننا لا نعدهم من الشعراء بمعنى الاحتراف ، وقد ذكرت الروايات كثيرة . من شعرهم ، رغم أن كثيراً من هذا الشعر غير موثوق بصحته ، ولكنه يدل على أن أصحابه كانوا يقولون الشعر ، أو لديهم الاستعداد الشعري الذي يعبرون به أحياناً عما في تفاصيلهم ، ومن هؤلاء أبو طالب عم النبي وأبو سفيان بن حرب ، وعمر بن العاص ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، وحمزة بن عبد المطلب ، وغيرهم كثيرون^(١)

وأما الذين احترفوا الشعر ، وظهروا على سطح الحياة العامة في هذه الفترة بوصفهم شعراء فيربو عددهم على التسعين شاعراً ، وبعض المستشرقين يحصى الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية فيما وثمانين شاعراً^(٢) ولكنه إذا كان يعني الشعراء الجاهليين ، والشعراء المخضرمين الذين عاشوا في الجاهلية حقيقة من حياتهم ، فلا شك أن العدد سيكون أكبر من هذا بكثير ، فإن الشعراء المحترفين من المخضرمين وحدتهم يزيدون على التسعين كما ذكرنا فيما تحدثنا

(١) انظر سيرة الرسول لابن هشام في مواضع متفرقة كثيرة والمثال من ٤٢٩-٤٣٨

(٢) كارلوفنا ليتو في تاريخ الأدب العربي ٦٩

به الروايات ، هذا بخلاف الجاهليين الذين لم يدر كوا الإسلام ، وهؤلاء ذكرت الروايات منهم شعراء ثلاثة أجيال على الأقل ، فإذا رأينا أن عمر الجيل فيما حقه بعض الباحثين أربعون عاماً^(١) فتكون الفترة التي اتفق معظم الباحثين على أنها عمر التاريخ الأدبي قبل الإسلام ، منها ثلاثة أجيال جاهلية ، وجيل مخضرم قضى شطراً من حياته في الجاهلية وشطراً في الإسلام . وليس هناك من يملك تحديداً دقيقة لهذه الفترة السابقة للإسلام ، لأنه ليست لدينا أدلة موثوقة بها لتحديدها ، وإنما هي قرائن وملابسات تقرب تحديد هذه الفترة ، ومن ذلك مثلاً أنه يتقدرون على أن أمراً القيس من أقدم شعراء الجاهلية فتجد الروايات تذكر أن عامر بن جوين عاصر أمراً القيس ، ثم كان لعامر هذا خريد وقد علّ النبي صلّى الله عليه وسلم^(٢) ومعنى ذلك أن بين أمراً القيس والنبي صلّى الله عليه وسلم ثلاثة أجيال ، عمرها الافتراضي حسب التحقيق المشار إليه مائة وعشرون عاماً . ذلك أن النابغة الذبياني مات قبل الإسلام بزمن غير محدود ومع ذلك فمن المحقق أن حسان بن ثابت عاصره ، واجتمعوا معاً عند ملوك آل حسان ، والختساعة عاصرته وكان النابغة حكماً على شعرها في سوق عكاظ . كما هو معلوم ، والشاعرة الجعدي عاصر الذبياني ، بل كان أقدم وأمس منه^(٣)

(١) الأسس المبكرة لدراسة الأدب الجاهلي عبد العزيز الأبيهري ص ٥٧

(٢) انظر الفحة في شرارة الأدب، المعنادي ٤٤-٥٢-١

(٣) الشمر والشعراء لابن قتيبة ١-٣٩٠

ولكنه عاش حتى وفدي على النبي ، وكذلك الخنساء وفدت على النبي ^(١)
وان كان التاريخ يرجح أن النعمان بن المنذر الملك مات سنة
٦٠٢ م وكان النابغة على صلة به حتى موت النعمان ^(٢) ومن هنا نعلم
مدى توغل المخضريين في الجاهلية وتعاقبهم فيها ، سواء أكان تعاقباً
في الزمن ، كالتبايعة الجعدي الذي كان أسرى من التبايعة الديلمي ،
أو تعاقباً نفسياً كحسان بن ثابت الذي عاش مرتين سنة في الجاهلية
ومن شأن من يعيش في بيته زمناً كهذا أن تتشبع نفسه بكل جوانبها
وحينئذ لا يكون غريباً أن نرى آثار الجاهلية واضحة في شعر المخضريين
بصفة عامة . . .
ومن أهم الجوانب التي يعنينا أن نرى موقف الشعراء المخضريين
تجاهها ، الجوانب الآتية .

(١) الشر والشرا ، لابن قتيبة ٢٤٤-١

(٢) تاريخ الأدب العربي كارل زالينر ٨٦

الدين

في الجاهلية :

لم يكن الدين لذاته موضع اهتمام كبير عند العرب في الجاهلية ، بحيث يشير في نقوسهم انفعالات أو عواطف خاصة ينفعل بها الأفراد ، وحثا إن الوثنية كانت شائعة مسيطرة على حياة الجاهلية ، ولكنها فيحقيقة الأمر لم تكن تدخل ديننا للعرب بمعنى العقيدة الراسخة التي يتشبث بها الأفراد لذاتها حين تقتل «نقوسهم» بها ، ويمكن رد عبادة الأصنام في حياة العرب إلى سببين :

- ١ - أحدهما أنها تعبير عن غريزة التدين المعروفة لدى علماء النفس والاجتماع ، من حيث إن الإحسان يوجد الله غريزة في البشر العادي ، فكل إنسان في أعماقه الإحسان بالله ، ولكن بعض الناس يتجاهلون هذا الإحسان فينكرونه ولو بالاستئناف مع أن كثيرا من سلوكهم يدل على هذا الإحسان ، وهذا يمثل ذات الله سبحانه في قوة غامضة أو خفية ، ويرمزون لها بشيء كالصنم ، وبعثهم يمثلها في مصدر النفع كالإحسان أو نحو ذلك . والقرآن الكريم يشير إلى أن العرب لم يكونوا يتخذون من الأصنام عقيدة لذاتها ، وإنما يتخذونها تعبيرا عن إحسانهم بالله ، ووسيلة إليه ، في قوله تعالى

على لسانهم (ما تبعدهم إلا لية ربونا إلى الله زلفي)⁽¹⁾ (قوله) ولكن سأله من خلق السموات والأرض ليقول الله)⁽²⁾ فهم في الحقيقة ي يريدون الاتجاه إلى الله ، ولكنهم ضلوا الطريق فوصلوا إلى غيره .

٢ - والسبب الثاني الذي نستطيع به تعليل تعدد الأصنام ، هو العصبية القبلية ، التي نشأت أساساً ، وتشاءّ معها أو قبلها كل نشاط . وظاهر من مظاهر الحياة العربية من غريزة حب البقاء ، ويعيها الصراع أو الدفاع من أجل هذه الغريزة ، وذلك أن الفرد في هذه الحياة لم يكن يجد ما يتضرّر أنه حماية له ، من سلطة عامة ، أو قانون ملزم ، وإنما كانت الحياة أشبه بغاية ، البقاء فيها للأقوى ، فراح الأفراد يتسمون التجمع في كيان العشيرة داخل القبيلة ، لحماية أنفسهم من العشائر الأخرى في القبيلة ، وبالتالي تجمع العشائر في كيان القبيلة لحماية أنفسهم من القبائل الأخرى ، وكذلك الأفراد كان هم الواحد منهم أن يبرز قوته أمام الأفراد الآخرين في مبارزات جسدية كالقتال ، أو معنوية كالتفاخر والهاجة ، وهكذا يمكن رد كل مظاهر الحياة العربية الجاهلية ، بل وكل ما نشأ عنها من نشاط كالنشاط . الأبي إلى غريزة البقاء وما تستلزمها ، والقرآن الكريم يشير في مواضع عديدة إلى أن كل حجتهم في التمسك بعبادة الأصنام أنهم يحافظون على ميراث الآباء وتقاليدهم ، والآباء وما يمثلونه في

(١) الآية ٣ سورة الزمر

(٢) الآية ٣٨ سورة الزمر الآية ٢٥ سورة لقمان

النسب والاتساع هم من مظاهر الفريزة المشار إليها . ولو اقتضى العرب باله واحد من الأوثان لعيدهو جمِيعاً أو أغلبيَّة ، ولكنهم بنزعَة التكبيل والاتساع إلى قوة يحتمون فيها جعلت كل قبيلة لنفسها صنماً معيناً [تعبده ، وأهم من عبادته أن يكون هذا الصنم رمزاً لها ، وكتب الأخبار] تفيض في سرد أصنام القبائل ، وتحديد معبود كل قبيلة من الأصنام^(١) فإذا كان الأمر كذلك ، فالانتظر أن ترى الأدب في مجتمعه – أعني بصرف النظر عن الحالات الفردية – معبراً عن الدين ، لأكثر من سبب ، منها أن الأدب في مجتمعه إنما هو تعبر عن حالة عصره واقع الحالاته ، وما دام الدين لم يكن عقيدة-حقيقة مؤثرة في حياة الجاهلية فلا ننتظر أن نجد له صدى في الشعر ، ومن الأسباب أيضاً أن الشعراء كما سبق لهم أصناف الطوائف عمداً في الدين وتأثيراً به ، فإذا كان المجتمع غير متفعل بالدين ، فالشعراء من باب أولى لا ينتفعون .

وأما الأصوات المبررة عن الدين في الجاهلية ، كالمتحفظين^(٢) ورقة بن نوفل ، وعبيد الله بن جحش ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وعثمان بن الحويرث ، وكذلك قيس بن معاذ الشهور يدعوه إلى الإيمان والبعث ، بخطبته وشعره في عكاظ . وكالأفراد المعدودين من

(١) انظر تاريخ الأدب العربي د. ذوي ضفت ١-٨٩-٢٠١٣٦٦ عن مصدر آخر

(٢) نسبة إلى الخليفة وهي ملة أبا إبراهيم وعبيد الله وزيد أبا عيسى ورقة وعاصي وبن لمي عمان صراغة ولكنة رحبي الدين الإسلام وما تقبّل البعثة مباشرة وعثمان ابن الحويرث لم يدرك الإسلام

الشعراء الذين تحدثوا عن الدين في الجاهلية ، كعاصم بن أبي الصلت الذي دعا إلى الله وإلى الإيمان بالبعث ، وأدرك الإسلام فلم يسلم ، وقال عنه النبي (آمن لسانه وكفر قلبه) ومثل زهير بن أبي سلبي الذي تحدث أيضاً عن الله وعن البعث في أبيات معدودة من قصيدة الملحمة ، وكذلك عدوى بن زيد ، والأعشى ميمون (١)

كل أولئك لا يمثلون إلا حالات فردية ، ولم يكن لهم تأثير واضح ، ولم يصل أحدهم أو مجموعهم أن يكون لهم اتجاه أو منصب حيال ذلك ، فالشعراء لم يجعلوا الدين كلها صحيحة وباطله غرضاً موضوعاً لهم في الجاهلية .

وأما اهتمام كثير من المستشرقين بآيات وجود التزعة الدينية ، والنشاط الديني في الشعر الجاهلي ، فمن الواضح أنهم يهدفون إلى إثبات نشاط المسيحية واليهودية وتمثيلها بالشعر في البيئة العربية ، فالمستشرقون النصارى ي يريدون أن يثبتوا أن النصرانية كان لها كيان وصوت قويان في الجزيرة العربية ، سواء في جنوبها وخاصة في نجران [١] أو شمالها وبخاصة في قبائل نجاشي وتغلب وبكر وإياد ، والمستشرقون اليهودية ، يريدون أن يثبتوا أن اليهودية كان لها كيان وصوت قويان ، سواء في اليمن أو يثرب وتيماء وما وللهم ، ومع أن اليهودية والنصرانية كانتا فعلاً في هذه المناطق ، إلا أنهما لم يكونا شاملين ، ولم تكن لهما

(١) زهير مات قبل الإسلام والأعشى أدركه الإسلام وحده مات قبل الإسلام ويensus الروايات تزعم أنه عاصر الخلقان الرازيه أو من يدعى الخلقان كارل بروكيناين ١٢٥-١٣٥

سيطرة نفسية على أتباعهما من العرب ، ولم يكن هناك تأثير ديني إلا على الذين يدينون باليهودية وهم من أصل يهودي ، كقبائل بني التضير وبني قينقاع وبني بهل في ثيرب وتيماء ووادي القرى ، أما الذين اعتنقوا من العرب فلم يظهر لهم أثر واضح في التأثر به ، ولم يكن اعتناقهم لليهودية أو النصرانية إلا من باب عدم تشبيهم بدينتهم الوثنية ، وعدم اقتناعهم به .

وما تلمسه المستشرقون في شعر هذه القبائل التي دخلتها اليهودية والنصرانية من شعر ديني ، فإنه لا يصلح دليلاً على دين معين ، وإنما هو دليل على الحسن الديني الذي لا تخلو منه غريزة الإنسان وحسه بطبيعه أو احتكاكه بغيره من أصحاب الأديان ، فما الدلالة الدينية مثلاً لقول الأعلم الهنل الجاهلي حين يشبه جاود القمباخ بسمواد ثياب الرهبان ؟ فيقول^(١)

سود سحاليل كان جلودهن ثياب راهب
وهل معرفة أن الراهب يلبس ثياباً سوداً تدل على الدين بالنصرانية
وما الدلالة الدينية المعينة على مثل قول زهير أبي سلمى^(٢)
فلا تكنن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم
يؤخر فيوضع في كتاب فيدخلن يوم الحساب أو يعجل فينقسم
فهل هذا يدل على تدين بدين معين كاليهودية أو النصرانية ؟

(١) شرح أنساد المسلمين السكري ٢١٤-١

(٢) شرح ديوان زهير أبي العباس تعلب ١٨

وهل مثل زهير في عقله وخبرته وتجوشه في الآفاق فضلاً عما لديه كثيرة من حسن ديني يخفي عليه مجرد العلم بخصوص هذين البيتين؟
 بل لو ذهبنا إلى أشهر شعراء اليهود حينئذ، وهو المسنون بن عادياء، وأشهر شعراء النصارى وهو عدى بن زيد فضلاً عن غيرهما من شعراء المسلمين، لما وجدنا في شعرهما ما يدل على التعبير عن دين ثمين ولم يستطع أحد من المستشرقين رغم حساسهم الشديد لإثبات هذا الاتجاه أن يدلنا على شعر صحيح يدل على إشادة أحد من شعراء الجاهلية باليهودية أو النصرانية أو الدعوة إليهما، سواء من الشعراء الوثنيين أو اليهود أو النصارى، هنا رغم إسراف بعض المستشرقين كزعم لويس شيخو أن شعراء الجاهلية جمِيعاً يعلون من شعراء النصرانية، وإن كان بعضهم مثل كارل بروكلمان ينكِر هذا الغلو^(١)، ومع ذلك يحتفظ، بأساس الاتجاه العام للمستشرقين وهو محاولة إثبات كيان دينهم، فإن كان المستشرق يهودياً حاول إثبات ظهور اليهودية وانتشارها، وإن كان نصرانياً كان كذلك، فيزعم كارل بروكلمان بدون دليل تأثير النصرانية في الثقافة العقلية التي مثلها الشعر في الحياة الجاهلية^(٢) ومثل هذا الاتجاه نجد لدى المستشرقين عامة، بل يحاول بعضهم أن يثبت أن شعراء النصارى كان لهم تأثير في شعر المسلمين كأئمَّة العناية في زهدياته^(٣).

(١) تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ١٢٧-١٣٠

(٢) المصادر السابقة

(٣) تاريخ الأدب العربي كارل نالتو ٨٨-٩٤

ونخرج من هذا كله بأن الشعراء في الجاهلية لم يخلوا من الدين
غresa واصحاف أشعارهم ، فلامهم دعوا إلى أي دين ، ولا هم صدوا
عن أي دين ، بل ولاهم أظهروا رضا أو سخطا على أي دين ، وكل
حديث يخالف هذه الحقيقة ، إنما ينبعث من ورائه الهوى والتعصب
الديني ، كما يبدو من اتجاه المستشرقين ، وكل ما بدا من المعايير
القليلة التي وردت في شعر بعض الشعراء الجاهليين عن الدين ، إنما
تمثل خواطر عن بعض المعلومات الدينية التي لم يدخل منها شعب ولا
جيل مهما بلغ من البدارة ، أو نظارات تمثل تفوقا عقليا لدى بعض
الشعراء الوثنين ، أو المعلومات الشائعة في المجتمع بالقياس إلى شعراء
اليهود والنصارى .

في الإسلام :

وحين جاء الإسلام اهتزت له الجزيرة العربية ، وامتلأت نقوسها
انفعالا به ، بين متدفع إليه شديد الحمل في اندفاعه ، وبين مزور
عنه شديد الأزوار ، وبين صاد عنه شديد الصد ، وهذا الانفعال
الذى صاحب بدء الإسلام كان يتبنى أن يكون هو المناخ الخصب
لتفجير شاعرية الشعراء ، سواء أرضوا عن الإسلام أم سخطوا عليه
فإن انفعال الشاعر يتأمر من الأمور هو المتعلق لشاعريته ، فكان المتضرر
حيثند أن تتدفق ألسنة الشعراء بما تقيضه عليهم انفعالاتهم إزاء هذا
الدين الجديد الذي أصبح الشغل الشاغل للعرب ، بين مؤمن وكافر

ولكن الشعاء لم يكونوا كما كان ينتظر حسبما يوحيه منطق الأمور
ومع ذلك نستطيع أن نفصل بين نوعين من الشعاء .

١ - شعاء المدن والمحاضر التي تعرف بالمدبر ، وهي حاضرة
مكة والمدينة والطائف وقرى البحرين من عبد القيس^(١) وهؤلاء
تصدّي عدد غير قليل منهم للاسهام بشره في هذه الفورة الدينية
العارمة ، وانقسموا في أول الأمر إلى قسمين ، قسم ينادى « الاسلام »
ويحاول أن ينال من المسلمين ومن شخص النبي صل الله عليه وسلم ،
وقد تركز هؤلاء في مكة بالذات ، وأشهرهم عبد الله بن الزبيري وأبي
سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وعمرو بن العاص^(٢) وقسم
يدافع عن المسلمين وعن شخص النبي ، وتركز هؤلاء أيضاً في المدينة
بالذات ، وأشهرهم ثلاثة عرفوا بأنهم شعاء « الاسلام » ، أو شعاء
الرسول ، وهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن
رواحة^(٣) وحين نتأمل في شعر القسمين جميعاً نجد أننا إنما نعد
شعرهم دينياً بالقياس إلى غيره من الشعر الذي لم يعن بالدين قط ،
أما حقيقة هذا الشعر فهي أقرب إلى العصبية منها إلى جوهر الدين ،
فلا شعر المسلمين كان تصويراً صحيحاً أو قريباً من الصحة للإسلام
ولا شعر المشركين كان تصويراً صحيحاً أو قريباً من الصحة لتشويه
المشركين بدينهم أو آلهتهم أو عادتهم وتقاليدهم . ولستنا نعني بتصوير

(١) المفصل في تاريخ الأدب العربي احمد أمين وآخرين ١-١٧٠

(٢) درج حماسة أبي حامد البيرزي ٢-٨٨

(٣) المصدر السابق وسيرة ابن هشام

الشعر للدين أن يكون منظومة تحوى التشريع والآحكام والمواعظ ، وإنما تعنى جوهر الدين وفضائله ، فقد كان الشاعر يستطيع أن يسيغ على شخص معين يمدحه من الفضائل والمزايا ما يتحدث به الركبان ، ولكن شعراً الإسلام لم يبرزوا من الإسلام إلا معايير سطحية لا تحمل سمات التصوير الشاعري ، كقوله كعب بن زهير يخاطب الرسول في قصيدة المشهورة (يا قاتل سعاد) .

مهلا هداك الذي أعطاك نافلة القرآن فيها مواعيظ وتفصيل قوله – إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيف الله مسلوب أما سائر القصيدة ، سواء في مقدمة المقيبة في وصف الناقة أو مؤخرتها المقيبة في مدح الرسول وعشيرته من قريش والهاجرين ، فلم تكن تخرج عن أسلوب الجاهلية في الشعر ، سواء في الألفاظ أو المدح كمدح الرسول ^(١) ولو كان للإسلام أثر واضح في نفس كعب ، لظهر في تصويره للرسول حين يمدحه ، وإن يعجز شاعر مثل كعب حينئذ أن يصف المزايا الدينية والخلقية وما أحده الرسول من تغيير كامل في نقل العرب من جاهلية دينية خلقية إلى نور الإسلام ، وغير ذلك ، خاصة وأن هذا الشعر كان قبيل رفاة النبي صلى الله عليه وسلم . حيث كان الإسلام قد سيطر على الجزيرة العربية وانضمت معالله ومزاياه حتى للذين لم يكونوا قد

(١) انظر شرح ديوان كعب السكري ص ٦ وما يليها

دخلوه بعد ، ولكن مدح كعب كله اعتمد على تصوير الرسول بصورة أسد منيع ، يحمل واديا رهيبا لا يجرؤ طائع أو صائد أن يدتو منه^(١).

بل إن حسان بن ثابت مع أنه كان أكثر الشعراء صلة بالرسول وأقربهم مكانا منه ، ومع أنه كان من تبشيرهم دفاعا عن الإسلام ، وجا لشخص الرسول ، إلا أن تصويره لإسلام ، وصفات الرسول كان من أضئت جوانب شاعرية حسان ، وهذه قصيدة همزية تعد من أشهر شعر حسان الإسلامي ، ومع ذلك فكل ما جاء فيها من مدح الرسول تقريرا هو^(٢)

وقال الله قد أرسلت عبادا يقول الحق إن نفع البلاء
ويروى (يقول الحق ليس به خفاء) فما ميزة الرسول في هذا
المدح عن أي رجل شجاع يقول الحق وسط الشدة ، أو يقوله واضحا
غير متتو ؟ ولذلك أبدى الأصمسي ملاحظته عن الفارق بين الشعر
الجاهلي والإسلامي ، مستشهدًا بحسان بن ثابت كمجرد مثال ،
حيث يقول (الشعر نكد بابه الشر ، فإذا دخل في الخير ضعف ،
هذا حسان فحل من فحول الجاهلية ، فلما جاء الإسلام سقط . شعره)
وكذلك شعراً المشركون في مكة ، لم يكن لليم دافع ديني حقيقي
يدعون إليه أو يدافعون عنه ، وإنما كانوا يدافعون عن كيانهم هم ،
[وعن تقاليدهم ومكانتهم] ، ولذلك تحاشوا في شعرهم الذي كانوا

(١) انظر ديوان حسان بن ثابت ٧٣ وما يهدأها

(٢) الشعر والشعراء، لابن قتيبة ٣٠٥-١

يناوئون به المسلمين أن يتحدثوا عن آلهتهم أو عن دينهم ، فلم يكن الدين للذاته غرضاً واضحاً في شعرهم على الإطلاق ، وحتى هجاؤهم حينفند للنبي صل الله عليه وسلم لم يكن من الناحية الدينية ، وإنما بوصفه خصماً وعدواً لهم ، أعني أنهم لم يركزوا هجاءهم على إنكار صفة الشبهة ، أو تكليب الإسلام ، وإنما على طابع الهجاء التقليدي لهذا هبيرة بن أبي وهب المخزري الذي أصر على كفره حتى مات ، يسموه أن تسلم زوجه أم هان إبنة أبي طالب ، فلم يتزد في حديثه عن إسلامها على إعلان فراقه إليها ، وأن ما بينهما من بعد أصبح شاهقاً بعيداً ، فيقول (١)

فإن كانت قد تابعت دين محمد وعطفت الأرحام منك جبالها
فكوفى على أعلى سمحيق بهضبة مملوكة غبراء يتبس باللهـا
بـ - شعراء الـادية ، أو ما يعرف بالـوبر ، وهم الذين تشـبـعـتـ
نفوسهم بـغـلـاظـةـ الـبـادـيـةـ ، وجـفـوةـ الـأـعـارـابـ ، وهـؤـلـاءـ كانواـ بـطـبـعـهـمـ أقلـ
الـنـاسـ عـمـقاـ فيـ الدـيـنـ ، فـإـنـ إـيمـانـ بـعـنـاهـ النـفـسـ يـعـتمـدـ عـلـىـ الـروحـانـيـةـ
وـالـشـاعـرـ النـفـسـيـ الرـقـيقـ الرـحـيمـ الـعـبـيـةـ ، وـهـمـ بـسـلـوبـ مـعـيشـهـمـ
غـيرـ مـهـيـنـ لـهـذـهـ الـدـرـجـةـ مـنـ هـذـهـ المـعـاـقـ ، فـكـانـواـ قـبـلـ الـإـسـلـامـ أـسـوـاـ
الـجـاهـلـيـينـ ، تـاحـراـ وـتـابـراـ رـقـطـعاـ لـلـطـرـيقـ وـغـيرـ ذـالـكـ ، وـكـانـواـ فـيـ
الـإـسـلـامـ أـصـنـعـ السـلـمـيـنـ إـيمـانـ ، وـلـذـكـ خـصـمـهـمـ الـقـرـآنـ بـأـكـثـرـ . مـنـ
وـصـنـعـ بـالـغـاصـحـ فـغـيـرـ طـبـيعـهـمـ كـفـولـهـ (ـالـأـعـارـابـ أـشـدـ كـفـراـ

(١) سیرۃ ابن هشام ۸۷۷- ۸۷۸ - ۸۷۸

ونقا (١) وكقوله (قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن
قولوا أسلمنا وما يدخل الإيمان في قلوبكم) وحيث كان هذا حكما على
أعراب البايدية ، فإنه أشد انطباقا على شعراء البايدية ، لأنهم كما
سبق أضفت الناس تبيؤاً لمعنى الإيمان العميق الثابت المستقر ، ولذلك
نجد شعراءهم تلزهم رقة الدين وضعف التشبيب بالإيمان وما منهم إلا
من له في ذلك أخبار كثيرة تنتهي عن أن نفسيته لم تتفعل بالدين في
أوضاعها ، وأبه وإن اكتسى إهاباً مسلماً منقاداً لحكم الإسلام وسيطرته
فإن قوله لم ينزل يحن حينها قوريا أو ضعيفا إلى الجاهلية ، ومن أطرف
ما عبر به الشعراء حينئذ عن حالهم هذه التي أصبحوا فيها مكبلاين
بقيود الإسلام ، لا يستطيعون منها فكاكا ، ثم يختون إلى الجاهلية
فلا يجدون إليها سبيلا ، قوله أبي خراش الهدل الذي كان في الجاهلية
صلعوا كا قاطعا للطريق ، يفعل ما يشاء ، ثم جاء الإسلام يتقيوه
التشريعية التي يراها أبو خراش سلسل حديث يقول :
فليس كمهد الدار يا أم مالك ولكن أحاطت بالرقب السلاسل
وعاد الفتى كالكهل ليس يقاتل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل (٢)
ولذلك لم يتتردد هؤلاء الأعراب في الخلوص من الإسلام والردة إلى
الجاهلية فور أن زالت من نفوسهم هيبة النبي بوفاته ، فارتدوا ولم
يبق في الإسلام إلا أهل الحاضرتين مكة والمدينة .

(١) الآية ٩٧ سورة التوبة

(٢) الكمام ، للمرد - ٢٦٧

وإذا ألقينا نظرة على موقف الشعراء المخضرمين من الدين ، سواء من ناحية العقيدة والتشريع ، أو من ناحية السلوك والتطبيق ، نجد الوضع كما يلي :

الانحراف في الدين :

المتبع لأخبار الشعراء في هذه الحقبة الأولى من الإسلام ، وهي دون شك أزهى الفترات الدينية على الإطلاق ، يستطيع أن يخرج بحقيقة أو حكم لا تكاد تختلف عليه الروايات ، وهو أن الشعراء في مجموعهم كانوا هم الاستثناء أو الشذوذ في الوضع الشامل الذي بلغه هذا الجيل المعاصر للنبي صلى الله عليه وسلم عقيدة وسلوكا ، والذي لم يبلغه جيل قبله ولا بعده ، فالشعراء كانوا هم الفئة الوحيدة التي عرف شذوذها عن هذا الوضع ، ولكنهم لقلتهم عددا في المجتمع ، ولقوة اندفاع الحماس الديني الذي لم يكن يستطيع أن يعاكسه ، بل ولا أن يقف في وجهه أى شذوذ وأيضا لأن شذوذهم كان ذاتيا لم يقصدوا منه أن يكون متهجا لغيرهم ، أو دعوة يدعون إليها ، لذلك لم يكن شذوذهم واضحا ، فضلا عن أن يكون ذا تأثير .

فاما أنهم كانوا يخلون الشذوذ ، فهذا ما تفرض به الروايات ولا تستثنى منهم إلا النادر ، فيعرضهم تجمع الروايات على اتهامه في عقیدته نفسها : كثيرون الطمحان التقيني ، الذي تصفه الروايات بأنه

كان خبيث الدين في الجاهلية والإسلام^(١) والخطيبة التي تصفه الروايات بأنه رقيق الإسلام ، ثم الطبع ، وقد أنكر الزكاة ، وأنكر خلافة أبي يكر^(٢) وعتبة بن مردان المشهور بابن فسدة ، يصفه ابن عباس وهو وال على البصرة بالكفر والعصيان ، ويصفه بشحو ذلك عمار بن الكريز الولى وله شعر يعرض فيه بما والروايات تصفه بأنه خبيث اللسان ، مخوف المرة في جاهليته وإسلامه^(٣) ومن المتهمين في عقيدتهم شبيب بن ورقاء ، الذي يوصي إسلامه بأنه إسلام سوء ، وكان لا يصوم رمضان ، وجبن أذكرت منه أبيته ذلك ، قال^(٤)

تأمرني بالصوم لا دررها وفي القبر صوم ، لا أباك طويل
ومنهم النجاشي الحارثي الشاعر ، الذي تصفه الروايات بأنه فاسق رقيق الإسلام ، وكان يُقطّع رمضان علانية ، حتى ضربه علي بن أبي طالب في ذلك ثمانين سوطا ، وزاده عشرين ، فقال له النجاشي : ما هذه العلاوة يا أبي الحسن ؟ فقال هذه لجرأتك على الله في رمضان^(٥) ومنهم حريرث بن زيد الخيل الطائي الذي قتل معلم القرآن الذي أرسله عمر بن الخطاب ، وقتل عددا من أصحابه ، ثم هجا قريشا ، لمجرد أن هذا المعلم واسمه أبو سفيان ضرب رجلا طائيا من قرابة زيد الخيل

(١) الأغافل للاصفهاني ٣-١٣

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٢٢٢-٢٢٢ و المزاجة المبداء ٤٠٨-٢

(٣) الأغافل للاصفهاني ٢٣١-٢٢٨-٢٢

(٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٥٢-١

(٥) المصدر السابق ٣٤٠-١

وهو يعلمه القرآن فمات الطائى الذى يدعى أوس بن خالد ، وقال حرثيث
بعد قتله أبا سفيان المعلم وصحابه يخاطب قريشاً والملقبين^(١)

فإن تقتلوا بالغدر أوساً فلأنى تركت أبا سفيان ملتزم الرجل
قتلنا بقتلنا من القوم عصبة كراما ، ولم نأكل بهم حشف النخل

وأمية بن الأスクر تغلبه المصيبة على الدين ، فيهجو رجالاً مجردة
أنه أعاد النوى والملقبين على قومه من هوازن ، في سرية بين المصطلق^(٢)

وتميم بن مقبل يوصي بأنه كان يسكن أهل الجاهلية^(٣) وأبو خراش
الهذلي يرثى ذُبْيَةَ السلمى سادن العزي الذى قتله خالد بن الوليد بعد

أن هدم العزي صنم غطfan^(٤) ومنهم المغيرة بن الأسود الأسدى الذى
تصفه الروايات بأنه كان ماجينا فاسقاً فاجرًا مدعمن خمر ، وكان يسخر

من معالم الإسلام ، كسيخريته من الصلاة ، حين قيل له إنك الله
وصل ، فقال بعد أن ضيقوا عليه : إما أن أصل ولا أظهر ، أو

أظهر ولا أصل ، ثم صل بغير وضوء^(٥) ، وهذا منازل بن ربيعة
المقرى ، ينشد شعراً والناس في صلاة الجمعة ، فوصفه عمر بن الخطاب

حتى غلب عليه لقب اللعين المقرى ، ويوصي بأنه هجاء للأضياف^(٦)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٨٦-٢٨٧

(٢) الأغافل للاصفهاني ٢١-٢١

(٣) مزانة البهادري ٢٣١-٢٣١

(٤) الأغافل للاصفهاني ١٠٩-٢١

(٥) مزانة البهادري ٤٨٩-٤٩٠

(٦) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٩٩-٤٩٩

ومتهم أبو محجن الثقفي الذي اشتهر عنه ولعه الشديد بالخمر ، والذى تناقل الناس عنه فى هنا الولع قوله فيما قال من شعر كثير في الخمر :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تُروي عظامي بعد موتي عروقها

ولكن الأبعد من هذا فيما يتعلق بحديثنا عن العتيدة ، أن أبي محجن فيما ذكره الروايات قد تعمى نبأه في الخمر إلى إدعاة أنها حلال ، ملتصماً في ذلك بعض الشاروايل ، مع أن مثل هذا يعتبر كفرا ، لأنك إنكار معلوم من الدين بالضرورة ، ولذلك أفتى على بن أبي طالب بقتلها هو وجماعته التي ادعت حل الخمر إن أصرروا على تحليتها ولكنهم رجعوا وقالوا بتحريمها ، فأفأقام عليهم الحد ، فلما جلد أبو محجن قال شعراً يؤكّد إصراره على الخمر من مثله قوله :

ولئن لتو صبر وقد مات ليخونى ولست عن الصبيه يوماً يصابر

فأراد عمر بن الخطاب أن يزوره جلداً فوق الحد ، فأفتى على بن أبي طالب بأن في القرآن ما يلخص له به شيء من عذر بوصفه شاعراً كقوله تعالى عن الشعراء (وأئمهم يقولون ما لا يفعلون) فيحمل إصرار أبي محجن على أنه أئمته لا يلزم تحقيقها ^(١) ، وهذا عمرو بن معد يكتب الزبيدي الذي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به عند لقاءه ، تجده ما إن يعلم بوفاة النبي حتى يرتد عن الإسلام ، لاصحصية قبيلية تنتقم على قريش بلوغ ما بلغته ، ولا للتحفظ من مهرم الزكاة التي حسبها بعض العرب جزية تفرضها عليهم قريش الفارقة

(١) الآفاق للاصفهاني ١٩-١١-١٣

المنتصرة ، وحسبها بعضهم الآخر إثقالاً عليهم و مقاسمة لهم في
أموالهم ، وإنما ارتد عمرو فيما ظهر من أمره بسبب نفوره من الوالى
الذى ولاه النى أميراً على قومه وهو فروة بن مسيك ، وقد عبر عمرو
عن إنكاره لولاية فروة بـ شعر منه (١)

وجدنا ملك فروة شر ملك حماراً ساف متخرّةً يتنفس
ومنهم أبو شجرةُ السُّلْمَى الذي كان قد ارتد مع المرتدين عن
الإسلام ، ولكنه أبدى بشعره نفوراً شديداً من المسلمين ، وتحملا
شديداً عليهم ، ثم وفد على عمرو بن الخطاب ، وكان عمر أحسن أن
أيا شجرة لم ينزل قريباً من الجاهلية ، وبعيداً عن الإسلام ، فذكره
عمر بقوله في حربه خالداً وجيشه من المسلمين أثناء الراية :
ورؤيتُ رمحى من كثيبة خالدٍ وإن لأرجو بعدها أن أعمّرا
ثم انحنى عليه عمر يضربه بالدرة ، فحمل عقال ناقته ، وانطلق
مسرعاً تجاه قومه من بني سليم وهو يقول شعراً منه (٢)

مازال يضربني حتى خذلت له وحال من دون بعض الرغبة الشفق
وهذا الشماخ بن ضرار ، يستهين بالحلف ، ولا يرى في اليهين
أكثر من شيء يريح النفس ، ويزيح عن القلب همومه ، وما قاله
في ذلك (٣)

ففرجت غم النفس على بحلقة كما قدّمت الشقراء عنها جلالها

(١) سيدة ابن عثام ١٠٠٤-٤

(٢) الكامل ٢٢٩-١

(٣) عزامة البذناني ١٩٥-٣ الشطر الثاني يعني كما تلقى الراية جلاً لها عن ظهرها

الشعراء المافقون :

وهناك شعراء كانوا أشد سوها من الشعراء الذين كانوا يصدرون في مجافاتهم للإسلام عن ضعف في الدين ، أو عدم عمق في الإيمان ، وهم الشعراء المافقون ، فهو لام كانوا خطراً على الإسلام ، حيث كانوا ينفثون سمومهم ، ويستغلون مقدرتهم الكلامية ، وتقبل الناس للشعر وتتأثر به ، فيطعنون في الإسلام ، ويكتلون له ، بكل ما ماتلية عليه شاعريتهم ، وكل ما يرون فيه هدماً للإسلام بهذه الوسيلة ، فهذا أبو عفك الذي ظهر نفاقه حينما قال شرعاً يحرض في الأنصار على التمرد على الإسلام ، ساخراً من شخص الرسول صلى الله عليه وسلم ، متهمًا إياه بأنه صدع جمع الأنصار أولاد قبيلة ، الذي يزعم أنهم كانوا قبل ذلك جماعاً قوياً لم يتصفحوا إلا بتفريق الإسلام لهم ، ثم يسخر من التشريع الإسلامي متهمًا إياه بأنه يسوّي بين النقائضين معاً في الحلال والحرام ، وهذه المزاعم مع ظهور بطلانها ومخالفتها للواقع إلا أن هذا البطلان إنما يتضح للذين كانوا يحتكون بالإسلام عن قرب ويعرفون شيئاً عن حقيقته ولو كانوا غير مسلمين ، أما القبائل البدوية في الصحراء ، والذين لم يكونوا يعرفون عن الإسلام شيئاً إلا من الأخبار ، وأقوى الأخبار تأثيراً في نفوسهم ما صبيغ بالشعر ، فيتمكن لهذا الشعر أن يؤثر ضد الإسلام حينئذ تأثيراً بعيد المدى خطير الآخر ، ومن شعر أبي عفك هذا :

لقد عشت دهراً وما إن أردت من الناس داراً ولا مجده

أَبْرُّ عَهْوَدًا وَأَوْفِي لَمَنْ يَعْاْدِ فِيهِمْ إِذَا مَا دَعَا
مِنْ أَلَادْ قِيلَةً فِي جَمِيعِهِمْ يَهُدُّ الْجَبَالَ وَلَمْ يَخْضُعَا
فَقَصْدِهِمْ رَاكِبْ جَمَاعِهِمْ حَلَالْ حَرَامْ لَشَتَّى مَعَا
لَذَكْ صَاقَ النَّبِيْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهِذَا الشِّعْرِ ، وَأَمْرَ بَقْتَلِ
أَبِي عَفَّكَ فَقَتَلَ فَقَاتَلَ إِحْدَى نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَهِيَ أُمَّةَ الْمُزَيْرِيَّةَ
تَظَاهَرُ رِضَاَهَا عَنِ التَّخَلُّصِ مِنْ أَبِي عَفَّكَ مُخَاطَبَةً إِيَّاهُ :
تَكَذِّبُ دِينَ اللَّهِ وَالْمَرْءَ أَحَمَّا لِعْنَرُ الذَّيْ أَمْتَكَ أَنْ يَشْئُ مَا يَخْتَيْنِي
جِبَالُ حَنِيفٍ آخِرَ اللَّيْلِ طَعْنَةً أَبِي عَفَّكَ خَذَنَهَا عَلَى كَبِيرِ السَّنِ
وَلَكِنْ قُتِلَ أَبِي عَفَّكَ أَظْهَرَ نِفَاقًا آخِرَ بِالشِّعْرِ ، فَقَدْ اسْتَرَتْ إِحْدَى
شَوَاعِرِ الْمَنَافِقِيْنَ ، وَهِيَ عِصْمَاءُ بَنْتِ مَرَانَ ، الَّتِي أَظْهَرَتْ فِي شِعْرِهَا
نِقْمَةً عَارِمَةً عَلَى الْإِسْلَامِ ، وَحَقَّدَتْ شَدِيدًا عَلَى شَخْصِ الرَّسُولِ ،
تَلَوَّمَ أَنْصَارَ النَّبِيِّ مِنْ بَنِي مَالِكَ وَبَنِي عَوْفٍ وَبَنِي النَّبِيِّ وَبَنِي الْخَرْجِ
عَلَى اتِّبَاعِهِمْ لِلنَّبِيِّ ، زَاعِمَةً أَنَّهُ يَفْرُضُ عَلَيْهِمْ إِلَاتَوَةً ، ثُمَّ تَرِيدُ أَنْ تَحْمِلَ
مِنْ نَسْبِ قَرِيشٍ وَكَبَابِنَ ، زَاعِمَةً أَنَّهَا دُونَ مَرَادٍ وَمَدْحَجٍ ، وَأَنْخَطَتْ مِنْ
هَذَا أَنَّهَا تَحَاوَلُ أَنْ تَدِيرَهُمْ وَأَنْ تَذَكِّرَهُمْ بِقَتْلِ الْمُسْلِمِينَ لِرَعْوَسٍ ، تَعْنِي
رَعْوَسَ الْكُفَّارِ ، وَلَعْلَهَا تَعْنِي مِنْ بَيْنِ الرَّعْوَسِ أَبِي عَفَّكَ ثُمَّ تَنْتَهِيُّ مِنْ هَذَا
كُلَّهُ إِلَى التَّحْرِيْضِ عَلَى اغْتِيَالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَقُولُ
بَاسْتَ بَنِي مَالِكَ وَبَنِي النَّبِيِّ وَعَوْفٍ ، وَبَاسْتَ بَنِي الْخَرْجِ
. أَطْعَمْ أَنَّوْيَ منْ غَيْرِكُمْ فَلَا مِنْ مَرَادٍ وَلَا مَدْحَجٍ

ترجمونه بعد قتل الرؤوس كما يرتجى من المقصود
ألا أنيف يبتغي خرجة فيقطع من أمر المترجم
وخطورة هذا الشعر المثير للفتنة واضحة ، ولذلك أمر النبي صلى
الله عليه وسلم بقتلها فقتلـت^(١) ولم يكن أبو عفك وعصماء بطبيعة
الحال كل شعراً منافقين المحترفين للشعر ، أو الظاهرين بين
الشعراء ، وإن كانت الروايات لم تبرز من هذا النوع من الشعراء
غيرهما ، ولعل مرد ذلك هو ارتباط أخبارهما بشخص النبي وأمره
بقتلهم . . .

شعراء اليهود :

ومن المعروف أن اليهود كانوا أخطر أعداء الإسلام منذ بدء الإسلام
ولذلك فمن المتوقع أن تظهر هذه العداوة في الشعر ، سواء من الشعراء
اليهود ، أو الشعراء العرب الموالين لهم ، والمعاطفين معهم ، ثم من
الطبيعي أن يكون هناك شعر للرد على هذا الشعر .

وقد كان من شعراء اليهود المشهورين كعب بن الأشرف ، رغم
أن نسبة الحقيقي في طيء من الأصل اليهودي ، ولكن أمم كانت من
يهود بنى النصيري ، ولا يزال اليهود يعودون الأصولة في اليهودية ترجع
إلى الأم ، وليس إلى الأب ، معنى أنهم يعودون اليهودي من كانت
أمهم يهودية ولو كان أبوه غير يهودي ، ولا يعودون الشخص يهودياً إذا

(١) سيرة ابن هشام ٤٠١-٤

كانت أمه غير يهودية ولو كان أبوه يهوديا ، وقد كان كعب بن الأشرف من أشد اليهود تحصبا ضد الإسلام ، وحرسا على حرب المسلمين ، وقد أصابه الفزع على مستقبل اليهود حينما انتصر المسلمون في بدر وأحس بما يستقبل المسلمين من مجد وعلو وغلبة ، فرجل إلى مكة يؤلب قريشا ضد المسلمين ، ويعدهم عوازرة اليهود لهم ، مثيرا في نفوسهم الحزن والحدق لقتل رموزهم في بدر ، مظهرا حزنه الشديد على قوتهم ، وقد قال في ذلك شعرا غير قليل منه^(١)

طحنت رحي بدر لهلك أهله وليل بدر تستهل وتلتمع
قتلت سرة الناس حول حياظهم لا يبعدوا إن الملوك تصفع

ثم يقول :

صدقوا فليت الأرض ساعة قُتُلوا خللت تسوخ يأدها وتصدّع
ثم رجع كعب بن الأشرف من مكة إلى المدينة ، وكأنه أعلى
الحرب على المسلمين بالشعر ، وكان من أبرز ما عمد إليه حينئذ إيمان
المسلمين في أعراضهم ، والتشبيب بتناثرهم^(٢) حتى خساقوا به
فأمر النبي بقتله فقتل

وكان مقتل كعب بن الأشرف طعنة تآلم لها سائر اليهود ،
يوصي به علماء من أعلامهم ، فانبرى شعراً لهم يعبرون عن هذا الألم في
صورة وعد للMuslimين ، أو تمجيد لکعب أو نحو ذلك ، وهذا سماك

(١) سيرة ابن هشام ٣٦٤-٣٦٥ وما بعدها

(٢) انظر تاريخ الأمم والملوك ٢٧٨-٢٧٩ وفيه شهر تشبيب كعب ببعض شعر المسلمين وانظر
تلقيح فنون أهل الأثر من ٣٠

اليهودي الشاعر يخاطب المسلمين بقوله :^(١)

إن تفخروا فهو فخر لكم بقتل كعب أبا الأشرف
غداة غدوم على حفنه ولم يأت غدرا ولم يخلف
فإن لا أمت ناتكم بالقنا وكل حسام مما مُرْهَف
بكف كمي بس يُخْمِي مت يُلْقِي قرنا له يُنْفَع
وقد تلى ذلك إجلاء بنى النصیر عن المدينة ، بعضهم إلى خيبر ،
وبعضهم إلى الشام حين توالي كيدهم للإسلام والمسلمين ، وآخر
الكيد محاولتهم اغتيال النبي صلى الله عليه وسلم بـ لقاء حجر كبير عليه
من شاهق وهو جالس في ديارهم يقاومهم ، ولكن الله أوحى إليه ذلك
فأنصرف قبل تنفيذ مؤامرتهم ، فيقول سماك اليهودي في مقتل كعبه
وإجلاء بنى النصیر شعراً كثيراً منه :

قتلتم سيد الأجيال كعباً وقتلتما كان يأْنَ منْ يجبر
ومن شعراً اليهود الذين جعلوا من شعرهم سلاحا ضد الإسلام
مرحب اليهودي ، الذي كان من شعره هذا الرجز الذي ارتजزه حين كان النبي
والمسلمون يحاصرون حصن اليهود في خيبر ، حيث خرج مرحب
بسلاحه يتحدي المسلمين ، ويطلب المبارزة قبل أن يقتله محمد بن
سلمة :

قد علمت خيبر ألي مرحب شاكى السلاح بطل مجرّب

(١) سيرة ابن هشام ٢-٦٨٨

أطعن أحياناً وحينما أضرب إِذَا الْبَوَثُ أَقْبَلَ تَحْرُبُ^(١)
بل إن بعض شعراء اليهود انخلوا من شعرهم وسيلة للتبشير عن
الخيانة في الأعراض ، والتسليل إلى أزواج المجاهدين ، كهذا الشاعر
اليهودي الذي لم تحدد الروايات اسمه ، والذي تسلل إلى زوج
الأشعث الأنصاري ، الذي كان غائباً عن المدينة في إحدى غزوات
المسلمين في عهد عمر ، ومر بيكر بن الشداح بدار صديقه الأشعث ،
فسمع هذا الشاعر اليهودي يحادث زوج الأشعث ، ويقول شعراً
يسخر فيه من الأشعث ومن الإسلام ومنه :

وأشعرت غرَّةَ الإِسْلَامَ حَتَّى خَلَوْتُ بِعَرْسِهِ لَيْلَ النَّسَامِ
فَقَتَلَهُ بَكْرٌ وَأَلْقَى بِهِ ، فَنَادَى عُمَرُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ فَوْقِ التَّبَرِ أَنْ
يَدْلُوهُ عَلَى قَاتِلِ هَذَا الْيَهُودِي ، فَقَاتَلَهُ فَاعْتَرَفَ ، وَقُصِّ مَا حَدَثَ
فَأَمْدَرَ عَرْدَمَ الشَّاعِرَ الْيَهُودِيَّ (٢) وَلَكِنْ بَعْضَ الشَّعْرَاءِ الْعَرَبِ كَانُوا
مُتَعَاطِفِينَ مَعَ الْيَهُودِ ، فَأَظَهَرُوا أَمْقَهُمْ عَلَى هَزَّةِ الْيَهُودِ ، وَنَيَّلُ الْمُسْلِمِينَ
مِنْهُمْ ، وَمِنْ هُؤُلَاءِ الْمُتَعَاطِفِينَ مَعَهُمْ الْعَبَاسُ بْنُ مَرْدَاسِ السَّلْمِيِّ ، الَّذِي
تَغَنَّى بِشِعْرٍ قَبْلَ إِسْلَامِهِ يَبْدِي فِيهِ إِعْجَاجَهُ بِرِجَالِ بَنِي التَّضِيرِ وَتَسَاهِمِ
مَظَاهِرِ حَزْنِهِ عَلَيْهِمْ وَمِنْهُ :

لَوْ أَنْ أَهْلَ الدَّارِ لَمْ يَتَصَدَّعُوا رَأَيْتُ خَلَالَ الدَّهْرِ مَلْهِي وَمَلْعِبًا
عَلَيْهِنَّ عَيْنٌ مِنْ ظَبَابٍ تَبَالَةٌ أَوَّلَيْسَ يَصْبِبُنَّ الْحَلِيمَ الْمُجْرِبًا

(١) سيرة ابن هشام ٣-٦٩٦.

(٢) الأصابة في تبيير الصابه لابن حجر المقلاني ١-٤٥٠.

إذا جاء ياغي الخير قلن فجاءه له بوجوه كالدنانير : مرحبا
 ولذلك يحييه خوات بن جبیر الانصاری متذمراً بشعر منه : (١)
 تُبکی علی قتلی یہود ، وقد تری من الشجو لو تبکی أحب وأقربا
 ومن الشعرا المتعاطفين مع اليهود عبد الله بن الزبری القرشی ،
 الذي يظهر حزنه على قتل اليهود يوم الحندق ، مجدداً صمودهم
 لل المسلمين في حضورهم ، في شعر منه : (٢)
 حَتَّى الديار محا معارف رسماها طول البلي وترواح الأحباب
 فكأنما كتب اليهود رسومها إلا الكثيف ومقدار الأحباب
 شهراً وعشراً قاهرين مهدأً وصحابه في الحرب خير صحاب
 ومن هؤلاء الشعراء جبل بين جوال الشعابي ، الذي يکی بشعره
 آفة اليهود من بنی النفسير وبنی قريطة ، فيعد في حزنه ورثائه كثيراً
 من زعماء اليهود ، ومن ذلك : (٣)
 وأفترت البويرة من سلام وستعية وابن أحطب فهي بور
 وكل الكاهنين وكان فيهم مع الين الخمارمة الصقور
 شعراً الشرك :
 وتنفی بهم الشعرا الذين أدرکوا الإسلام ولم يسلعوا ، وهؤلاء
 لا يعلمون في حقيقة الأمر من المخضرين بالقياس الذي سبق الحديث

(١) سیدة ابن هشام ٦٩٠-٣

(٢) المصدر السابق ٧٣٥-٣

(٣) المصدر السابق ٧٤٥-٣

عنه ، وإن كانوا مخضرين من الناحية الشكلية ، أو من الناحية الزمنية ، فقد أدركوا الجاهلية والإسلام ، ولكنهم ظلوا من حيث الدين على جاهليتهم ، ومع ذلك فقد كانوا من عوامل ثراء الأدب والإنتاج الشعري من جانبين ، أحدهما الشعر الذي قاله كثير منهم ضد الإسلام والمسلمين ، والجانب الآخر الشعر الذي قاله الشعراء المسلمين رداً على شعرهم ، فمنذ دعا النبي شعراء المسلمين إلى أن يدافعوا عن المسلمين التزموا أن يردوا على كل شعر يوجه إليهم ، ولذلك نجد كتب الأخبار تقرن كل شعر قبل ضد الإسلام بالشعر الذي دافع به شعراء المسلمين ، وفي كل حال لستا تسوق حديثهم على أنهم مخضرون وإنما على أن شعرهم كان من العوامل الأساسية في شعر المخضرين الدينى ، فلو رجعنا إلى كتب الأخبار لوجدنا أن شعر المخضرين ، وبخاصة الشعر الدينى ، أعنى الشعر المتعلق بالإسلام بصفته ديناً ، أو بال المسلمين باعتبارهم الكيان المجمس لهذا الدين ، أو رجعنا إلى هذا الشعر لوجدناه في كثير من الأحيان رداً على شعر قبل ضد المسلمين وإن كانت الروايات تخرج أن تسوق من هذا الشعر ما يحمل معانٍ فيها مساساً شديداً بالإسلام ، ولذلك نجد ابن هشام في سيرته كثيراً ما يقول عن قصائد من هذا النوع ، تركنا منها أبياتاً أقدرها الشاعر . فيها ، وذلك بعد أن يسوق من هذا الشعر ما تسوغه نفوس المسلمين . وشعراء المشركين الذين لم يسلمو توغان

١ - أحدهما نوع من الشعراء أدرك الإسلام ، فلم يسلم ، ولكنه

لم يشهر شعره ضد الإسلام ، ومن هؤلاء قيس بن الخطيم شاعر الأوس في الجاهلية ، وقد ورد على النبي في مكة ، ودعاه النبي إلى الإسلام ، فأنهمله إلى عام قادم ، ولكنه مات قبل المحو ، فلم يقل شعراً ضد الإسلام ، سواء قبل لقائه بالنبي أو بعده^(١) ومنهم الأعشى ميسون بن قيس القيسي ، الذي وقد علّى النبي صل الله عليه وسلم في عام الحديبية ليسلم ، ولكن قريشاً خشيت أن يتوارد النبي بشعره فأغرته مائة ناقة على أن يرجع عame هذا ثم يعود في العام المقبل ، فرضي الأعشى ورجع ، فلما كان بيغضن أحداء اليهود تفر به بغيرهم فالقاء فقتله^(٢) فلم يقل شعراً ضد الإسلام ، بل يروي أنه كان قد أعد قصيدة يدح بها النبي عند لقائه ، وهي القصيدة أولها :^(٣)

ألم تغتصب عيناك ليلة أرمدا
وبت كما بات السليم مُسْهِدا
ومنها يقول عن ناقته :

وآليت لا أرى لها من بكلالة ولا من حتى حتى تلاقي محظيا
٢ - والنوع الثاني هم الشعراء الذين أدركوا الإسلام ، فلم يكتفوا باصرارهم على الكفر به ، وإنما حاربوه بشعريهم ، واتخذوا من هذا الشعر سلاحاً قوياً ضد الإسلام ، ومن هؤلاء أبو عزة الجمحي القرشي

(١) انظر الآثار الاصفهانية ١-٢ وما يمتدّ منها طبع وزارة الثقافة والإرشاد (تراثنا)

(٢) الشعر الشهاد لابن قنية ٢٥٧-١

(٣) سيرة ابن هشام ٢٥٩-١ وما يمتدّ منها

الذى أسره المسلمون يوم بدر ، فاستعطاف النبي أن يغفو عنه ، شاكيا
فقره وحاجته ، معاها إيه ألا يقول شعراً ضده بعد ذلك ، فرجمه
النبي وخل سبيله ، فعاد بعد حين يهاجم الرسول والمسلمين بشعره ^١
وإذا هو أسير المسلمين في أحد ، وإذا هو يعيد استعطافه للنبي ،
ولكن النبي يقول له : لا تمسح عار ضيتك بمكة ، تقول : خدعت محددا
مرتين ، لا يلدع المؤمن من جحر مرتين ، ثم أمر بقتله فقتل ^(١)
ومن هؤلاء أمية بن أبي الصلت التقى ، الذي كان في الجاهلية
من أبرز القلة التي تحذلت عن الدين من الشعراء ، فلما جاء الإسلام
أبى أن يسلم ، بل استخدم شعره سلاحاً ضد الدين والمسلمين ، وقد
نفي النبي عن رواية بعض شعره في رثاء قتلى بدر من المشركين ^(٢)
وله أشعار أخرى كثيرة تناقلها كتب الأخبار فيها مساس بالإسلام ،
حتى إن ابن هشام يتخرج من رواية بعض أبيات هذه القصائد لأن
فيها نيلاً من أصحاب النبي ^(٣)

ومنهم هبيرة بن أبي وهب المخزوي القرشي ، الذي لام أمرأته أم
هانه بنته أبي طالب على إسلامها بشعره ، وكان من أشهر الشعراء
الذين ناصبوا الإسلام العداء بشعرهم حتى مات كافرا ^(٤) ومنهم حماس
ابن قيس البكري الذي كان من الفارين يوم فتح مكة من جند

(١) المسند لابن دشيق ٦١-١

(٢) تاريخ الأدب العربي كارل بيركلاند ١١٣-١

(٣) سيرة ابن هشام ١-٣-٥

(٤) سيرة ابن هشام ٤-٨٧٦

المسلمين ، والذى لامته زوجه على فراره فاعتذر إليها يشعر منه :^(١)
 إنك لو شهدت يوم الختمة إذ فر صفوان وفقر عكرمة
 وايو يزيد قائم كالثمرة واستقبالهم السيف المسلمة
 لم تنتقلى في اللسوم أدى كلمرة
 ومنهم كثارة بن عبد يا ليل النقفي وكان يرد على شعراه
 المسلمين مفتخرًا ومتوعداً بشعر يبدو فيه الاعتزاز بقوه ^(٢)
 ومنهم سافع بن عبد مناف الذى كان معذوباً من أشهر شعراه
 قريش الذين عرقوا بالتصدى للمسلمين ^(٣)
المنتكسون إلى الشرق :

وبعض الشعراء نكسوا على رؤوسهم ، فأغمضوا أعينهم عن نور
 الإسلام بعد أن رأوه ، ومالاً شك فيه أن هؤلاء لم يسمحوا بإيمان
 أن يصل إلى قلوبهم ، وإنما أسلم بعضهم لغرض خاص يهدف إليه كما
 متى ، وأسلم البعض الآخر لا رغبة في الإيمان ، ولا اقتناعاً وبقيت
 وإنما وجد الناس جميعاً مندفعين إلى الإسلام فاندفع منهم ، أو وجد
 الإسلام قوياً ظاهراً منتصراً فراراً لا يفوته شرف الانضمام تحت
 لوائه ، وفي كلا الحالين لا يكون مثل هذا الشخص مؤمناً بإيمان اليقين
 أو الاتجاه الصادق إلى الله ، ونستطيع التمييز بين نوعين مختلفين
 اختلافاً كبيراً من هؤلاء الشعراء .

(١) ثابط الطبرى ٤٢٥-٢. سيرة ابن هشام ٨٦٦-٤

(٢) سيرة ابن هشام ٩١٩-٤

(٣) تفسير الكشاف للزغبى ٢٧٠-٣

١ - أحدهما نوع ارتد عن الإسلام وظل على الشرك حتى مات وهو ما تعني أنه من الذين لم يؤمروا عن رغبة في الإيمان لذاته ، وإنما لظروف خاصة ، وهذا النوع قليل العدد ، ولا نكاد نعلم منه أكثر شاعرين ، أحدهما مقيس بن صيابة الذي كان إسلامه مجرد خدعة يريد أن يخدع بها الأنصار حتى يأخذ منهم بشار أخيه ، فقدم من مكة إلى المدينة مظهراً بإسلامه ، عارضاً على النبي قضية أخيه الذي قتله بعض بني النجار خطأ ، فأعطاه النبي دية أخيه ، ومع ذلك فقد عدا مقيس بن صيابة على قاتل أخيه فقتله غدرًا ، ثم رجع إلى مكة مرتدًا عن الإسلام في ظاهر الأمر ، أو مظهراً حقيقته في واقع الأمر ، وما قاله عن قاتل أخيه :

حَلَّتْ بِهِ وَتَرَى وَأَدْرَكَتْ ثُورَى وَكَنْتُ إِلَى الْأَوْثَانِ أَوَّلَ رَاجِعٍ
ثَارَنَّ بِهِ قَهْرَا وَحَمَلَتْ عَقْلَهُ سَرَّا بَنِي النَّجَارِ أَزْيَابَ فَارِعَ^(١)
وَالْآخَرُ ابْنُ بَكْرٍ بْنُ الْأَسْوَدِ الَّذِي أَوْجَعَهُ قَتْلُ زَعْمَاءٍ فَرِيشَ فِي
بَدْرٍ ، فَقَاتَلَ بَعْدَ رَدْتِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ شِعْرًا يَرْثِيهِمْ وَيَتَفَجَّعُ عَلَى قَتْلِهِمْ
مُنْكِرًا مَا فِي الْإِسْلَامِ مِنْ حَدِيثٍ عَنِ الْبَعْثَ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ :
تُحَيَّا بِالسَّلَامِ أُمْ بَكْرٌ وَهَلْ لَمْ يَعْدُقُونِي مِنْ سَلَامٍ ؟
فَمَاذَا بِالْقَلِيلِ قَلِيلٌ بِسَرِّهِ مِنْ الْقَبْنَاتِ وَالشَّرَبِ الْكَرَامِ
يَخْبُرُنَا الرَّسُولُ لَسْوَفَ تَحْيَا وَكَيْفَ لَقَاءُ أَصْدَاءٍ وَهَامَ^(٢) ؟

(١) تاريخ الطبرى ٢ - ٢٦٣ والمقى المدة ، وفارع اسم امرأة من الأنصار يتسبّب إليها بنو النجار بالتصفير فيقال بنو الفريمة

(٢) سيرة ابن هشام ٢ - ٥٥٠

٢ - والنوع الآخر هم الذين ارتدوا من الشعراء عن الإسلام فيمن ارتد من العرب ثم عادوا إليه ، وهؤلاء كانوا كفراً بهم من عامة العرب الذين أسلموا عن مجرد السمع ، أعني أن الإسلام وصل إليهم في اليداوي في أول أمر الإسلام مجرد روايات وأخبار عن الإسلام وال المسلمين ، بالإضافة إلى ما في طبيعة اليدوي من جفوة وضعف اعتماد على الروحانية والمشاعر ، فهؤلاء لم يدخلوْن أنفسهم إلا حينما رأوا قوياً ظافراً مكتسحاً لأعدائه ، فكان اندفاعهم وراء القوة والنصر أوضح من اندفاعهم إلى إلحاد نفسيه ، والقرآن الكريم يشير إلى هذا المهى في قوله تعالى (إِذَا جاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحَ) ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبع بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً^(٢) فقد قرن القرآن دخول الأفواج من الناس في الدين بمحاجةٍ نصر الله والفتح ، وليس بظهور الحق أو نحو ذلك ، وفي هذا أيضاً إشارة إلى التدين الجماعي ضمن الأفواج ، والتدين الفردي العميق المؤمن ، وإذن هؤلاء الشعراء كانوا كفراً بهم من عامة الناس ، آتمنا حينما رأوا الإسلام ظافراً منتصراً ، فلما رأوا عامة الناس أيضاً بدأوا ينفثون عنه في ردة العرب انفضوا كفراً بهم ، ولكن الذي يعنينا حينئذ هم الشعراء الذين قالوا شعراً ضد الإسلام والمسلمين في مدة رذتهم ، وهم عدد غير قليل ، منهم الخطيبية الذي ارتد مع المرتدين ،

(١) سورة النصر

ثم عاد إلى الإسلام ، ولكن عقیدته كانت موضع شك ، وما قال من شعر ضد المسلمين خلال رده إنكاره خلافة أبي بكر حيث يقول^(١)

أطعنا رسول الله إذ كان حاضرا فبا لهفتي ما بال دين أبي بكر ؟
أبىورثها بكرًا إذا مات بعده فتلاه وبيت الله قاصمة الظهر
ومنهم عمرو بن معد يكرب الريبيدي الذي قال شعرا في رده ضد المسلمين ، ومن ذلك إنكاره ولادة غرفة بن مسيك الذي ولد
النوى على قبائل من اليمن منها زبيد يقول عمرو حينئذ^(٢)
وجدنا ملك غرفة شر ملك حمارا ساف متخرجه بشفر
ومنهم أبو شجرة السلمي الذي قال شعرا في قتاله المسلمين الناه
الردة^(٣)

ومن المروف أن أهل مكة والمدينة ثبتو على إسلامهم فلم يرتدوا مع العرب ، ولذلك لن نجد في هذا النوع من الشعراء المرتدون بعد وفاة النبي أحداً من أهل مكة والمدينة ، والذين سبق ذكرهم الآن كذلك ، فالخطبيرة عيسى ، ومهمما تنقل بنسبيه في القبائل كما حدث ، فإنه لم يدع انتسابه إلى أحد في مكة والمدينة ، وعمرو بن معد يكرب من زبيد اليمنية ، وأبو شجرة من بني سليم فيما يلي مكة والطائف من البادية .

(١) مزانة البناوي ٤٠٨-٢

(٢) سيرة ابن هشام ٤-٥-١٠٠

(٣) الكامل للبرد ١-٢٢٩

المشكوسون في الامان :

ونعني بهم الشعراء الذين لم يكن انتكاسهم من الامان إلى الشرك وإنما كان انتكاسهم ضعفا في إيمانهم بينما كان ينتظر منهم صدق الامان ، وقوة اليقين ، ونعني بما يتذكر منهم أنهم كانوا في موضع من الإسلام يسع صاحبه عادة التقدم والعلو في الدين ، ولكنهم بدل أن يتقدمو تقهقر ، ويبدل أن يرتفعوا هؤوا بأنفسهم درجات غير صغيرة في النزول .

ومن أشهر هؤلاء الذين هبطوا بأنفسهم في الدين حسان بن ثابت فقه أتيحت له في الإسلام مزايا لم تتح لشاعر غيره قط . لا يكفي أن يكون منها تملكه أعظم لقب شاعر ، وهو شاعر الإسلام أو شاعر الرسول ، بالإضافة إلى كونه أقرب الشعراء مكاناً من النبي ، وكونه من آنفوال النبي ^(١) ومع ذلك فقد نزل حسان بنفسه من هذه القمة حتى أوشك أن يدنو من الحضيض ، وقد كبا كبيوتين كانتا بالقياس إلى من هو في منزلته قاتلتين ، إحداهما كانت من أفحش الكبائر ، وهي خوضه في عرض عالمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فيما سماه القرآن بالألفك ، وقد جلد حسان من أجل ذلك حد القذف ، بعد أن أظهر القرآن براءة عائشة ^(٢) والكبيرة الثانية وإن كانت دون الأولى بكثير ، إلا أنها تدل على عدم العمق الديني الملائم ل مثل حسان ، وهي اهلال سخطه على عطاء النبي

(١) هم آنفوال عبد الله والنبي

(٢) سيدة ابن هشام ٣٦٩-٣

صلى الله عليه وسلم للأنصار من الغنائم يوم حنين ، ونقول إعلان السخط ، لأن كثيراً من الأنصار حينئذ راودهم هذا الشعور ، ولكنهم لم يعلموا ذلك وإن كان قد تحدث به بعضهم إلى بعض حتى أفتعلهم النبي بما يهدف إليه ، في خطبته المشهورة ، والفرق كبير بين مجرد خواطر النفس ، والحديث الخاص وبين الإعلان باللسان والشعر ، وبخاصة في وقت يمكن أن يكون هذا الإعلان مصدر فتنة ، كما حدث فعلاً حينئذ ، حين قال حسان شمراً غير قليل يعاتب فيه التي عتاباً لا يخلو من شعور بالماراة ، ومنه :

دع عنك شماء إذ كانت مودتها نزراً وسر وصال الواصل النزر
وأنت الرسول فقل يا خير مؤمن للمؤمنين إذا ما عُدد البشر
علام تدعى سليم وهي نازحة قدام قوم هم آروا وهم نصرعوا
فما ونبنا وما نحمنا وما خبروا . منا عثرا وكل الناس قد عثروا
وأوضح ما يشتبه عن نفسية حسان وأله في هذا الشعر حديثه في
الغزل ، فقوله (دع عنك شماء إذ كانت مودتها نزراً . .) يعنيه
عن مدى إحساس حسان بالماراة من حرمانهم من العطاء ، وكان النبي
يومئذ قد قسم الغنائم مستهدفاً تأليف القلوب ، فكان المحدثون في
الإسلام والمؤلفة قلوبهم أكثر الناس عطاء ، وكان أقلهم من وثق النبي
من إيمانهم ، ومن شدة ثقته في إيمان الأنصار لم يعطهم شيئاً كبيراً ،
فاستغل المنافقون والشباب الذين لم يفقهوا حكمة الرسول هذا
الوضع فأخذوا يوغررون صدور الأنصار ، حتى خطب فيهم النبي خطبته

البالغة التأثير والعمق النفسي ، فاغضبت لحاظه بالدموع ثلما
وتائراً^(١) .

ومن هؤلاء الذين هبتو بأنفسهم من حيث كانوا يستطيعون العلو في الدين العباس بن مرداس المسلمين ، الذي كان من أبرز شعراء بنى سليم وفرسانهم ، وقد قال قصائد يعتز فيها باشتراك ألف مقابل من قبيلته مع التي في فتح مكة والطائف^(٢) ورغم أن معظم شعره ينصب على الفخر بقومه ، إلا أنه في جملته شعر إسلامي كان يمكن أن يسمى بمنزلة العباس بين المسلمين ، ولكنه بدل ذلك وقف موقفين كانوا ضد رغبة النبي صلى الله عليه وسلم ، فمن الطبيعي أن ينزلوا به في تدليمه ، وفي أعين المسلمين ، وأحد هذين الموقفين رفضه رغبة النبي في أن ترد إلى بنى سعد بن بكر من هوازن سباياهم من النساء والأيتام حين جاءه وفد هوازن بعد انتصار المسلمين في حنين على هوازن وتقسيمهم الثنائي ، وفي الوفد ذهير أبو صرد يقول عن بنى سعد الذين تربى فيهم النبي رضيوا : يا رسول الله إنما في السبايا عماتك وخالاتك وحواضنك اللائي كن يكفلنك ، ولو أنا ما لحتنا الحارث بن أبي شمر ، أو النعمان بن المنذر ، ثم نزل منا مثل الذي نزلت به ، رجونا عطفه وعائذته علينا ، وأنت خير المكفولين ، يعني لو أن أميراً من آل غسان أو آل المنذر كفلاه رضيوا ، ثم رأى

(١) سيرة ابن هشام ٤ - ٩٣٣ وما يليها

(٢) انظر المصدر السابق ٤ - ٩٠٧ وهي ثمان قصائد العباس

ما نحن فيه اليوم من هزيمة وسى لعطف علينا ، فكيف بك وأنت خير الناس ؟ فخيرهم الذى بين أن يرد إليهم نسامهم وأبنائهم ، وبين أن يرد إليهم أموالهم ، فاختاروا رد النساء والأبناء ، فقال لهم الذى أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس ، فقوموا فقولوا إننا تستشفع برسول الله إلى المسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا ، ففعلوا ، فقال الذى أماما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وقال المهاجرون والأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله . ولكن العباس بن مرداس كان من الرافضيين ، حيث قال : أما أنا وبينو سليم فلا ، وإذا بينو سليم يستنكرون ذلك من العباس ، معلين أن ما كان لهم من نصيب الناتم فهو لرسول الله ، فاستخرى العباس قائلا لقومه : وهنتمو^(١)

وأما الموقف الثانى مما خالق فيه العباس رغبة الذى صلى الله عليه وسلم فهو سخطه على نصيبه من العطاء الذى أعطاه إياه الذى ، وكان الذى قد تألف قلوب بعض روساء القبائل والأحياء يوم حنين ، فأعطاهم أعطيات كبيرة ، ومنهم عبيدة بن حصن ، والأقرع بن حابس أعطى كل منها مائة ناقة ، ثم أعطى العباس بن مرداس عددا قليلا من الإبل ، فغضب العباس ، وقال^ي شرعا يعاتب فيه الذى على أن جعل عطاء وعطاء فرسه العبيد دون هذين الزعيمين . يقول من هذا الشعر .

فاصبحتى ونب العبيد يبسن عبيدة والأقرع

(١) سيرة ابن هشام ٤٢٥ و ما يمدها إلى الأغالى للإصفهان ١٨ - ٧٥

وَمَا كَانَ حَسْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَقُولُ سَانَ مَرْدَاسٌ فِي مَجْمَعِ
فَقَالَ النَّبِيُّ : اقْطَعُوا عَنِي لِسَانَهُ ، فَمَضَى بِهِ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ ،
فَقَنَ العَبَاسُ أَنَّهُ مُسْتَنْفَدٌ فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ لَعْلَى : أَفَأَعْطِ أَنْتَ
لِسَانِي ؟ قَالَ عَلَى مُدَاعِبًا : إِلَى مُسْتَنْفَدٍ فِي كُمْ مَا أَمْرَ رَسُولِ اللَّهِ ، ثُمَّ مَضَى
بِهِ فَأَعْطَاهُ مِنْ إِلَيْلٍ حَتَّى طَابَتْ نَفْسَهُ ، وَلَكِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يَتَسَنَّ لَهُ هَذَا
الْقَوْلُ ، فَقَدْ قَالَ لَهُ حِينَما لَقِيَهُ : أَنْتَ الْفَائِلُ (فَاصْبَحَ تَهْ وَهُبَّ
الْعَبْدُ بَيْنَ الْأَقْرَعِ وَعَيْنَةً ؟)^(١)

(١) مَعْرِفَةُ الْبَدَارِيِّ ١٥٢-١ وَشِرْحُ حِمَّةَ أَبِي ثَمَامَ ٤٦٦-١

الانحراف في السلوك

والمراد بهذا الجانب كل ما صوّي العقيدة فيما يصدر من الشخص سواءً أكان سلوكًا نابعاً من تعود كشرب الخمر ، أم نابعاً من خلق وصفة نفسية ، كالكذب والخيانة .. والشعراء المختصرمون بحكم كونهم عاصروا أزهى فترات دينية عرفها التاريخ ، كان يتضرر منهم أن يتاثروا بها إلشراق الدينى الذى استجابت له الجزاير العربية حينئذ وبخاصة في السلوك ، بمعنى أن الأفراد مهما تفاوتت معلوماتهم عن الدين وتشرعيه وتفصيله ، ومهما تفاوتت عمق إيمان في نفسهم ، فإنهم جميعاً التزموا في سلوكهم حينئذ شريعة الإسلام ، ومن يشدّ منهم على هذا الوضع كان يلقى من النكير واللوم والنيد أشدّ مما يلقاه من العقوبة المحددة في التشريع إن كانت هناك عقوبة محددة ، ولابدّ إذن أن يكون الشاذون في مثل هذا المجتمع قلة قليلة ، ولكن الشعراء فيما تحدثنا به الروايات لم يكونوا كذلك ، فإننا إذا نظرنا إليهم يوصفهم طائفة أو جماعة ، نجد أنهم يعكسون وضع المجتمع ، فيبيتـما الكثرة المطلقة في المجتمع تلتزم في سلوكها شريعة الإسلام ومنهجه ، ولا يشدّ عن ذلك إلا النادر أو القلة القليلة ، نجد الشعراء معظمهم يجذب في سلوكه طريق الإسلام ، ولا يتلزم طريق الإسلام في كل

سلوكه إلا قلة قليلة سيأتي الحديث عنها ، حتى إن الذين تصفهم الروايات باستقامة المسلك في كل جوانبه ، نفر معدودون ، لا يتجاوزون بضعة شعراء ، أما الباقون جميعا ، فما منهم إلا وله انحراف أو كبورة كبيرة .

ونستطيع أن نلم بجوانب من انحرافات الشعراء المخضرمين فيما يأتي :

الخمر :

تحريم الخمر في الإسلام صريح وحاسم ، وله حد تمثيله معاقبة الشارب بجلده ثمانين جلدة ، وقد استجاب المسلمين حينئذ ، حواضرهم وبواديهم لذلك ، فامتنعوا عن شرب الخمر ، ولو تصورنا أفراداً شذوا عن ذلك ، فمن المؤكد أنهم كانوا يستخفون ، أو يحاولون الاستخفاف بذلك ، حتى لا يظهر عليهم أحد ، فيلقون من الإنكار عليهم ، والنفور منهم ما هو أشد من الجلد ، ولكن الشاربين من الشعراء ، أو كثيراً منهم لم يستخفوا بذلك ، بل أعلوه بإعلان ، وتحذّروا به في شعرهم صراحة دون التواء .. غير أن الملحظ أن هؤلاء جميعاً لم يكن أحد منهم من مكة أو المدينة وإنما كانوا من شعراء القبائل في البداية ، أو الحواضر الصغيرة ، أو الذين سكنوا المدن التي ضمت إلى الإسلام بعد الفتوحات ، في العراق والشام .

ومن أشهر الذين عرّفوا باللوع بشرب الخمر من الشعراء المخضرمين أبو محجن الثقفي ، الذي كان من أبرز فرسان العرب

وشعراً ، وصدق بذلك يوم القدس مشهور ، ولكنه لم يستطع أن
أن يتخلى عن إلقاء الخمر في الجاهلية ، فظل يعاشرها رغم أن عمر أقام
عليه الحد فيها مراراً ، وحين جلد ذات مرة أنساً يقول شعراً منه
قوله :

ولست عن الصبراء يوماً بمساير

ومع أن الرواة يحملون هذا المعنى على إصرار أبو محجن على شرب
الخمر ، إلا أنها لو تأملناه لوجدنا أنه أقرب إلى الاعتدار منه إلى
التحدى ، معنى أنه لا يريد أن يعلن إصراره على الخمر ، وإنما يريد
أن يعلن عجزه عن مقاومة الإدمان والإلذ ، وأن يشير إلى لوم نفسه
على هذا العجز ، مع أنه تعود من نفسه الصبر والجلد ، والواقع يؤيد
هذه الحقيقة التي يستخرجها أبو محجن من أعماق نفسه ، فقد كان
فارساً يشير إلى عجائب النساء بقوتها وشدة يأسه ، ولكنه ضعف عن حمل
نفسه على ترك الخمر ، وتحمل في سبيل ذلك ما صب على نفسه من لوم
المسلمين وإنكارهم ، وعلى جسده من أليم الجلد وموجهه ، وقد اجتمع
الأمران ، قوته بوصفه فارساً ، وضعفه بوصفه شارباً يوم القدس
حيث حبسه القائد سعد بن أبي وقاص حيث لشربه الخمر ، انتظاراً
للرأي في إقامة الحد عليه ، ومع هذا الهوان والضعف الذي وضع
الخمر فيه أبا محجن ، فإنه وقف موقفاً تاريخياً باعتباره فارساً مقاتلاً ،
فقد أحسن وهو في محيسه أن المسلمين في موقف صعب حرج في قتال
العدو ، فاحتلال أبو محجن حتى فكت عنه قيوده ، وامتنع فرسه سعد

ابن أبي وقاص وسالحة ، واندفع في صفوف الاعداء كال العاصفة ، حتى كان من أسباب نصر المسلمين يومئذ ، وحين أطلقه سعد وعفا عنه ، أقسم ألا يذوق الخمر بعدها أبدا ، وكأنه قدر أن عقابه بالجلد كان يكفر عنه ذنبه ، وهو قد يطيق الجلد ، ولكنه لا يطيق عذاب الآخرة ، ومن مشهور شعره في الخمر قوله (١)

إذا مت فادفني إلى جنوب كرمة تُروى عظاًي بعد موتي عروقها
ولا تدقني بالقلادة فـيـانـي أحـافـ إذا ما مـتـ أـلـأـذـوقـهاـ
ومن هؤلاء المشهورين بالخمر قيس بن عمرو العارفي الملقب
بالنجاشي ، والذى يبلغ من استهتاره ومجونه أنه كان يعكت على
الخمر مع بعض خلاته فى شهر الصوم ، متحديا بذلك مشاعر المسلمين
فى الكوفة ومن بينهم على كرم الله وجهه ، وقد جاوهوا به ذات يوم
شاريا فى رمضان ، فجلده على بن أبي طالب حد الشرب ، ثم زاده
عشرين سوطا ، فقال : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ قال : لجزائك
على الله ، فهجا أهل الكوفة هجاء مرا موجعا ، وسخر من الجلد داعيا
عليهم بقتل قوله :

ضريوني ثم قالوا قدر قدر الله لهم شر القدر (٢)
ومن المشهورين بالخمر فى المخضرمين المغيرة بن الأسود الأسدى

(١) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٤٣-١ و ٤٤٦-١ والأمثال ١٠-١ وبایدعا . والكرمة المتبر

(٢) انظر مزاجة القدادى ٤-٧٤ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٢٩-٢ والمسدة لابن

المعروف بالأقىشر ، وكان مشهوراً بالمجون والاستهثار ، لا يستخفى
بمجونه وفسقه وإدمانه الشراب ، وهو يتحدث عن استهزاف الخمر
لما له ، وأوصى مجلس شرائه ، مثل قوله :

أفني تلادي وما جمّعت من نشب قرع القواقيز أفواه الأباريق (١)
كثيern وأيسدى القوم معمكة إذا تللان في أيدي الغرانيق
بنات ماء معًا بپض جناجنها حمر مناقرها صفر الحماليق (٢)
ويتقل العدادي من أوصافه (وكان كوفيها خليعاً ، ماجنا ،
فاسترا ، فاجرا ، ملنن خمر ، قبيح النظر) (٣)

ومنهم التعمان بن عدی ، الذي كان من السابعين في الإسلام
من كان في مهاجری الحبشة مع أبيه ، ثم لاه عمر على ميسان من
نواحي البصرة ، فقال في الخمر شعراً منه :

فإن كنت نداعی فبالأکبر استغنى ولا تسقى بالأصغر الشتم
لعل أمیر المؤمنین یسوعه تnadمنا في الجوست المتهدّم
فلما سمع هذا عمر قال : ثم والله ، إن ذلك ليس وعى ، ثم عزله
فقدم التعمان إلى عمر معتداً يقول : والله يا أمیر المؤمنین ما صنعت

(١) اشداد الملك القدح ، النشب الضياع والتوافق والأباريق أو أن الشرب

(٢) الغرانيق جميع خرائق الشاب الرسم ، وبنات الماء نوع من الطيور والبلحاجن
الصلور الخالق ما تحت الجفون

(٣) انظر خزانة العدادي ٤٨٧-٤ والشعر لابن قيبة ٥٦٢-٢

شيئاً مما يلخص أى قوله ، ولكنني كتبت امرأةً شاعراً ، فحضرت فيما يخوض فيه الشعراء ، فرأى عمر أن يستجيب له ، أو أن يكتفي بما قال ، وأقسم^١ لا يجعله على عمل ما عاش^(١) .

جوانب خلقية :

وقد كان أغلب الشعراء المخضرمين يتميز بجانب أو جوانب في خلقه وسلوكه ، بحيث يبيدو بهذا الجانب شاداً على التشريع الديني ، أو العرف السائد الذي يقرره المجتمع في صورة الرضا عنه ، لواضته للعادات والتقاليد ، وقد تكون بعض هذه الأمور المخالفة للعرف غير متعارضة تعارضها صريحاً مع الدين ، كما كان يفعل المثيره بن شعبه النقفي ، الذي تزوج أكثر من ثمانين امرأة ، وقال : ما أمسكت امرأة منهن على حب ، فزوج أي عدد من النساء لا يمنعه الدين طالما كانت المسكبات في العصمة لا يتتجاوزن أربعاً مجتمعات ، ولكن هذا السلوك من المثيره غير مألوف في المجتمع ، ولذلك أحاطت بالثيره الشبهات والأقويل ، مما يدل على روح السخط أو الانكار من المجتمع نحو المثيره ، رغم أنه كان يتمتع بشخصية فلدة يشهد لها الجميع بالذكاء التادر ، ولم ينزع أحد في أنه أحد أفراد قلائل يوصفون بأنهم دهاء العرب ، على رأسهم هو ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعمرو بن العاص .

(١) انظر سيرة ابن هشام ٢٨٤-٣

ويمكن أن نعرض نماذج لمن جوانب الانحرافات الخلقية للشعراء المخضرمين في ليجاز ، كما يلي
الغزل المترنف :

سواء أكان انحرافا دينيا ، وهو ما يصاحبه عمل محروم ، أو كان انحرافا اجتماعيا ، وهو ما كان مخالفًا للعرف ، وللشاعر المجمع .

ومن أشهر الخالقين في هذا الغزل المنحرف سليم عبد بن الحسخان ، الذي كان من أجود الشعراء شعرا ، رغم لكته الأعمبية حيث كان من أصل أفريقي نوقي ، ومن آثار هذه اللكتة أنه كان حين يعجب بشعره يقول : أهشت و الله ، يريد : أحسنت والله وكان قد اشتراه أحد عمال عثمان ليرسله إليه ، وكتب إليه أنه اشتري له غلاما حبشيا يقول الشعر ، فكتب إليه عثمان (لا حاجة لي إليه فارده ، فإنما حظ أهل العبد الشاعر منه ، إن شبع أن يشبع بنسائهم ، وإن جاع أن يبحوم) فرده فاشتراه بنو الحسخان ، فكان كما قال عثمان ، فما إن شبع حتى أخذ يتغزل في نسائهم غلا فاحشا فاجرا ، أدى به وهم إلى أن يحرقوه بالنار حتى مات ، وكان عمر قد حذرته من تهاديه في فحش الغزل حين سمع قوله :

توصلى كثي وتشني عصم على وتحوى رجلها من ورائيا
فقال له عمر : وبذلك إنك مقتول ، ولكنه أخذ يتعادى في استفزاز مواليه في أمراضهم مثل قوله .

ولقد تحذر من جبين فنائكم عرق على بطن الفراش وطيب

حتى بلغ بمواليه الغيط، أن حفروا له أخدوداً ملأوه ناراً فوق
سميم ، ولكنه أراد أن يزيدهم غيظاً قبل أن يموت ، فقال لهم :
ما فيكم لمرأة إلا قد أصبتها ، إلا فلانة ، فإلي على موعد منها^(١)
ومنهم حميد بن ثور الهملاي ، الذي لم تمنعه رهبة عمر ، ولا وعيده
للشعراء أن يخلصن يتعرض منهم بشعره لأنّي لمرأة ، فراح حميد
يقول غرلاً متحداً وعید عمر ، ومنه :

نَّاتْ أَمْ عُمْرُو فَالْفُؤَادْ مُشْوِقْ يَحْنُ إِلَيْهَا وَالْهَا وَيَتْسُوقْ
أَنِّي اللَّهُ إِلَّا أَنْ سَرَحَةَ مَالِكٍ عَلَى كُلِّ أَفَانِ الْعَضَّةِ تَرُوِقْ^(٢)
فَهَلْ أَنَا إِنْ عَلَّتْ نَفْسِي بِسَرَحَةٍ مِنَ السَّرَحِ مُوجَدٌ عَلَى طَرِيقٍ؟
فَالشاعر يستذكر أن يؤاخذه الناس حين يضع نفسه بسرحة يربى
بها امرأة حدها بالانتساب إلى مالك^(٢)

ومنهم المخلبُ السعدي التميمي ، الذي نال بغازله بعض الحرائر
ظلمًا وبهتانًا ، وهذه قصته مع خليدة بنت أخت الزبيرقان بن يدر ،
التي نال عرضها ظلماً في غزله بها - زمن شبابه ، فمر بها وهو شيخ
ضعيف البصر ، فأكرمه وأهدى إليه جارية ، فطلب أن تعرفه

(١) انظر الأغاني للراستهان ٣٠٣-٤٢ وما يبدوا عنوانة البقدادي ٢١٠٢-٢ لابن قتيبة ١-٤٠٨.

(٢) السرحة الشجرة ويكتفى بها عن مرأة والعصابة الشجرة الكبيرة وتترافق ألى تنفوق
في جناما.

(٣) المتن يتساءل : الشاعر : هل إذا صفت نفسِي بواحدة منها على متنه؟
٢ الأغاني للراستهان ٤-٣٥٦.

٣ والأغاني للراستهان ٤-٣٥٦ (طبعة مصورة عن دار الكتب) والشعر لابن قتيبة ١-٣٩٠-٢
والكامل العبرى ٨٥-٢ وشرح حمامة أبي تمام للتبريزى ٢-٣٤٠.

نفسها ليشكراها ، فلما استحلقها قال : أنا بعض من هتك بشعرك
ظلاما ، أنا خليدة بنت بدر ، قال المخبل (واسوأناه منك ، فيا
استغفر الله ، وأستقيلك ، وأعذر إليك) ثم قال (١) :

لقد ضل حلمي في خليدة إبني سأعذب نفسى بعدها وأموت
فأقسم بالرحمن أني ظلمتها وجرت عليها والهجاء كدوب
ومن هؤلاء الشعراء من المخضرمين حنظلة بن الشرقي المشهور
بن الطمحان القيني ، الذى يوصف بمساوية كثيرة فى دينه وخلقته
وقد سئل عن أصغر ذنبه ، فحكى لهم قصته مع راهبة آتته فى
ديرها فأكرمنه ، ولكنه سطا على عرضها وما لها ثم انصرف (٢) هذا
بالإضافة إلى أنه كان من الناصوص وقطاع الطريق (٣) .

ومن هذا النوع المغيرة بن شعبة الثقفى ، ابن أخي عروة بن
مسعود الثقفى ، أحد الرجلين اللذين أشار إليهما القرآن فى قوله تعالى
« وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القرىتين عظيم » والآخر
الوليد بن المغيرة . وكان المغيرة بن شعبة بالإضافة إلى ما سبقت
الإشارة إليه من مخالفته للعرف فى زواجه بأكثر من ثمانين امرأة ،
كان عريبا فى سلوكه ، وقد شهد عليه أربعة من المسلمين فى الكوفة
بيأنه زنا بأم جميل بنت عمر ، ولكن شهادتهم لم تكن كاملة ، لأن

(١) انظر الأدغال لأبي صالح ١٣-١٤

(٢) المصدر السابق ١٣-٧ وابن قتيبة ٤٨٨-١

(٣) انظر شعر الصماليك منهجه وخصائصه لوات

الشروط، التي يضعها التشريع لثبوت شهادة الرزنا لا يمكن عملياً أن تتحقق ، ولذلك قال المغيرة لأحد الشهود : والله لو كنت بين بعنى وبطئها ما رأيت أين سلك ذكرى منها ، ومن المعروف أن الشريعة تتسمى بأنه لابد في الشهادة المقبولة من إثبات رؤية النساء عضوي التناسل النساء كاملاً ، وهذا غير ممكن من الوجهة العملية ، ولذلك رفضت شهادة الشهود الأربعه حين اختلفوا ، وأقيم عليهم الحد ، ولكن المسلمين حيثند كانوا فيما بينهم وبين أنفسهم يؤمنون بصدق هذه الواقعه ، وقد صرخ عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب كلابها للمغيرة نفسه باتهامه ، وحسان بن ثابت يهجو بذلك فيقول له : تركت الدين والإسلام لما بدأ لك خُدوة ذات التصييف ومن الطريق الذي يدل على عدم نفور المغيرة أو خوفه من مواقف الريبة ، أنه حين دعاه عمر من الكوفة ليتحقق في اتهامه بازدنا ، تتزوج وهو في طريقه إلى المدينة بزوجة ، وحين عجب أبيها من رغبة المغيرة في الزواج وهو في هذه الحال ، قال المغيرة : وما عليك ، إن يعف عن فهود غير لها ، وإن أقتل ورثني ، فزوجه ليابها^(١)

ومن هذه الأمثلة نعلم أن المراد بانحراف الغزل ، هو الانحراف في السلوك ، أو ما يدل من الشعر على انحراف في السلوك ، أما الغزل نفسه ، من حيث كونه تعبيراً شاعرياً عن الإحساس بالجمال ، فلا

(١) انظر الأغانى للراصفهانى ٧٩-١٦ وما ي precedeها

تشريع على شاعر فقط أن يزاوله وأن يغيب فيه ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما استمع إلى الغزل في الشعر ، فلم ينكِر على على شيء منه ، وقد أفاض كعب بن زهير أيام النبي في وصف سعاد ، ومع ذلك كانت قصيده في جملتها موضع الرضا الظاهر الواضح من النبي .

٢ - الفصل :

ويعنى الشعراء المخضرمين عرفاً بجانب الغدر في خلقهم ،
ومنهم أبو الطحان القبلي الذي سبقت الإشارة إلى غدره بالراحلة التي
آتته وأحسنت إليه ^(١)

ومنهم أبو ذؤيب الهذل الذي تروى له قصة مشهورة ، في صلته
بأمرأة من قومه ، خان فيها ابن عم له يدعى مالك بن عمير ، فقد
كانت خليلة مالك ، وجعل مالك رسوله إليها أبو ذؤيب ، فخانه فيها
وجعلها خليلة له ، وأخذ يرسل إليها ابن أخيه خالد بن زهير ، فخانه
خالد فيها أيضاً ، فقضى منها أبو ذؤيب وقال :

ترى الدين كيما تجعيفي وخالدا .. وهل يجمع السيفان ويحلق في غمد؟
أخالد ما راعيت مني فربابة .. فتحفظني بالغيبة أو بعض ماتبدى
فأجاجيه خالد مذكرا إياه بساقى خيانته :

فلا تجزعاً من سُنة أنت سرتها .. وأول راشن سُنة من يَسْتَهِنُها

(١) الشروق للشعراء لابن قتيبة ٢ - ٦٥٤ وديوان الحذلاني ١ - ٣٤ ومسنون البنداري ١ - ٤٢٢

تناقلتها من عبد عمرو بن مالك وأنت صنفه نفسه وزيرها^(١)
ومنهم أنس بن أبي أناس الدؤلي ، من رعفه . أبي الأسود الدؤلي ،
وعمه سارية بن زبيم الدؤلي ، الذي قال له عمر : يا سارية الجبل الجبل ،
ولكن أنسا لم يكن من خلق سارية ولا أبي الأسود في شيء ، وإنما كان
كما يصفه أبو الأسود الدؤلي العالم الفاضل المشهور ، مؤسس قواعد
اللغة :

تبدرت من أنس أنه كذوب الأمانة خواصها
بل كان أنس يدعو إلى الخيانة والسرقة ، كما دعا أنس حارثة^(٢)
ابن بدر إلى مدينة سرقة إلى الخيانة بمثل قوله :
أغار بن بدر قد وكبت إمسارة فكن جردا فيها تخون وتشرق
فلا تحقرن يا حار شيئاً أصبهن فحظك من ملك العراقيين سرقة
ومن المشهورين بأحداث الغدر المغيرة بن شعبة ، الذي ارتحل
قبيل إسلامه مع نفر من قومه إلى ملك مصر ، فكان المغيرة دون الرهط.
جميعاً في اهتمام الملك وهداياه وأقليمهم ، فنقض المغيرة عليهم ، وخشي منهم
إفشاء هذه الصورة في قبيلته ، فلما كانوا أننا عودتهم في بعض
الطريق لاحتال في إسکارهم حتى فقدوا رعيهم ، ثم قتلهم جميعاً ، وهو
ثلاثة عشر رجلاً ، وأخذ أسلامهم ، وكأنه أراد أن يختفي حينئذ
من قربتهم بالإسلام ، فذهب إلى النبي وأعلن إسلامه ، وطلب من

(١) الشراء لابن قتيبة ٤٠٦ وديوان المخلين ١٤٣٤ وعزارة البغدادي ١٤٢٢

(٢) الشر والإسلام لابن قتيبة ٢١٣١ وما يليها

التي أن يقسم هذه الأسلاب على أنها غنائم من المشركين ، فقبل
النبي إسلامه ، ورفض الأسلاب مصرياً بتأمها من عمل غدر .
وكان المغيرة مشهوراً بالخداع في صلاته ، والخديمة نوع من
الغدر ، وقد حاول أن يخدع على بن أبي طالب ، فيما يتعلق برأيه
في ترك معاوية على ولاية الشام أو عزمه ، ثم أن يخدع عمر بن الخطاب
في أمر زواجه بأم كلثوم بنت أبي بكر ، وقد استطاع المغيرة أن يخدع
مصللة بن هبيرة الشيباني في خصومة بينهما ، حتى امتد وسنه إلى إن
أقام عليه القاضي الحد وجده ، فأقسم مصللة ألا يقيم بيته فيها
المغيرة ما دام حيا ، وارتحل عن الكوفة حتى مات المغيرة ، ثم رثاه
مصللة ، ولكنه يصفه في رثائه بأنه حية ناقعة السُّم ، لا تنفع في
سمها رقية^(١) .

٣ - البغل :

ومن المشهورين بالبخل وهم كثرة ، حسان بن ثابت ، ومن
المشحذين عن بخلة الأعشى في شعره^(٢) .

ومنهم منازل بن ربيعة المنقري ، الملقب باللعين المنقري ، وقد
سجل اللعين بخله في شعره ، بل تجاوز ذلك إلى هجاء أضيافه
والسخرية من جلستهم وهبئتهم ، بذلك قوله :

وأبغض الضيوف ما في جملٍ مأكله إلا تَنْفِجَهْ حولَ إِذَا قَعَدا

(١) انظر الأغافل للأصفهاني ١٦٠٠-٨٠٠ وسابعها

(٢) المصدر السابق ٤٥٦-٤

مازال ينفع كفيه وحياته حتى أقول لعل الفييف قد ولدنا^(١)
ومن عرف بالبخل وهجاء الأضياف مزداد بن ضرار ، الذي تصفه
الروايات بأنه كان شريرا ، يهجو ضيوفه ، وعن عليهم بما قراهم به^(٢)
ومن المشهورين بالبخل من الشعراء المخضرمين الحطيئة ، الذي
كان بالإضافة إلى مساوته العديدة في دينه وخلقه ، من أشهر
الشعراء بالبخل وما يروى في ذلك أنه كان ذات يوم يرعى غنما له
وفي يده عصا ، فنزلت به ضربة فحرك الحطيئة عصاه مشيرا إلى الفييف في
صورة الوعيد ، فقال الرجل : إنني ضيف ، قال الحطيئة : للضيوفان
أعدهما^(٣)

٤ - مساوىء أخرى :

ولم يخل أغلب الشعراء المخضرمين من صفات غير محمودة في
الناس عامة ، وفي المسلمين خاصة ، ومن ذلك ما عرف عن حسان بن
ثابت من الجبن الشديد ، الذي يوشك أن يكون فرعا من أي مواجهة
لعدو أو خطرهما صفر ، وكانت له في ذلك مواقف تشير السخرية
والضحك لقربتها ، أكثر مما تشير الإنكار والاستخفاف ، فمن
هذه المواقف أنه جعل لنفسه حصنا خاصا يحمي به من الفزع
سماه فارعا ، وحين داهم الأحزاب المسلمين يوم الخندق ، تجمع

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٩٩-١

(٢) السنة لابن رشيق ٨٨-١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣١٥-١ والتبريزى في شرح
الميس ٤٥٢-١ يصلح لهذا الوصف لأغبى الشاعر وهو أيضا شاعر عظيم وكذلك فعل البخاري
في المزانة ٣-١٩٧ واملأة وهم من أليس بين الآخرين الشاعر مزداد

(٣) الكامل للبرد ٢-١٠٣

المسلمين لواجهه الخطر ، وبقى حسان في حصنه مع نساء المسلمين وأطفالهم ، ولكن موضع العجب المضحك ، أن بعض النساء حينئذ كن يقمن بدور الحماية للحسان ومن في الحصن ، أما هو فيأتي أن يتعرض لشيء ، ومن هنا أن صفة ينت عبد المطلب رأت حينئذ يهوديا يتجسس على الحصن ، فطلبت من حسان أن ينزل إليه فيقتله فلماً متذرها بقوله : يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب ، لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا ، فلماً يشتبه منه صفة نزلت فقتلته هذا اليهودي ثم عادت تطلب من حسان أن ينزل فينزع عنه أسلابه من الثياب والسلاح ، لأنها تستحب أن تسلب رجلاً ، فمنه الخوف حتى من هذا ، وتكررت هذه الشهادة من صفة يومئذ ، وتكرر هذا الخوف في حسان أيضاً ، ولذلك يروي أن حسان حينما أنشد النبي :

لقد عنوت أيام القوم منتظماً
بصارم مثل لون الملح قطاع^(١)
يختبر عن نجاد السيف سابقة
ففضاضة مثل لون النَّقْي بالقاع
عندك ضحك النبي ، وكان واضحاً أنه يعني التناقض بين واقع
حسان ، ووصفه نفسه بهذا البُّأس الشديد .

وهذا عبيدة بن مردان المشهور بابن فسورة ، تأييل الروايات فوق رأسه عديداً من من المساوى ، فيوصي أحياناً بأنه (هجاء خبيث اللسان بذى) ويوصي أحياناً بأنه (شاعر خبيث اللسان

(١) الأغان للأستهان ٤٦٥-٤٦٧ وما يليها

(٢) يعنى يطلع والسابقة : النزع ، والنَّقْي النذر ، يشبه النزع في بياضها وناسيبها بالذير

مخوف المرة ، في جاهليته وإسلامه) وكان الأمراء والولاة يخترون
لسانه ، ويتقونه بكل وسيلة ، وأيسر ما يتقونه به العطاء ، ولم
يسلم من لسانه عبد الله بن عباس ابن عم النبي ، رغم أن الحسن بن
علي وعبد الله بن جعفر ، اشتريا منه عرض ابن عباس ، حينما علموا بأن
عنيبة يضرر له سخطا ، ومع ذلك لم يسلم منه ابن عباس ، فقد قال
عنيبة بعد ذلك شعرا منه :

أتيتُ ابن عباس فلم يقْض حاجى ولم يُرْجِعَ مَعْرُوفِي وَلَمْ يَخْشِ مُنْكَرِي
جُبِسْتُ فَلَمْ أُنْطَقْ بعذر لحاجة وَسَدَّ خَصَاصَ الْبَيْتِ مِنْ كُلِّ مُنْظَرٍ
ثُمَّ يَتَّهِمُ ابن عباس بالمحاباة ، ويُتَمَّنِي فِي سُخْرِيَّةٍ أَنْ يَكُونُ مِنْ
بَنِي زَهْرَانَ أَصْهَارَ ابن عباس ، ليحظى منه بما يريد ، فيقول :
فَلَوْكَنْتُ مِنْ زَهْرَانَ لَمْ يَتَّسِعْ حَاجَى وَلَكَنْتُ مَوْلَى جَمِيلَ بْنَ مَقْتَرَ
وَكَانَ ابن فسوة قد قدم على ابن عباس وهو عامل لعل بن أبي طالب
على البصرة ، يريد منه العطاء ، فنهره ابن عباس قائلاً : والله لئن
أعطيتك لأعيشك على الكفر والعصيان ، ثم هدده بقطع لسانه إن
هذا أحدها ، بعد أن عدد له جوانب من مساوته المروفة للثامن .
ومن ذوى المساوىء في الشعراء المنكسرمين ، ضانٌ بن الحارث
البرجمى ، الذي ابتكر في فحش الهجاء ما لم يفكّر فيه شاعر قبله
حيث قذف عرض بعض نساء بني نشهل بكلب ، فاشتد غضب

(١) الخصاص : التقوّب والنظر : مكان النظر يعني أن ابن عباس سد كل المنافذ في وجهه

(٢) الأدغال المؤسفهان ٤٤ - ٢٧٧

عثمان بن عفان عليه ، وقال له : والله لو كان رسول الله حيا ،
لأحسبه نزل فيك قرآن ، وما رأيت أحداً رمى أحداً بكلب قبلك ،
ثم حبسه ، فلأراد أن يحتال لاغتيال عثمان ، وما قاله يشكو محبسه
هو قوله قيّار^(١) .

ومن يك أمسى بالمدينة رَحْلَة فُلَى وَقِيَارْ بها لغريب
ولا خير فيمن لا يُوَطِّن نفسه على ثابتات الدهر حين تُنوبُ
ومنهم مزد بن ضرار الذي بلغ به حب الهجاء ، وعدم الإبقاء في
لسانه على أحد ، أن هجا قومه عند النبي صل الله عليه وسلم ، ومن
شعره فيه^(٢) :

تَعَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ لَمْ أَرْ مُثْلَهُمْ أَجْرٌ عَلَى الْأَدْنِ وَأَخْرَمَ لِلْفَضْلِ^(٣)
ومنهم سعيد بن كراع المكْلُل ، الذي هجا قومه زمان عثمان ،
فاستعدوه عليه ، فتوعده ، فكتب عن هجائهم ، ولكن نفسه ظلت
تشارعه إلى هجائهم ، وهو يصور تصويراً جميلاً طريفاً ، صراعه مع القوافى
التي تزيد أن تتدفق في هجائهم ، ولكن خوف عثمان يجعله يراوغها
ويهсанها ، حيث يقول :

أَبَيْت بِبَابَ الْقَوَافِي كَائِنًا أَصَادِي بِهَا سَرِبًا مِنَ الْوَحْشِ تُرْعَا^(٤)

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣ وما يليها

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١-٣١٥ والمحدثة لابن رشيق ١-٨٨

(٣) أصادي يعني أقام والمرتب المخاعة وتنتزع معن المخفة للارتفاع .

(٤) أجر من المطرقة وهي اللقب يعني أنهم أكثر الناس [ضرراً] بالقرب وحرماناً لعدم انصراف

وَجَئْنِي خُوفُ ابْنِ عَفَانَ رَدْهَا فَتَفَقَّهَهَا حَوْلًا جَرِيدًا وَمَرْبَعًا
وَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِي عَلَيْهَا زِيَادَةٌ فَلَمْ أَرِ إِلَّا أَطْبَعَ وَأَسْمَعَ
فَهُوَ يَصْرُحُ بِأَنَّ خُوفَ عُثْمَانَ هُوَ الَّذِي جَعَلَهُ يَجْبِسُ الْقَوَافِي
نَفْسَهُ أَمَدًا طَوِيلًا ، وَرَغْمَ تَزَاحِمِهَا وَتَكَاثُرِهَا فِي نَفْسِهِ^(۱)
وَمِنْهُمُ الْحَارِثُ بْنُ الطَّفِيلِ الدُّوْسِيُّ ، الَّذِي كَانَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ
قَوْمِهِ ، وَمَعَ ذَلِكَ تَجَدُّهُ يَضْبِقُ بِدُعَاءِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِقَوْمِهِ ،
وَهَذَا مَا لَمْ يَؤْتُ مِنْ مُسْلِمٍ ، فِي كُرَاهِيَّتِهِ لِدُعَاءِ النَّبِيِّ لِقَوْمِهِ ، أَوْ غَيْرِ
قَوْمِهِ^(۲).

هـ - هَنَاتِ :

وَمِنَ الْمَلَاحِظِ أَنَّ هَذِهِ الْمَالِيَّةِ الظَّلْمِيَّةِ مِنَ الشَّعْرَاءِ الْمُخْضُرِمِينَ ،
لَمْ يَسْلِمْ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مِنْ شَيْءٍ يَؤْخُذُ عَلَيْهِ ، إِما فِي دِينِهِ وَعَقِيْدَتِهِ ، إِما
فِي خَلْقِهِ وَمَلْوَكِهِ ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا أَوْ ذَلِكَ ، لَمْ يَسْلِمْ مِنْ
بَعْضِ الْهَنَّاتِ وَالْعَشَرَاتِ الَّتِي إِنْ لَمْ تَجْعَلْ فِي إِيمَانِهِ أَوْ خَلْقِهِ خَلَلاً ،
فَإِنَّهَا وَلَا شَكَّ تَبَرُّ مَكَانِهِ وَمَنْزِلَتِهِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ الصَّادِقِينَ الْوَاثِقِينَ ،
وَمِنْ أَصْحَابِ الْهَنَّاتِ وَالْعَشَرَاتِ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ، الَّذِي احْتَلَّ بَيْنَ
الْمُسْلِمِينَ مَنْزَلَةً رَفِيقَةً بِكُونِهِ أَحَدَ شَعَرَاءِ الرَّسُولِ ، وَكَانَ يُعْكَنُ أَنَّ
يُسَمُّو بِهَذِهِ الْمَنْزَلَةِ ، وَيُزَدَّادُ فِيهَا عَلُواً ، وَلَكِنَّهُ يَعْتَرِضُ عَلَيْهِ تَبَطِّيَّتُهُ
بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ هَبُوطًا شَدِيدًا ، وَرَغْمَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَقَالَهُ مِنْ هَذِهِ الْمُشَرَّةِ

(۱) الشِّعْرُ وَالشِّعْرَاءُ لِابْنِ قَتِيْبَةَ ۶۴۵ - ۲

(۲) الْأَعْقَافُ لِلْأَسْفَهَانِ ۲۱۹ - ۲

وأغان عفوه عن جريرتها ، إلا أن آثار العذرة ظلت ماثلة في نفوس المسلمين ، وفي نظرتهم إلى كعب ، وتلك قصته في تخلفه عن زوجة تبوك ، حيث تخلف عن الرحيل مع النبي وال المسلمين دون عذر ، وهو يروى عن نفسه حينئذ ، أنه لم يكن قط أقوى ولا أيسر منه حين تخلف عن النبي في تلك الغزوة ، ويقسم أنه لم تجتمع له راحتان قط ، حتى اجتمعا في تلك الغزوة ، ولكنه مع ذلك تخلف ، ثم ندم ، واشتد عليه الندم مع صاحبيه اللذين تخلفا مثله دون عذر ، وهما مُراة بن الربيع العمري ، وهلال بن أمية الواقفي ثم أمر النبي هؤلاء الثلاثة أن يعززوا نسائهم ، وتحاشاهم المسلمون جميعا لا يتعاملون معهم ، ولا يسلمون عليهم ، وكأنهم نبذوا من الإسلام نفسه ، وظلوا كذلك خمسين يوما ، ضاقت عليهم فيها الأرض برجها ، وضاقت عليهم أنفسهم ، كما وصف القرآن الكريم نفسه ، حتى من الله عليهم في القرآن في سورة التوبة بالغفو وقبول توبتهم ، ولكنهم مع ذلك لم يستعيدوا منزلتهم بين المسلمين (١)

ومن أصحاب الهنات والشرارات عبد الله بن رواحة ، الذي كان أيضا من شعراء الرملة ، حسان وكمب وهو ، ولكنه هبط ، أيضا منزلته بين المسلمين في وقعة مؤتة ، ومع أن له يوماً شعرا يفيض حماسة وبأسا ، واستعدادا للتضحيه والبسالة ، إلا أنه حينما

(١) انظر سيرة ابن هشام ٩٥٨ والأذان للأصفهاني ٢٢٩-١٦ عزامة البدادى ٤١٧-١

احتدم القتال ، واستشهد القائد الأول زيد بن حارثة ، ثم القائد الثاني جعفر بن أبي طالب ، أخذ راية القيادة عبد الله بن رواحة ، فقال شعراً بالغ الحماس والقوة ، ولكنه عند القتال تردد ، ولم يكن كما يتفق وشعره ، ولا كما يتفق واختيار المسلمين إياه للقيادة رغم أنه قاتل واستشهد ، ولذلك يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر المسلمين وهو في المدينة حينئذ عن هذه الأحداث بما أخبره الوحي ، وقال النبي عن القادة الشهداء الثلاثة ، زيد وجعفر وأبي رواحة ، لقد رفعوا إلى الجنة ، فيما يرى النائم ، على سرورٍ من ذهب (١) ، فرأيت في سرير عبد الله بن رواحة أزوراً عن سرير صاحبيه ، فقلت عمَّ هذا ؟ فقيل لي : مضياً وتربضاً عبد الله بعض التردد ، ثم مفهى (١).

ومنهم سحيم بن ثيبيل التميمي ، الذي كان من سادة بيتي تميم ، وكان يمكن أن يعني مكانته وجوده بالاتجاه إلى الله في عمل الخير ، كما يهدف الإسلام ، وكما يشترط في كل عمل أن يكون ناباً من نية الخير ، ولكن سحيمما اتجه بسيادته وجوده إلى التفاخر والظهور ، وظل ينافس غالب بن صعصعة والد الفرزدق ، فحين تحرر غالب عدداً كبيراً من الأبل لقومه ، نحر سحيم ثلثمائة ناقة لقومه ، وكان هذا العمل في ظاهره خيراً عظيماً ، وفيه واسعاً من الخير والجود ،

(١) سيرة ابن هشام ٣ - ٨٣٤ مخزانة البدادي ٢ - ٣٠٤

ولكن علی بن أبي طالب طبق عليه مقاييس الإسلام في نظرته إلى أي عمل ، واعتراضه الاتجاه به إلى الله ، فوجد أنه تفاحر وليس عمل خير فنهى المسلمين عن أن يأكلوا من هذا اللحم ، وقال لهم : إنه مما أدلّ^(١) به لغير الله

(١) البغدادي ١ - ٢٦٥ وأمال القال ٣ - ٤٢ والشمراء لابن قتيبة ٢ - ٦٤٣
والاسمهات ٦٧

الشعراء التائدون

حين بين القرآن الكريم ما في طبيعة الشعراء عامة من مساوى، فطروا عليها ، استثنى منهم بعضاً ، لا ينطبق عليه هذا الحكم إذا توافرت فيه عدة صفات ، في قوله تعالى (والشعراء يتبعهم الغلوان ، ألم تر أنهم في كل واد يهودون ، وألم يقلوا ما لا يفعلن) ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً وانتصروا من بعدهما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أى مُنْقَلَبٍ ينقلبون)⁽¹⁾ وإن ففي الشعراء بعض خيرون ، وإن كان هذا البعض فليلاً بمحكم الاستثناء ، بل وإن كان هذا الاستثناء في شروطه وقيوده العديدة يجعل من هذا البعض قلة قليلة جداً ، ومن حتى هذه القلة مهما قل عددها ، أو قلت جوانبه الخير في أفرادها أن يظهر جانب الخير فيهم كما أظهر جانب السوء في غيرهم أو فيهم هم ، ولذلك أفردنا هذا الجانب المشرق فيهم بالحديث .

وتعنى بالشعراء التائدين الذين قالوا في الإسلام شمراً يعتذرون به مما صلف منهم في الجاهلية ، سواءً كان اعتذاراً صريحاً عن شعر قالوه ضد الإسلام ، أم كان اعتذاراً ضمنياً بمحاسمه في الدفاع عن الإسلام ، أو عوائق تخدم الإسلام ، ونسوق حديثهم كما يلى .

(1) آخر سورة الشعراء

(١) المعتذرون إلى النبي بشعرهم :

وهو لاء من الشعراء الذين بدر في شعرهم قبل إسلامهم هجوم على الإسلام ، وبخاصة ما يمس شخص الرسول ، فكتبه كانوا يستحبون من النبي بعد أن آذوه بشعرهم ، فيعتذرون إليه بشعرهم كعادة الشعراء أن يتسموا بشعرهم العفو عن هجوه إذا اضطربتهم الفظروف إلى ذلك .

ومن هو لاء الشاعر أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، الذي كان من أشهر شعراء قريش المهاجرين للإسلام وال المسلمين بشعرهم فجاء إلى النبي بعد أن أسلم ، وقدم بين يديه شعراً يعتذر فيه عن سالف شعره ضد الإسلام ، ومن هذا الشعر

لعمرك إن يوم أحمل راية لتخالب خيل اللات خيل محمد لكما لم تلنج الحيران أفالـم ليـلهـ فهـذا أـوـانـ حـينـ أـغـدـيـ وأـهـتـدـيـ وـهـادـ هـدـافـ غـيرـ نـفـسـيـ وـنـالـتـيـ معـ اللهـ مـنـ طـرـدـتـ كـلـ مـطـرـدـ وقد أساء التعبير في الشطر الأخير ، ولذلك دفع النبي ^{عليه السلام} في صدره مستنكراً قول الحارث ، وقال : أنت طردتني كل مطرد ؟^(١)

ومن هو لاء كعب بن زهير بن أبي سلمى ، الذي لام أخيه بجيرأ الشاعر على إسلامه بشعر فيه مساس بشخص النبي وبالإسلام ، ومنه يخاطب بجيرأ :

(١) تاريخ الطبراني ٢٢٩٤ وديوان حسان بن ثابت وتلقيح التهوم لابن الجوزي ١٣٧

شربت مع المأمون كأساً رؤية فأنهك المأمون منها وعلّك
 وحالفت أسباب الهدى وأتبعته على أيّ نبيٍّ وَيَبْغُ غيرك ذلك
 ويغنى بالملائكة النبي ، وبعد أن أسلم كعب جاء إلى النبي تائبًا
 معتذراً بقصصاته المشهورة التي ألقاها بين يديه ، والتي روى عنها
 النبي ومنح كعباً بردته مكافأة له وتعبيرًا عن عفوه ، بعد أن كان
 يتوقع إهانة دمه ، وهي قصيدة (بانت سعاد) ومنها في الاعتزاز
 ثبتت أن رسول الله أوعدني والغفو عند رسول الله مأمور
 مهلاً هنالك الذي اعطاك ثالثة القرآن فيهما مواعيظ . وتفصيل
 لا تخلني يأقوال الوشاة ولم أذنب ولو كثرت في الأقواء^(١)
 ومن المعتذرين إلى النبي بشعرهم أنس بن ذيقم الديلي الذي جاء
 بعد إسلامه إلى النبي ، يعتذر عما قاله عمرو بن سالم الخزاعي فيه وفي
 قوله من بني الدليل عند النبي ، وما قال أنس يكتب ما نقله عمرو
 ابن سالم إلى النبي :

تعلم رسول الله أذنك مدرسي وأن وعدياً منك كالأخذ باليد
 تعلم رسول الله أذنك قسادر على كل صرم متهجين ومتجرد
 تعلم بآن الركب ركب عُويم هم الكاذبون البُخافو كل مُؤهد
 ونبيوا رسول الله أئتي هجوته فلا حملت سوطني إلى إذن يدي

(١) سيرة ابن هشام ٩٣٧-٤ وروايتها

(٢) سيرة ابن هشام ٨٧٩-٤ وعويم يعني عزوف بن سالم

ومن المعتذرين أيضا عبد الله بن الزبيرى الفرشى ، حيث يروى ابن اوس حاك شعراً يشك ابن هشام فى نسبته إلى ابن الزبيرى ومنه مخاطباً التى :

يَا خَيْرَ مَنْ حَمَلَتْ عَلَى أَوْصَالِهَا عَيْرَانَةً سَرَحَ الْبَدَنْ غَشُومْ
إِنِّي مَعْتَذِرٌ إِلَيْكَ مِنْ الَّذِي أَشَدَّتُ إِذْ أَنَا فِي الضَّلَالِ أَهِمْ
فَاغْفِرْ فَدِي لِكَ وَالَّذِي كَلَاهُما ذَلِيلٌ ، فَإِنَّكَ رَاحِمٌ مَرْحُومٌ^(١)
وَهُوَ حَقًا لَا يُشَبِّهُ أَسْلُوبُ شِعْرِ اِبْنِ الزَّبِيرِيِّ ، وَلَا أَسْلُوبُ شِعْرِ
الْمُخْضَرِمِينِ ، وَلَكَنَّهُ يُرَشِّدُ إِلَى أَنَّ اِبْنَ الزَّبِيرِيَّ قَالَ شِعْرًا فِي الْاعْتَذَارِ
إِلَى التَّيِّنِ .

(ب) المعتذرون ضممتنا بشعريهم :

وَنَعْنَى بِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَعْتَذِرُوا صَرَاحَةً عَنْ شِعْرِ قَالُوهُ ، وَلَكُنْهُمْ سَخَرُوا
شِعْرَهُمْ لِخَدْمَةِ الْإِسْلَامِ ، أَوْ مَوَاقِفَ تَحْدُمُ الْإِسْلَامِ ، وَفِي هَذَا الْمَجَالِ
نَجِدُ كَثِيرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ هُبُرُوا بِشِعْرِهِمْ عَنْ مَشَاعِرِ أَوْ مَوَاقِفِ إِسْلَامِيَّةٍ
كَانَتْ فِي مَجْمُوعِهَا خَدْمَةً لِلْإِسْلَامِ ، وَتَدْعِيمًا لِقُوَّةِ الْمُسْلِمِينِ ، وَلَا يَخْلُ
بِقِيمَةِ هَذَا الشِّعْرِ أَنْ نَجِدُ كَثِيرًا مِنْهُ يَتَسَمُّ بِالطَّابِعِ الْجَاهِلِيِّ ، كَالْفَسْرِ
بِالنَّفْسِ أَوِ الْقَبِيلَةِ ، أَوِ النَّشْفِيِّ مِنْ عَدَاوَةِ قَدِيمَةٍ ، وَلَا يَخْلُ بِقِيمَةِ هَذَا
الشِّعْرِ أَيْضًا أَنْ كَثِيرًا مِنْ هُؤُلَاءِ الشُّعْرَاءِ لَمْ يَكُنْ سَلُوكُهُمْ مُطَابِقًا
لِشِعْرِهِمْ ، فَقَدْ يَبْدُو فِي بَعْضِ شِعْرِ الشَّاعِرِ الْحَمَاسِيِّ الْمَدِينِيِّ ، وَلَكِنَّ
سَلُوكَهُ قَدْ يَكُونُ بِعِيدًا عَمَّا يَرْضَاهُ الدِّينِ ، وَلَكِنَّ الَّذِي يَعْنِيُنَا هَذَا أَنَّ

(١) سِيرَةُ اِبْنِ هَشَامٍ ٤ - ٨٧٦

الشعر كان في هذه الأونة بالذات ، سلاحا من أقوى وأملى الأسلحة
في المعركة النفسية العالية التي يخوضها المسلمون ضد أعدائهم ، سواء
في حياة النبي أو بعده ، وبخاصة في خلافتي الشيدين ، أبي يكر
و عمر .

وفي مقدمة هؤلاء الشعراء الذين خدموا الإسلام يشعرهم ، شعراء
الرسول ، حسان بن ثابت ، وكمب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة
وشعرهم في خدمة الإسلام أشهر من أن ينوه به .

ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن جحش الذي يدافع بشعره عن
قتال المسلمين في الشهر الحرام ، حين اتخذت قريش سورة عبد الله
[ابن جحش دعابة ضد الإسلام والمسلمين] ، وأئمـة ينتهـكون حرمة
[الشهر الحرام] ، ومن ذلك قوله يخاطب قريشا (١) :

تعلـون قـتـلاً فـي الـحرـام عـظـيمـةً وـأـعـظمـه لـو يـرـى الرـشـد رـاشـدـ
صـدـرـدـكـمـ حـمـاـ يـقـولـ مـحـمـدـ وـكـفـرـ بـهـ ، وـالـلـهـ رـاءـ وـشـاهـدـ
وـمـنـهـمـ خـفـافـ بـنـ نـدـيـةـ السـلـمـيـ ، اللـذـى يـنـكـرـ عـلـىـ قـوـمـهـ أـنـ يـرـتـدـواـ
عـنـ إـسـلـامـ ، وـأـنـ يـأـخـدـواـ مـنـ أـبـيـ يـكـرـ سـلـاحـاـ زـاهـيـنـ أـتـهـمـ سـيـقـاتـلـونـ
بـهـ الـمـرـتـدـيـنـ ، فـإـذـاـهـمـ يـقـاتـلـونـ بـهـ الـمـسـلـمـيـنـ فـيـقـولـ مـخـاطـبـاـ قـوـمـهـ (٢)ـ :
لـمـ تـأـخـلـوـنـ سـلـاحـهـ لـقـتـالـهـ ؟ـ وـلـذـاـكـمـ عـنـ إـلـهـ أـنـسـامـ
لـاـ دـيـنـكـمـ دـيـنـيـ وـلـأـنـاـ كـافـسـرـ حـتـىـ يـزـوـلـ إـلـىـ حـرـةـ رـأـةـ شـامـ

(١) سيرة ابن هيثم ٤٤٣٩-٣.

(٢) الا سميات للأسمى ٣١ والاغاثي للأصفهان ٤-٧٨ لا وسفرة البنداري ١٥-٤.

ومنهم الأغلب العجل الذي أسمهم بشعره في حروب الرادة ، حيث هجا بشعره مساجحا التي ادعت النبوة في بنى تميم^(١) وهذا الشعر وإن لم يخل من إقذاع ، إلا أن هذا الإقذاع كان مما يزيد في التشفيـر من مساجح ، وهو ما يهدف إليه المسلمين .

ومنهم التمر بن توب المكـل الذي يروي له شعر في مدح النبي وفي الاعتزاز باحتمال هناء السفر إلى النبي حتى لو اضطروا إلى إطعام خيلهم لعما حين تغفر الصحراء من النبات والمرعى^(٢) .

ومن هؤلاء الشعراء عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، الذي أبلى في الفتوح الإسلامية بلاه حسناً بسيفه وشعره ، بعد أن ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه ، وله في فتوح فارس والروم أشعار كثيرة ، ومنها في موقعة القادسية^(٣) :

والقادسية حيث زاحم رستم
كنا الحمام بين كالأشستان
الضاربين بكل أبيض مخلص
والطاعنين مجاعم الأضنان
ومنهم النابـة الجعدي شاعر بن عامر بن صعصعة الذي قدم على
النبي صلى الله عليه وسلم يادي الحمامـ والتـأثر بالإسلام فـأـشـدـ بين
يديه قصيدة يذكر الرواية أنها تبلغ مائـةـ بـيـتـ ، ومنـهاـ الآـيـاتـ المشـهـورـةـ
الـتـيـ رـضـىـ عـنـهـ النـبـيـ وـدـعـاـ لـهـ مـنـ أـجـلـهـ بـلـاـ يـقـضـ اللـهـ فـاهـ بـوـنـهـاـ^(٤) :

(١) الأغانى للأصفهانى ٣١-٢١ وما يليها وغزارة البندادى ٢-٢٣٩.

(٢) الأغانى للأصفهانى ٢٧٨-٢٢ و الشـرـلـانـ قـيـةـ ١-٣٠٩ـ وـغـزـارـةـ البـنـدـادـىـ ١-٣٢ـ.

(٣) الإمام لأبي علـ القـالـ ٤٦-٣٤ وـغـزـارـةـ البـنـدـادـىـ ٤-٤٤ـ وـخـاصـائـىـ ١ـ عامـ ٤٣ـ.

(٤) غـزـارـةـ البـنـدـادـىـ ٣-٦٧ـ وـالـمـدـدـةـ لـأـبـنـ دـشـيقـ ١-٣ـ وـشـرـحـ حـاجـةـ أـبـيـ عامـ ٤٠١ـ ١ـ وـكـلـمـلـ الـمـبرـدـ ٢-٢٥٢ـ.

أتيت رسول الله إذ جاء بالهدا
ويتلوا كتابا كالمجرة نيرا
أقيم على التقوى وأرضي بفعلها
وكنت من النار المخوفة أحذرا
ثم يقول -

إذا ما التقينا أن تحيد وتنفرا
ولينا القوم ما تعود خيلنا
من الطعن حتى تحسب الجن أشقراء
وتنكر يوم الروع لأن خيلنا
صاححا ، ولا مستنكرة لأن تغمرا
بلغنا السماء مجدها ومناؤنا
ولينا لنبعى فوق ذلك مظاهرا
فقال له النبي : إل أين يا آبا ليلى ؟ قال : إلى الجنة . قال
النبي : نعم إن شاء الله ثم قال التالية :

ولا خير في حلم إذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يُكدرها
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أردد الأمر أصدرا
فقال النبي : لا يغضض الله فاك ، فحفظ الله له أستانه كاملة
حتى مات في شيخوخته .

ومن هذا النوع من الشعراء عبد الله بن أبيس الذي بعثه النبي
لقتل خالد بن سفيان الهذلي ، الذي كان يجمع جيشا ليغزو به النبي
فذهب عبد الله بمفردته إلى خالد في موطنه فقتله ، وما قال ابن أبيس
في ذلك (١) :

وقلت له : خذها بضربة ماجد حنيت على دين النبي محمد
وكنت إذا همَّ التي بكافر سبقت إليه باللسان وباليد

(١) سيرة ابن هشام ٤٣٧ـ٤٣٨ وما بعدها

فابن أذيس يتخذ من لسانه سلاحاً ضد أعداء النبي ، وهو يعرف ذلك ويتعمله ، بل هو يصرح بأن سلاح اللسان أسيف من المسیت ، حيث يقول (سبقت إليه باللسان وباليد)

ومن هؤلاء الشعراء فروة بن عمرو الجذابي ، الذي كان والياً للروم في بعض ما يل الشام من أرض العرب ، ولكن الإسلام كان أحب إليه من كل شيء ، فأسلم وأرسل إلى النبي يعلن إسلامه ، ويقول شعراً يعبر به عن اعتزازه بالإسلام ، بل يجعل من نفسه مثلاً من أمثلة التضحية في سبيل الإيمان ، فيثبت على اعتزازه بالإسلام حتى يقتله الروم ، وما يروى من شعره عند ذلك (١) :

يَكْسِي سَرَّةَ الْمُسْلِمِينَ بِأَنْتَ سَلَّمْ لِرَبِّ أَعْظَمِي وَمَقْسَمِي

ومنهم قيس بن المحسر الذي يعتذر بشعره الصادق المؤثر عن عدم تعرضهم للموت ، وإشارتهم للحياة يوم موتة فيما سماه المسلمين حيث نشـد فراراً ، وذلك بداعي الحماس الديني العارم الذي كان يجعل الشهادة أمنية قوية مسيطرة ، فظنوا نجاة خالد بن الوليد المسلمين فراراً مع أنها خطلة بالغة الحكمة والبراعة الحربية ، ولذلك قدرها التي صلـى الله عليه وسلم ، فائتـى على المسلمين وسامـهم الكـرار ، وأـنـى على خالـد وسمـاه سيف الله ، ولكن قيس بن المحـسر يندم تـنـداً عميـقاً على أنه لم يقدم نفسه للموت يومـذاـ فيـقول :

(١) سيرة ابن حشام ١١-٤ وما يليها

فَوَاللَّهِ لَا تَنْفَكُ نَفْسِي تَلْمِنِي عَلَى مَوْقِنِي وَالْخَيْلِ قَابِعَةً قُبْلُ^(١)
التَّابِعُونَ يَمْسَكُهُمْ :

وَهُمُ الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ لَمْ يُؤْثِرُ عَنْهُمْ شِعْرٌ إِنْ كَانَ أَنْ يُوصَفَ بِأَنَّهُ
إِسْلَامِي يَخْدُمُ الدِّينَ ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا بِخَلْقِهِمْ وَأَعْمَالِهِمْ أَمْثَلَةً طَيْبَةً
لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُ مِنْ صَفَاتٍ ، وَلَوْ فِي بَعْضِ جُوانِبِ
حَيَاتِهِمْ أَوْ صَفَاتِهِمْ ، وَهُؤُلَاءِ لَمْ يَكُنْ مِنَ الْلَّازِمِ أَنْ نَعْنِي بِهِمْ ثَدِيدَهُمْ
هَذَا ، فَإِنْ هَذَا الْحَدِيثُ إِنَّمَا يَنْصُبُ عَلَى الشِّعْرِ ، أَوْ عَلَى الْأَشْخَاصِ
بِوَصْفِهِمْ شُعَرَاءً ذُوِّيِّ إِنْتَاجِ شِعْرٍ ، وَلَكِنَّا مِنْ بَابِ الْإِنْصَافِ
لِلشُّعَرَاءِ الْمُخْضَرِمِينَ ، كَانَ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ نَذْكُرَ لَهُمْ هَذَا الْجَانِبُ
الْحَسَنُ مِنَ النِّدِينِ وَالْخَلُقِ ، لِيَتَكَوَّنَ مِنْهُ مَا يَشَاءُ أَنْ يَكُونَ كَفَةً مِيزَانَ
وَلَوْ ضَعِيفَةً أَوْ مَرْجُوحةً ، فِي مُقَابِلِ كَفَةِ الْمُسَاوِيِّ الَّتِي حَفَلَتْ عَاصِبَهُ
فِيهَا الشُّعَرَاءُ الَّذِينَ نَتَحَدَّثُ عَنْهُمْ ، وَهُمُ الْمُخْضَرِمُونَ .

وَمِنْ هُؤُلَاءِ الشُّعَرَاءِ لَبِيدِ بْنِ رَبِيعَةِ الْعَمَرِيِّ ، الَّذِي كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ
مِنْ كَبَارِ الشُّعَرَاءِ أَصْحَابِ الْمَعَالِمِ ، وَلَكِنَّهُ يَتَرَكُ هَذِهِ الْمَرْتَلَةَ
الْإِجْمَاعِيَّةِ الرَّفِيقَةِ إِلَيْهَا رَفَعَهُ إِلَيْهَا الشِّعْرُ ، حِبَا فِي إِلَاسْلَامٍ ، فَجِئْنَا
سَمِعَ الْقُرْآنَ وَابْتَهَرَ بِالْأَسْلَوْبِ قَرَرَ أَنْ يَتَرَكَ حِرْفَةَ الشِّعْرِ ، وَآتَى عَلَى
نَفْسِهِ أَلَا يَقُولُ شِعْرًا مَا عَاشَ ، وَهُوَ بِهِذَا الْأَسْلَوْبِ السَّلَبِيِّ يَخْدُمُ
إِلَاسْلَامَ ، وَيَدْعُ إِلَى تَعْظِيمِ الْقُرْآنِ بِأَبْلَغِ مَا يَعْظِمُهُ أَيْ شِعْرٌ ،
وَلَنْشُرَ إِلَى مَدِيَّ الْأَثْرِ الَّذِي يَحْدُثُ فِي نَفْوسِ الْعَرَبِ ، حِينَما يَسْمَعُون
أَنْ شَاعِرًا ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَ فِي مُثْلِ مَنْزَلَةِ لَبِيدِ الشَّعْرِيِّ ، اسْتَصْغَرَ

(١) سِيرَةُ أَبِي هَشَمٍ ٤٦٩-٥٩٦ وَمَا يَمْدُهُ وَالْبَيْتُ شَمْنُ أَبْيَاتٍ أُخْرَى فِي الْمَوْضِعِ

شعره بجوار ما ينزل على محمد وهو القرآن ، فتلى على نفسه ألا يقول شعرا حتى يموت ، وبالإضافة إلى ذلك كان ليه من الملتزمين خلق الإسلام في تدينيهم وسلكهم ، حتى تصفه الروايات بأنه من أحسن الناس إسلاما^(١) ولا يخل بهذا وصفه في بعض الروايات بأنه من المؤلفة قلوبهم^(٢) فإن تأليف القلوب لم يكن يعني ضعف الإيمان ، وإنما له اعتبارات كثيرة ، منها كسب قلوب سادة القبائل في بدء إسلامهم لاجتذاب تابعيهم إلى الإسلام .

ومشهم عروة بن أذينة الذي اشتهر بالثنين والصلاح ، وكان يروى عنه الحديث ، وله شعر في الzed ، وفي التوكل على الله ، ويبلغ من شهرته بالاستقامة أن انكرت عليه امرأة شعراً عاطفياً رأت من وجهة نظرها أنه لا يتحقق مع ما عرف عنه من ثلثين ، حيث جادت إليه تقول : أيقال فيك : الرجل الصالح ، وأنت تقول :^(٣)

إذا وجدت أوار الحب في كيدي
عمدت نحو مقام القوم أبتعد
هذا بردت ببرد الماء ظاهرة
 فمن النار على الأحساء تستند ؟
لا والله ، ما قال هذا رجل صالح فقط ! ! ، وبصفة ابن خلكان
بأنه كان من أعيان العلماء وكبار الصالحين ، ويتناقل قصة المرأة على
أنها بعد ما شهدتها بشعره ، نظرت إلى جوار حولها ، وقالت (هن
حرائر إن كان هذا خرج من قلب سليم فقط) .

(١) شرح حاشية أبي تمام الشيرازي ٤٣١-١ والكمال العبرد والمسدة لابن رشيق ٨٤-٢

(٢) انظر عزانة البخاري ٢٤٦-٢

(٣) الشمر والشمراء لابن قتيبة ٥٧٩-٢ وما يمدها

ومنهم عمرو بن الأهم المترى ، الذى قال له النبي عن شعره
(إن من الشعر حكما ، وإن من البيان سحرا) ومن شعره في
التشبيت بحميد الخاق^(١)

ذرينى فان البخل يا أم هيثم لصالح أخلاق الرجال سرق
لعرك ما نساقت بلاد يأكلها ولكن أخلاق الرجال تضيق
ومنهم أبو مسفيان بن الحارث ابن عم النبي ، الذى كان من أكثر
شعراء قريش شعرا ضد المسلمين ، فلما أسلم حسن إسلامه ، حتى
قال لأهله عند موته : لا تبكون على ، فإني لم أصب خطيئة منذ أسلمت
ومن هؤلاء الشعراء عمرو بن الجموج السلى ، الذى بلغ من
حماسه للإسلام وللجهاد في سبيله ، أن أراد القتال في بدر رغم أنه
كان أعزج ، فلما منعه بنوه اشتد به القبيق ، حتى كان يوم أحد
ذهب إلى النبي يستشفع به إلى بنوه حتى لا يحولوا بيته وبين القتال
في سبيل الله ، قائلا (إن بي يريدون حبى عن الخروج معك ،
إني لأرجو أن أطأ بعرجي هذه في الجنة ، قال : أما أنت فقد عذرك
الله ، ثم قال لبنيه : لا عليكم لا تمنعوه ، لعل الله يرزقك الشهادة)
قتال في أحد ، وحرص على أن يكون في المقدمة حتى استشهد ،
ويروى أنه دفن مع عبد الله بن عمرو بن حرام في قبر واحد ، فخرب
السيل قبرهما بعد أربعين سنة ، فوجد جسداهما سليمين كأنهما ماتا

(١) المصدر السابق ٦٣٢-١ وما يليها وشرح حاشة أبي تمام التبريزى ٢-٣٠٠

(٢) تلقيح قيوم أهل الأثر لابن الطورى ١٣١ وشرح التبريزى المعاشرة ١٥٩-١٥٧ ويدرسون
حسان ٧٠

فِي الْيَوْمِ وَلَهُ شِعْرٌ فِي الرَّزْدَهِ ، رَفِيقٌ تَحْقِيرِ الْأَصْنَامِ^(۱) وَمِنْهُمْ أَسْمَاءُ
ابن خارجة الذيبياني الذي كان عث اللسان ، ولم يكتبه أحد حين قال
(ما شتمت أحداً قط). ولهم شعر بالغ الجودة في الحسن على الجود
ومكارم الأخلاق^(۲).

ومن الأمثلة الطيبة للشعراء المختبرمين أيضاً التمر بن نواب المكلي
الذى اشتهر بالجود وفيه العطاء ، حتى إنه حين خرف في آخريات
شيخوخته ، كان يهدى بالحسن على الجود والعطاء ، وما اشتهر به
عنة اللسان ، وعنة النفس ، حتى عرف عنه أنه لم يدعه ولم يرجع أحداً
طول حياته^(۳).

ومنهم أبي اللهم الغفارى ، الذى يوصى به شريف شاعر ، وقد
استشهد يوم حنين ، وبالإضافة إلى صفاتاته الخيرة ، كان ذا منهج
خاص به في معيشته ، ومن ذلك أنه لم يكن يأكل اللحم ، ولذلك سمي
بهذا الوصف^(۴).

ونكرر القول بأن هذه المزايا في هؤلاء الشعراء وأمثالهم لا تنفي
وجود هنات في جوانب أخرى من صفاتهم أو سلوكياتهم ، وإلايس ما يمنع
أن تكون في شخص ما فضيلة في جانب ، ورذيلة أو نقيصة أو هنة
في جانب آخر .

(۱) تأقيق نهوم أهل الأثر لابن الجوزي ۱۴۴ و ما يعادلها ، و سيرة ابن حشام ۲۱۰-۲

(۲) الاصناف للأسماء ۴۸ وما يعادلها

(۳) التمر والشعراء لابن قتيبة ۳۰۹-۱ وعزارة البغدادي ۲۲۱-۱ والاغانى الاصفهانية ۲۷۳-۲۲

(۴) الاصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ۹-۱

على أننا نلاحظ، أن الرواة والنقاد يحرصون على إبراز كل فضيلة أو حسنة في الشعراء مهما صغرت ، وكتابهم يرون الخلو من المساوىء في الصفات ، بل الانصاف بصفات الدين والإستقامة على نهج الدين والخلق شيئاً يلفت النظر بالقياس إلى الشعراه ، ولذلك يلاحظ، أن الرواة يغلب عليهم اللجوء إلى صفات خاصة عندما يتحدثون عن الخير من الشعراء ، كقولهم : أسلم فحسن إسلامه ، أو لم ير في إسلامه سوء ، أو كان صالحا ، أو عن اللسان ، أو نحو ذلك ، وهذه الصفات لا يستخدمونها غالباً عندما يتحدثون عن غير الشعراء من المخضرمين ، بل يكتفى غالباً أن يوصى مثلاً بأنه صحابي ، فيفهم من هذا ما عرف عن الصحابة من تدين وخلق ، ولكنهم في كثير من الأحيان لا يكتفون بهذا الوصف إذا كان هذا الصحابي شاعراً وأرادوا الحديث عن فضله ، وكتابهم يجعلون أن الصحبة للنبي لم تمنع كثيراً من الشعراء أن يسيروا قليلاً أو كثيراً ، وهذا واضح في أخبارهم.

التعصب

شعور الإنسان ، بل الحيوان حامة ، بالانتقام أمر نابع من الغريزة فكل فصيلة أو نوع من أنواع الحيوان ، ينتهي أفرادها بعضها إلى بعض ، وبآنس بعضهم عادة إلى بعض ، ثم يتفاوت أفراد كل جنس في مدى التعاون ، وتنظيم أسلوب المعيشة .

ويمتاز الإنسان عن سائر الحيوان بأشياء عديدة ، أهمها العقل والعاطفة ، العقل الذي يزن به الأمور ، ويقدر من خلاله مصلحه ، ومدى توافقها أو تعارضها مع مصالح الآخرين ، والعاطفة التي تشده أحياناً إلى آخرين بروابط معينة ، منها الآلف ، والتوافق في اتجاه معين ، وتحو ذلك .

وهذه الجوانب التي تشير إليها من الغريزة البشرية تزيد أن تصل منها إلى أن شعور الإنسان بالانتقام أمر نابع من الغريزة ، وإذا كان انتقامه إلى الجنس البشري غريزة حيوانية ، يشارك فيها سائر الحيوان فإن العاطفة والعقل اللذين يتميز بما ، يجعلانه يتتجاوز الشعور بمجرد الانتقام إلى الجنس البشري ، إلى الانتقام إلى نطاق أضيق ، هو ما ترتبط به مشاعره وعواطفه في القرابة المباشرة كالأسرة ، وما

ترتبط به مصالحه في القرابة غير المباشرة كالقبيلة أو البلدة أو الوطن .

وإذ فالشعور بالانتماء لذاته غريزة ، وما دام غريزة فلا يوصف بأنه خير أو شر ، لأن الغرائز للذات لا يحكم عليها ، وإنما يحكم على توجيهها ، فإذا وجهت نحو الخير كان هذا التوجيه خيرا ، وإذا وجهت نحو الشر كان هذا التوجيه شرا ، فصلة الرحم مثلا ، تعد توجيها لها نحو الخير ، والتعصب الأعمى للقرابة ولو كانت على خطأ ، يهد توجيها نحو الشر .

والعرب الجاهليون أحاطت بحياتهم ظروف جعلتهم يوجهون انتماهم في معظم حالاته نحو الشر ، حين تشتعل الحروب ، وترافق الدماء ، وبروح الأمان ، ويشترك الآخرون جميعا في هذه النكبات ، يشتركون بدفع الانتماء ، الذي يوجهونه نحو شر ، هو التعصب الأعمى للنسب ، والاندفاع وراء الداعي إلى الشر ، حتى ولو لم يعرف بعض الأفراد حينئذ ، لماذا هذا الداعي ؟ وإلى أين يتجهون ؟ وإذا أريد التماس عن لأهل الجاهلية في هنا فمن أهي جوانب هذا العذر ، أن لا توجد وسيلة ولا جهة لحماية الأفراد إلا هذا الانتماء ، فليس هناك سلطة أو قوة يلجأ إليها الفرد لحمايته إلا قبيلته ، فهو يتندفع لحماية فرد آخر من القبيلة ، أو يستجيب للقبيلة ، مقدرا أنه قد يحتاج إلى هذه الحماية ، فيجد ردا لهذا القرض الذي قدمه قبل ذلك ، فتحمية القبيلة إن تعرض لظلم أو جور . ومن ثم أصبحت كل جماعة أو قبيلة ، كأنها دولة مستقلة بكيانها وقوتها وانتماء أفرادها إليها .

ثم جاء الإسلام فبطل هذا العذر الجاهلي في حاجة الأفراد إلى الحماية من القبيلة ، حيث أصبح الإسلام نفسه بتشريعه وسلطانه هو القوة التي تكفل للجميع كل الحماية وكل القوة ، في الصورة التي عبر عنها أبو بكر في أول خطبة له بعد توليه الخلافة حيث يقرّ (القوى فيكم عندي ضعف ، حتى آخذ الحق منه ، والضعف فيكم عندي قوى ، حتى آخذ الحق له) ، ولم يكن من السهل انتزاع هذا الشعور القبلي المتأصل في التفوس ، والسيطر على الحياة الاجتماعية .

ومن الحق أن يقال إنه ليس من مهد الإسلام محظوظ شعور الانتماء من التفوس ، فحيث كان هذا الشعور غريزة وطبعاً في التفوس ، فإن الإسلام في منهجه كله لا يحارب الفرائض ، وإنما يحارب توجيهها نحو الشر ، ويحاول جاهداً أن يدفع الناس إلى توجيهها نحو الخير ، فإسلام لم يحارب قط. شعور الانتماء إلى النسب أو القبيلة ، بل ولم يحارب الاعتزاز بهذا الشعور ، وإنما حارب سوء توجيهه ، كهذا المعنى الذي جمله الجاهليون عنواناً لحياتهم (نصر أخاك ظلماً أو مظلوماً) فيتصرون أنه يدفع الظلم عنه إن كان مظلوماً ، وبإعانته على الظلم إن كان ظلاماً ، ولكن الإسلام يأخذ من هذا المعنى أساسه الفطري ، وهو رباط الأخوة والانتماء ، ويأخذ جانبه الخير في التوجيه ، وهو معاونة الأخ على دفع الظلم عنه ، وقد قال النبي يوماً لأصحابه هذا المعنى المأثور منذ الجاهلية ، فقالوا متعجبين : ننصر أخانا يا رسول الله مظلوماً ، فكيف تنصره ظلاماً؟ قال : بأن تردوه عن خلمه ، ومن إقرار الإسلام لشعور الانتماء ، ودفعه الناس

إلى التسامي به ، وحسن توجيهه ، صلة الرحم ، وحسن الجوار . ولم يرد في الإسلام تنفير من شعور الانتماء ، ولا من مجرد الاعتزاز بالنسبة ، أو الاعتزاز بالانتماء إلى جماعة ، وكثيراً ما سمع النبي اعزازاً بالانتماء إلى نسب أو جماعة ، فلم ينكر ذلك ، بل إنه يوم حنين ، حين انكشف المسلمين وتراجعوا ، وأراد النبي أن يدعوهم إلى التسامك والتجمع والحماس للقتال ، أمر العباس أن ينادي بالرجوع إلى رسول الله ، فأخذ العباس ينادي : أئها الناس ، فلم يعن ذلك كثيراً ، فأنكره أن ينادي الناس بأساتهم وأنسائهم ، فأخذ ينادي : يا بني قلن ، يا معاشر كذا ، يا معاشر الأنصار ، يا للخرج ^(١) ، وكان مما يؤذى النبي أن يسمع إسماء إلى قريش ، أو حطا من قدرها ، وقد تكرر هذا في التعبير عن تأديبه من الإساءة إلى قريش في عدة مواقف ، كما سيأتي في الحديث عن موقف الشعراء المخضرمين من قريش .

فإلاسلام إذن لا ينفر من شعور الانتماء ، ولا من الاعتزاز به ، وإنما ينفر من التعصب له تعصباً يتنافى مع مبادئ الدين وروحه ، على أننا نلحظ أن الإسلام كعادته في إيجاد وسائل للتنفيس بها عن الغرائز والمشاعر الطبيعية ، أو جد بديلاً لجموح الانتماء ، أو ما يسمى بالتعصب بالنسبة ، وبالدليل هو التعصب للدين نفسه . ويكون الانتماء حينئذ للذين يحتملهم الدين ، وشعاره في القرآن الكريم (إنما المؤمنون إخوة) فالمؤمنون ينتهي أن يكون انتسابه إلى الدين قبل النسب

^(١) سيرة ابن هشام ٤٩٥-٤

العرق ، وارتباطه بصلة المؤمنين ، قبل ارتباطه عن تجمعه معهم
صلة النسب في الدم ، وقد نجح هنا المحن البديل في جيل النبي ،
حينما أحسن المسلمون تطبيقه والتمسك به ، فكان ارتباطهم بالإيمان ،
[وبالمؤمنين ، هو الذي يقودهم ويحركهم ، وليس ارتباطهم بالنسب
وبالقرابة ، حتى حينما اختلط المسلمون بعد موت عثمان رضي الله
عنه ، لم يكن محرّكهم في الخلاف نسب أو قرابة ، وإنما الخلاف
 حول معنى مرتبط بالدين ، وهو الخلافة وما دار حولها من اجتهداد في
 الرأي ، أو خلاف بين القائمين على تعليق الشرعية الإسلامية حينئذ
وهم عل بن أبي طالب وأئمة حرزيه ، ومعاوية وأئمة حرزيه . وكذلك
حينما اختلط العرب بعد وفاة النبي ، فظل بعضهم متسلكاً بالإسلام
وارتد عنه بعض آخر ، لم يكن اختلافهم حينئذ نابعاً من انتهاه لنسب
أو تعصي لقبيلة ، وإنما كان خلافاً حول الدين ، وبعضهم يردد في
في صورته الصحيحة الكاملة ، وبعضهم يردد في صورة مبتورة مشوهة
وهذه الصورة في الخلاف والصراع لم تكن قط مألوفة قبل الإسلام
فلياً ما كانت أسباب الخلاف ، فإنما كان يحركها التعصب للنسب ،
ولكن الخلافات في جيل النبي كلها ، لم يكن يحركها النسب ، وإنما
يحركها الدين بطريق مباشر أو غير مباشر ، سواء أكان البعض
على حق ، أم على باطل ، وهذهحقيقة لا يلتوي التاريخ في إعلانها ،
 وهي غاية لم يكن غير الإسلام يستطيع أن يتحققها .

ونخرج من هذا كله بأن الإسلام ، وإنما يقر شعور الانتقام

إلا أنه يبغض الجموح فيه ، أو ما يسمى التعصب للنسب والقبيلة وأنه أوجد بديلاً لهذا الشيء البغيض ، فدعوا إلى الاتساع إلى الدين وأبنائه ، وإلى التعصب له ، لأن التعصب للدين من حيث إنه مبادئ لا خوف من آثاره ، بل إن آثاره إصلاح اجتماعي محقق ، وليس هناك خير من مجتمع يتواصى أهله بالباديء ويتعصبو لها ، ولذلك يوجه النبي صل الله عليه وسلم شاعر الأنصار كعب بن مالك إلى هذا المعنى ، حينما قال كعب قصيدة العيبة ، بعد موقعة أحد ، يرد بها على هبيرة بن أبي وهب المخزوي القرشي ، ويدافع بها عن المسلمين ، ولكنه ينحر بها منحى العصبية للنسب ، فيقول :

مُجَالِّدُنَا عَنْ جَنَانِنَا كُلُّ فَخْمَةٍ مُّنْرَبِّي فِيهَا الْقَوَانِيسُ تَلْبَعُ^(١)
ولكن الذي لا يرضى أن يكون الدفاع عن الأنساب والعصبيات
فيقول له : أ يصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ قال كعب : نعم
قال النبي : فهو أحسن ، فغير كعب تعبره النساء الإناث وإن شاء وأصبح
البيت .

مجالدنا عن ديننا كل فخمة مُنْرَبِّي فيها القوانيس تلسع
ثم واصل كعب بقية القصيدة .

ونستهي من هذا كله أيضاً إلى أن المسلمين في جيل النبي - وهم

(١) سيرة ابن هشام ٢-٣٦٤ . و المجالد : من المجلدة وهي القتال والقتل يذكر أليم : الفتنة والجماعة التي ينتهي إليها ، والفتنة : الطامة الفاحشة ، والمنربة : مادة كحد السيف أو سان الرمح والقوانين عودة المقاتل وأسلحتها ما بين أول الفرس ، والمعنى : إننا نقاتل وندفع عن أسلتنا ونجعلها كل قوة وكل سلاح

المخسرون - استجابوا لروح الإسلام ، فألقووا صورة العصبية الجاهلية الشرسة خلف ظهورهم وخلف تدينهم بالدين ، حتى إن بقية جنور من هذه النزعة في بعض النقوش التي غلبت عليها البداءة ، فيها لم تعلن هذه النزعة ، ولم يجعلها محركاً لحياتها وجوائب عيشها ، وإنما أغلقت عليها قلوبها ، وتركها مجرد مشاهير أو خواطر ، قد يزهو بها بعضهم أو يختال ، ولكنه لا يتشدق بها علينا ، أولاً يجعلها محركاً مؤثراً واضحاً في سلوكه وصلاته ، ولا يخل بهذا الحكم إن وجدنا صوتاً أو أصواتاً شاذة مفردة .

ولكن الشعراء في مجموعهم أو غالبيتهم العظمى ، هم الطائفة التي ظلت متشببة بهذه العصبية الجاهلية ، ولم يتركوها حبيسة قلوبهم ، وإنما أعلنتها بإعلانات صريحة واضحة ، بل دعوا غيرهم إليها دعوة ملحة قوية ، ولو لا أن المعاشر الدينية حينئذ كانت أقوى من تأثير الشعر ، وكانت دعوة الشعراء هذه مثاراً صاعباً عندها للحية الجاهلية ، والعصبية البغيضة . فمن الجيب أن الشعراء المخسرون ، رغم مصاحبتهم لأرهي فترة في الإسلام ، بل رغم قرب بعضهم الشديد من النبي صل الله عليه وسلم ، فإن ذلك لم يستطع أن يمحى جنوة العصبية الجاهلية في نفوسهم ولا في ألسنتهم ، فهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول ، وأشهر شعراء الإسلام ، لم يتمكنه التخلص من تعصبه لقططائمه اليمنية ، ضد المذهبية المحجازية ، ورغم أن شعر حسان كان دفاعاً مجيداً مؤثراً عن الإسلام ضد أعدائه ، في مواقف كثيرة ،

فإنه ظل في كل هذه المواقف يردد تحصبه الواضح لقبيلته من الأنصار
خاصة ، ولقومه من نسل قحطان عامة .

بين القحطانية والعدنانية :

من المعروف لدى علماء الأنساب أن العرب يرجعون في أصلهم إلى
أبوين عدنان وقحطان ، فلما قحطان فتنى إليه قبائل اليمن ، ومنها
كتنة وطبي وقضاعة ، وبجية ، وملح ، وزبيدة ومراد وخشم ،
وثلاثة ودوس ، وعنس والحارث بن كعب ، والأذد بقروها العديدة .
وكمل هذه القبائل كانت أصلاً في اليمن حينما كان مزدهراً بالزراعة
والحضارة في أجياله القدمة ، حتى تهم سد مأرب في قصة سيل العرم
التي ذكرها القرآن الكريم ، عندئذ حدثت هجرات كبيرة لأنجب هذه
القبائل ، التي انتشرت في وجهات كبيرة أغلبها نحو الشمال ،
وأصبحت القبائل اليمنية بعد هذا التاريخ غير محددة الأماكن ولا
الكيان على وجه الدقة ، لعدة أجيال تالية ، ذلك أن القبائل لم تهاجر
دفعة واحدة ، ولم يهاجر من هاجر في زمن واحد ، والذين هاجروا لم
يستقرروا في مكان واحد ، بل أخذوا ينتقلون ، ويرحلون ثم يقيمون
لالتماس للعيش المستقر ، أو القريب من الاستقرار ، ثم إن القبائل
التي هاجرت ، لم تهاجر كلها ، بل كثيراً ما كان يهاجر بعض القبيلة
ويبقى بعض منها ، كما حادث في قبيلة الأذد ، التي لم يكن يخلو منها
ركن من أركان الجزيرة العربية بعد السيل المشار إليه ، فقد بقى فرع
من القبيلة في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية قرب مسقط ، وهم

أَزد عمان ، ورحل فرع آخر ، استقر فيما يبدو أولاً الأمر قريباً من الطائف ومكة ، وهم المسون أَزد السراة ، ثم تفرق منهم بعض آخر انتشر في فروع كثيرة ، كان منها أولاد قيلة ، الأُوس والخزرج ، اللذين استقروا في يثرب ، وكان منهم آل خسان ، الذين آثروا شمال الجزيرة ، وهم جزء من أَزد الحيرة ، وقرب منهم أَزد تنوخ ، وأما في الحجاز وتجد ، فقد تفرع من الأَزد عدة فروع ، منهم قبائل خزاعة ، ودوس ، وبارق ، وغامد ، ثم ظلوا يواصلون التنقل مع الفتوحات الإسلامية ، حتى كان منهم فرع كبير في خراسان ، عرفهم التاريخ في جيوش أبي مسلم الخراساني^(١) ولكنهم مما أُبعدوا في الرحلة ، ومهمماً استقر بهم المقام ، فإنهم لم ينسوا أصلهم اليمني ، وظللت نفوس هذه القبائل النازحة من اليمن مشلودة بمواطنها إلى أرض اليمن ، وبما شاعرها للعنصر اليمني ، وظل كثير من شعراء هذه القبائل ينتظرون بانتظارهم إلى القحطانية ، مدافعين عن هذا الانتصار ، مهاججين بكل من يمس هذه القطانية ، ومتهم حسان بن ثابت كما أشرنا آنفاً ، والذي كان وضعه في الإسلام يقتضي لا يكون تعصبه لقطانية أو عدنانية ولا لقبيلة ، أو عنصر ، إنما يكون تعصبه للإسلام والمسلمين ، لأنّه في موقف يدافع فيه عن المسلمين عامة ، قحطانيتهم وعدنانيتهم ، ضد الكافرين عامة ، قحطانيتهم وعدنانيتهم أيضاً ، ومثال ذلك قصيدة المشهورة التي توعّد فيها قريشاً ، وتوقع فيها أن يدخل المسلمين

(١) انظر سليم البليغان لياقوت الحموي وسليم قبائل العرب - القديمة والحديثة تأليف عمر رضا كمال

يُخَيِّلُهُمْ مَكَةَ فَاتِحِينَ ، فَلَا يَجِدُونَ مِنْ يَدِافِعُهُمْ ، إِلَّا نَسَاءٌ مَكَةَ يَطْلَعُنَ
وَجْهَهُمُ الْخَيْلَ بِخَرْبَهُنَ ، حَيْثُ يَقُولُ :

تَظَلُّ جِيَادُنَا مُتَطَمِّرَاتٍ تَلْطِمُهُنَ بِالْخَمْرِ النَّسَاءِ
وَالَّتِي تَذَكِّرُهَا النَّبِيُّ حِينَما تَحْقِيقُ هَذَا التَّوْقِعَ فِي فَتْحِ مَكَةَ ، فَتَبِسِّمُ
قَاتِلًا لَأَبِي بَكْرٍ : مَاذَا قَالَ حَسَانٌ ؟ فَسَاقَ أَبْوَيْ بَكْرَ هَذَا الْبَيْتَ . فَقَى
هَذِهِ الْقُصْيَدَةِ تَخْلِبَ حَسَانًا نَزْعَةَ التَّعَصُّبِ الْجَاهِلِيِّ لِلْقَحْطَانِيَّةِ
الْعَدَنَانِيَّةِ ، فَيَقُولُ :

لَسَّا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعْدَدٍ قَتَالُ أَوْ سَبَابُ أَوْ هَجَاءٌ
فَالْمَفْرُوضُ أَنَّهُ يَهَاجِمُ بِشَعْرِهِ الْمُشَرِّكِينَ ، صَارِفًا نَظَرَهُ عَنْ كُوَّتِهِمْ
مِنْ قَحْطَانَ ، أَوْ مِنْ مَعْدَدِ بْنِ عَدَنَانَ ، وَلَكِنَّهُ بِدِلْلَاتِ ذَلِكَ هَاجِمُ
الْعَدَنَانِيَّينَ ، مَعَ أَنَّ مِنْهُمُ الَّذِي وَالْمَاهَاجِرُونَ الَّذِينَ يَرِيدُ حَسَانٌ أَنْ يَدْافِعَ
عَنْهُمْ بِوَصْفِهِمْ جَيْبِعًا مُسْلِمِينَ ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ فِي هَذِهِ الْقُصْيَدَةِ أَيْضًا أَنْ
يَتَخلَّ عنْ تَعَصُّبِهِ لِلْأَنْصَارِ ، مُتَجَاهِلًا الْمَاهَاجِرِينَ ، فَيَقُولُ (١) []

وَقَالَ اللَّهُ : قَدْ سَبَرْتَ جَنَدًا هُمُ الْأَنْصَارُ عُرْضَتْهَا الْلَّقَاءُ
مَعَ أَنَّ الْجَنَدَ الَّذِينَ يَدْافِعُونَ عَنِ الْإِسْلَامِ لَيْسُوا الْأَنْصَارَ وَهُدُمُ .
وَكَمَا عُرِفَ عَنْ حَسَانٍ بِأَنَّهُ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ شَاعِرُ التَّعَصُّبِ لِلْأَنْصَارِ
فَإِنَّهُ ظَلَّ فِي الْإِسْلَامِ شَاعِرُ التَّعَصُّبِ لِلْأَنْصَارِ خَاصَّةً ، وَلِلَّيْمَنِ عَامَةً (٢)
وَمَا مِنْ شِعْرٍ قَالَهُ حَسَانٌ فِي الْإِسْلَامِ ، أَوْ دَافَعَ بِهِ عَنِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا

(١) سِيرَةُ أَبْنِ هَشَامٍ ٤ - ٨٧٨

(٢) اتَّرَى شِرْحُ الْعَزِيزِيِّ لِحَيَاةِ أَبِي حَمَّامٍ ٢ - ٧

وكانت فيه إشادة بعنصره الأنصارى أو اليمنى ، وفخر شديد بأصله [١] ونسبه ، كقوله مثراً أئمَّة ملوك الناس وسادتهم : (١)

كنا ملوك الناس قبل محمد فلما آتى الإسلام كان لنا الفضل
أولئك قوى خير قوم يأسرون فما عد من خير فقوى له أهل
وكتوله يعني أن أحداً ملوككم أدى زمان ، ولو كحلاة القسم : (٢)
قسى أولئك إن تسأل كرام إذا الضيف يوماً ألم
فكانوا ملوكاً بأرضهم ينسدون غضباً بأمر غشم
ملوكاً على الناس ، لم يملكون من الدهر يوماً ، كحال القسم
بل إن حسان بن ثابت ، مع حبه الواضح لشخص النبي ، هذا
الحب الذي يكاد يكون الميزة الوحيدة في حسان من الناحية الدينية ،
نقول : مع ذلك فإنه يجرب يوم حنين على أن يعاتب النبي عتاباً
قامياً ، يبلغ حد اللوم ، على أنه قدم قبائل أخرى كبني سليم على
الأنصار في قسمة الغنائم ، فكان مما قاله (٣) :

علام تدعى سليم وهي نازحة قدم قوم هُنْ آوا وهم نصروا؟
وحتى في رثائه للنبي صلى الله عليه وسلم ، لم يستطع أن ينسى
تعصبه للأنصار ، وخوفه على مجد الأنصار وكينانهم ، كقوله (٤) :

(١) سيرة ابن هشام ٩٨٢-٤

(٢) سيرة ابن هشام ٩٨٣-٤

(٣) سيرة ابن هشام ٩٣٤-٤

(٤) المصدر السابق ١٠٨٢-٤

يا ويع أنصار النبي ورمطه بعد المغيب في سواه اللحد
ضاقت بالأنصار البلاد فأصبحوا مسوداً وجوهم كلون الإند
ولذا كان حسان قد عرف بالتعصب للبيمنية في الإسلام ، فلم
يكن وجده المعروف بهذا التعصب ، وإنما لهج بهذه العصبية شعراء آخرون
سواء من القبائل التي ظلت مقية في اليمن ، كtribid ومذحج ومراد
وكندة ، أو القبائل التي انتشرت في الحجاز ونجد وشمال الجزيرة
وسواحل عمان من شرق الجزيرة ، ومن دولاء الشعراء الذين ظلت
ألسنتهم تهدر بالعصبية البيمنية عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، الذي
لم ينس هذا الفخر البيمني حتى في حديثه عن بلاته في القادسية ،
مع أنه كان عليهما حينئذ أن يرفع في فخره راية الإسلام ومجد
المسلمين ، ولكنه بدل ذلك ، رفع راية اليمن ، وأخذ يسرد الأمجاد
البيمنية ، حتى استغرقت كل قصيده التوتية ، ولو لا قوله (٢)
والقادسية حيث زاحم رسم كنا الحماة بين ركالأشطان
ومضى ربيع بالجنود مشرقاً ينوي الجهاد وطاعة الرحمن
لما كانت هناك علاقة قط. بهذه القصيدة الطويلة والإسلام ، ولو
ادعى معه حينئذ أنها قصيدة جاهلية ، لما كان في القصيدة ما ينفي
هذا الادعاء ، وأطول من هذه القصيدة ، وأشد منها إيماناً في التعصب
لليمنية ، قصيده الدالية ، التي يتحدى منها ما يشهي التاريخ الواقع

(١) الأمال الثالث ١٤٥-٣ وما يهدى

والأنجاد اليمنية^(١) . ومن هؤلاء الشعراء الذين عرفوا بالعصبية اليمنية الأجدع بن مالك الهمداني ، الذي تغنى بأمجاد همدان اليمنية وبكل ما يتعلق بشدة يأسهم وصلابة أسلحتهم وبراعة خيلهم ، كقصيدةه العينية^(٢) . ومنهم مالك بن نعث ، الهمداني ، الذي كان في وقت همدان إلى النبي صل الله عليه وسلم ، فظل يسرد أمجاد همدان بين يدي النبي ، يشعره ونشره ، متمنياً حتى يأتاكم بهم وهو لهم^(٣) وكذلك كان كعب ابن مالك حتى في أوج انفعاله بالشعر الذي يوم بدر لم ينس أنه يخاطب معد بن عدنان كلها وليس قريشاً أو المشركيين^(٤) .

الجنور الجاهلية :

من البدهى إلا تدور عصبية أو تنافس بدون جلور أو أسباب ، فهذه العصبية بين القحطانيين والعنانيين يمكن أن تلخص لها أسباب قدية عديدة ، منها الاشتراك في النسب والبيئة بينهما ، فحقى لو بقيت القبائل اليمنية في إنها ، والعنانية في أماكنها من وسط الجزيرة ، فإن الاشتراك في أي مقومات هو بطبيعته من دواعي التنافس ثم الاحتكاك والصراع ، ولكن بعض القحطانيين تجاوزوا ذلك إلى مراحمة العنانيين في معيشتهم ومصدر حياتهم من المرعى والمشرب ، حين هاجروا من اليمن وانتشروا في سائر أنحاء الجزيرة كما أشرنا

(١) الأمثال القائل ٢١٨ - ٢١٩ وما يهدأها

(٢) الأصمعيات للأصمى ٦ وما يهدأها

(٣) سيرة ابن هشام ٤ - ١٠١٧

(٤) انظر مذكرة الهمداني ١ - ٤١٨

فزاد هذا من احتكاكهم بالعذنانيين ، ومن مزاحمتهم ومنافستهم ، ثم
صاروا عدوهم ، حتى وصل هذا الصراع إلى درجة الحرب الطاحنة بين
العنصرين ، ومن أشهر هذه المعارك بيبيتها .

١ - يوم الكلاب ^(١) الذي بدأ أولاً بطبع القبائل اليمنية في
قبائل بني تميم ، حين هزمت تميم في مواجهة قوات كسرى يوم المدنا
بالشقر ^(٢) ، فجمعت القبائل اليمنية نحو النبي عشر ألفاً تنزعها
قبائل مذحج وهمدان وكثنة ، واحتشدت أحياها من تميم على رأسها بنو
سعد والرباب ، وكان على رأس جموع اليمن عبد يغوث بن
صلاحة شاعر مذحج ، وعلى رأس جموع تميم قيس بن عاصم المنقري ،
خطيب تميم ومن شعرائها ، وبعد اشتداد القتال كانت العلبة لتميم على
اليمنيين الذين هزموا هزيمة مذكرة ، ولكن الذي يعنينا من ذلك أن
مثل هذا الصراع الذي يبلغ هذه القمة الدموية ، لا ينتهي بدون
رواسب في النفوس ، وإنما تظل آثاره مائلاً ترارها الأجيال ، وقد
أثرت هذه الموقعة شعراً كثيراً تناقله العرب في هذا الوقت الساير
لляسلام بقليل ، ومنه رجز قيس بن عاصم أثناء القتال ، ومنه شعر
عبد يغوث ، وبخاصة قصيده المشهورة التي قالها وهو أسير عند بني

(١) يضم الكاتب وهو مكان في بلاد بني تميم التي تقع شمال نجران واليامة وشرق نجد غرب
البهرين توازي مكة تقريباً إلى الشرق انظر خريطة العرب القدمة باللوسيط في الأدب العربي
الأسكندرى وعانيا من ٢

(٢) الشقر يقع في القاف المشددة مدينة حضران النظر خريطة ديران عامر بن الطفلي لابن
الابناري ٦٢

عبيز بن عبد شمس ، يحن إلى دريوجه من شمال اليمن ، ويغائب العيشمية التي سخرت منه ومنها :

ألا لا تلومك كفى اللوم مابيسا فما لكما في اللوم نفع ولا يسا
فيراكبها إما عرضت فبلدن ندامى من نجران ألا تلقيها
وتضحك في شيخة عيشمية كان لم ترى قبيل أسيرا يمانيا
أقوس و قد شدوا لسانك بنسخة أمشر تم أطلقوا لسانها^(١)

وقد ظلت هذه الموقعة مورداً خصباً لشعراء كل الأفريقيين وشاعرهم ،
وكان من شعراء اليمن الذين أسموها بشعراهم بعد هذه الموقعة البراء
ابن قيس الكندي ، ولكننا نلحظ أن كثيراً من الشعر المنسوب إلى
اليمنيين يكاد ينطوي بأنه مخصوصاً باليمنيين ، اخترعه
بطبيعة الحال شعراء من ثم ، ونسبوه إلى شعراء يمنيين ، يسجلون
عليهم فيه الهزيمة ، أو الاعتراف بقوة تم وعظمتها ، ومن ذلك هذا
الشعر المنسوب إلى البراء ابن قيس الكندي اليمني ، ومنه :

قتلتنا تم يوم جديداً قتل عاد وذلك يوم الكلاب
يوم جثنا يسوقنا الحين سوقاً نحو قوم كثيم أسد غاب
وحشانا الصميم نرجو ثواباً فلقينا البار دون النهاب
لقينا أسود سعد ، وسعد خلقت في الحروب سوط عذاب

(١) الأغاني للأستهانى ١٦ - ٣٤٤ (طبعة مصورة من دار الكتب)

(٢) الآية ١٣ سوره الفجر

فواضح منه أنه شعر شاعر غبي ، يغتر على لسان عني ، بيان
عبيما قتلتهم قتل عاد ، وأئمهم لقوا بدل الفنيمة أسودا وموتا ، وأن
بني سعد طراز متميز بين الناس بالباس الشديد ، بل إن هذا الشعر
ينطبق بأنه إسلامي حيث يقتبس من القرآن تعبير (سوط، عذاب)
من قوله تعالى (فصب عليهم ربك سوط، عذاب) ومن الشعراء
العذنانيين الذين أسهموا بشعرهم في الحديث عن هذه الموقعة مجرز
القسى ، وأوس بن مغراة ، وغيلان بن عقبة ، ووعلة بن عبد الله
الجزري ^(١)

٢ - ومن أشهر معارك القتال بين القحطانيين والمدانيين يوم
فييف الريح وهو اسم المكان الذي دارت فيه الحرب في نجد ، وكان
ذلك قبيل إسلام بوقت قصير وكانت أساسا ضد قافلة لكسرى ،
تحمل له المسك من اليمن ، فعدا عليها بنو تميم فاتتهبواها ، وانضم
لأليهم أحلاف من القبائل الأخرى ، وغضبت مدحج اليمنية لرجاليها
الذين يحرسون القافلة ، والذين كون منهم باذان حامل كسرى على اليمن
هذه القافلة ، فانضم بعض أحياه هواند إلى تميم ، ومنهم بنو عامر بن
صعصعة ، وعلى رأسهم عامر بن الطفيلي ، الذي أصيبت عينه يومئذ
بطعنة من مسهر بن يزيد الحارثي اليمني ففُقدت ، وقد أسمهم أليقا

(١) انظر آثارهم في الأغانى للأستهانى ١٦ - ٤٣٥ وما يهدى

شعراء كثيرون من كلا الفريقيين اليمني والعدناني ، بشرهم في
الشغف بسجادة كل فريق في هذه الموقعة ، أو في التعقب على بعض
أحداها ، ومن أشهر الشعراء العدنانيين الذين تحدثوا عن هذه الموقعة
عامر بن الطفيلي ، الذي يتحدث عن إصابة عينه برمضان ، وعن مقتل
مسهر اليمني الذي قاتلها ، وعن فرسه المزنوقي ، ومن ذلك قوله^(١) :

وقد علم المزنوقي أى أكْرَ عشية فيف الريح كر المشهور^(٢)
إذا ازور من وقع الرماح ذجرته وقلت له ارجع مقبرا غير مدبر
لعمري وما عمري على بُهِيْنْ لقد شان حُرُ الوجه طعنة مُسْهِر
ومن الشعراء العدنانيين الذين تحدثوا عنها الأعشى ميمون
القيسي ، ولكنه لم يتوجه بشعره حينئذ ضد اليمن ، وإنما ضد تميم
متعصباً لقبيلة قيس ، شامتا في بني تميم كقوله :

سائل تميا بهم أيام صفتهم لما أذوه أسرى كلهم ضرعا^(٣)
وقد أفاض عمرو بن معدى كرب الزبيدي اليمني في الحديث بشعره
عن موقعة فيف الريح ، مشيداً بانتصارهم على أحياه هوازن ، وبخاصة
بني عامر بن صعصعة رهط ، عامر بن الطفيلي ، وبني جشم وبني سليم ،

(١) شرح ديوان عامر بن الطفيلي لأبن الأثيري ٦٥ وما يليها والإمال للقال ٣ - ١٤٧

(٢) أكْرَ : أيام يكر والمهر الكرم الشهير

(٣) يوم الموقعة هو عيد قصح النصارى وكان هريرة بن عل الحنف أحلات قيس قبلاً
الأعشى قد أشاد من عامل كسرى مالة من أسرى تميم يوم الموقعة فالشاعر يعن على تميم
ذلك انظر شرح ديوان عامر الطفيلي لأبن الأثيري ٦٤

وقد أورد عمرو في بعض هذا الشعر معانٍ لا تخلو من غرابة على المعرفة حتى في الجاهلية كقوله^(١) :

فلم نقتل شرارهم ولكن قتلنا الصالحين دوى السلاح
قتلنا مطم الاضياف منهم وأصحاب الكربة والصباح
وهو يريد أن يقول إننا لا نقتل عامة الناس ورعاهم ، وإنما
نعمل إلى السادة والوجوه والاكفاء ، ولكن اختياره للألفاظ جعله
يبعد ولو قليلاً عما يريد ، وجعل الاسماع تنبو ولو كانت أسماع
الجاهلية عن سماع هنا الفخر ، فإن العرب تمجّد مطم الضيوف ،
وصاحب المكارم ، ولا ترى في العمد إلى قتلها حمدًا ولا مجدًا ، ولعمرو
ابن معد يكرّب قصيدة ذاتية طويلة ، تفيض إشادة بامجاد قبائل
اليمن عن مراد وعنده وذبح وزباد وقبائل أخرى ، وتفيض فخرًا
بياسهم الشديد ، و بما أوقعه في أعدائهم من أحياء تميم وهو زان ، ومن
ال الطبيعي أن يتصدى شعراً تميم وهو زان للرد على شعراً اليمن .

وفي كل حال فإن المصيبة بين التحطمانية والعدنانية التي برزت
ولم تخفي ، ولم تشتعل حتى في أذهان فترات الحمامين الديني ، هذه
المصيبة لم تكن ولادة وقتها أو جيلها ، وإنما كانت موغلة العراقة
والقدم ، ولم تكن جذورها سبباً واحداً ، وإنما هي أسباب عديدة
منشبة ، بعضها نابع من طبيعة العلاقات الاجتماعية ، وبعضها من
أحداث الحياة المعيشية ، وبعضها من غير ذلك . ولكن الذي يعنينا

(١) الاملال - ٣ - ١٤٧

من ذلك كله ، أن هذه العصبية كانت ظاهرة واضحة في شعر الشعراء المخضرمين ، سواء في شعرهم الإسلامي ، أو في شعرهم الجاهلي .

ولكتنا لا ينبع أن تخلل أنه مهما تعددت جنور العصبية بين بني قحطان وبين عدنان ، فإن صلب هذه الحساسية بينها يمثل نوعا من العنصرية ، يعني أن أساس هذه العصبية بينهما كان مجرد شعور كل منها بأنه ينتمي إلى عنصر أو نسب غير نسب الآخر ، وكان هذا في ذاته كافيا لأن يجعل كلاً منها فريقا مستقلاً عن الآخر ، ومسكرا مختلفاً عن صاحبه ، وكان يمكن أن يظل كل فريق منها متباشيا [للآخر ، أو غير مصطدم به لو أن القحطانيين ظلوا في يمنهم ، ولكن هاجرتهم إلى الشمال ، ومحاجمتهم للعدنانيين في أماكنهم ، وف أسباب معيشتهم ، جعلت بينهما تنافساً ونزاحة ، ثم احتكاكاً ومصارعة] وإن لم تكون مصارعة بالسيوف فهي بالسنة الشعراء .

بين القبائل :

لم تكن تعرف الجزيرة العربية عنصرية أو إقليمية سوى ما كان بين بني قحطان ، وبين عدنان ، فقد كانت أبرز سمات العصبية بينهما مجرد انتفاء كل منهما إلى عنصر ونسب مستقل ، أما فيما عدا ذلك ، فإن العصبية كانت بين القبائل فرادى ، وكان الذي يشير العداء والصراع بين هذه القبائل ليس الانتفاء إلى نسب معين أو إقليم معين ، وإنما كان في أغلب الأحيان الصراع على أسباب المعيشة من الماء والكلأ ، كما يصور عمرو بن كلثوم في ملقطه أهمية الصراع

بين القبائل على موارد الماء ، وأن الأقوى هو الذي يباح له أن يشرب الماء الصالح ، ثم يترك القاع العكر من زليمه فيقول^(١) :

ونشرب إن وردنا الماء صفوأ ويشرب غيرنا كدرأ وطيننا
فإنه وإن كان يريد أنهم أقوى القبائل ، إلا أنه غير بایرزا مظاهر
القوه في مجتمعهم ، وهي مقالة الغير على وسائل العيش المحدودة في
هذه البيئة . ثم تأتي كل مثيرات الصراع بعد ذلك أسباباً ظاهرية ،
أو أحداثاً مباشرة ، أو خلافات فردية ، وقد يؤدي ذلك إلى حروب
طاحنة ، وقد تردها إلى أسباب مشهورة أو معروفة ، ولكن الحقيقة أن
الصراع متصل في نفوس القبائلين ، وهو مهيناً لاي حدث عابر
يصبح كالتشحة التي قصمت ظهر البعير ، قبيدو على السطح أن هذا
الحادث هو سبب الحرب ، ولكن القاع العميق من تحته يخبر بان
هذا الحادث ليس إلا سبباً ظاهرياً ، كان يمكن علاجه ، وهو آخره
لو أن النفوس لم تكون محملة بهذا التناقض الوهيب على أسباب العيش
والحياة ، ويكتفى أن يكون من عوامل هذا التناقض حرص كل قبيلة
على أن تكون هي الأقوى ، لأن قوتها تحكمها من كل شيء ، وضعف
منافسيها يحرمه أيضاً من كل شيء ذي أهمية .

وقد كانت في العرب أنساب أساسية يمكن أن تكون منها عنصرية
أو إقليمية ، ففي العرب قسمان أساسيان من حيث النسب : أحدهما
قبائل ربيعة ، التي كان من أشهرها قبائل عبد القيس ، على الساحل

(١) فتح الملقات السبع لزوفن ١٠٨ - ٢٣٦ - ٢٣٧ - ٢٣٨ - ٢٣٩ - ٢٤٠ - ٢٤١

الشري للجزيرة فيما يلي الجنوب ، وينو يكر وتغلب قرب الساحل الشرقي للجزيرة فيما يلي الشمال ، وينو حنيفة في منطقة اليمامة ، والقسم الآخر قبائل مصر ، التي من أشهرها قريش رخيم وزينة وهذيل وقد استوطنت معظم قبائلها في وسط الجزيرة وغيرها منتشرة بين نجد والجاز ، ويترفع من قبائل مصر فرع أسامي آخر ، هو قبائل قيس ، التي تسمى قيس عيلان والتي كان من أشهرها قبائل هوازن وما تفرع منها من بني سعد ، وبني ثقيف وغيرهما ، وقبائل غطفان وما تفرع منها من بني عبس ، وبني ذبيان ، وغيرهما^(١) .

فقد كان يمكن أن يصبح الرباعيون والمصريون عنصرين ، كما كان القحطانيون والعدنانيون ، ولكننا لا نحس لهذا النسب أثرا في العنصرية ، سواء في حروب السيف ، أو في حروب اللسان ، بمعنى أنه لم تكن سواء في الجاهلية أو في الإسلام حروب بينهما ، بل ينضم فيها بعضهم إلى بعض لمجرد أنه ربي أو مصري ، ولم تكن بينهما مهاجرة أو تنافس أدبي ، بل يتضمن فيه بعضهم إلى بعض لمجرد أنه مصري أو ربي . وكذلك يتوافق ، وإن كانوا قد تميزوا عن باق المصريين بنسبة مستقل ، إلا أن هذا النسب لم يتحول إلى عنصرية ، ولم يظهر له أثر ، سواء في حروب السيف أو اللسان ، وإن كان بعض الباحثين يشير إلى صعوبة من هذا القبيل في سياق الحديث عن تحالف الشعر دون دليل على أثر هذه الصعوبة الموجه إلى قوة أخرى ،

(١) انظر تاريخ الإسلام من إبراهيم ١٤٩-١

أو كيان آخر (١) ومجرد اعتراف أحد بنفسه أو فخره بمقوماته ،
لا يصلح دليلاً على أنه يهاجم بهذه العزة أو هذا الفخر أحداً آخر .
وكذلك كانت في الجزيرة أقاليم تكاد تكون محددة متميزة ،
كالحجاز ، ونجد ، وتهامة ، واليمامة ، ومع ذلك لم يكن لهذه الأقاليمية
أثر في العلاقات الاجتماعية ، سواء بالتقرب أو التناحر .

ولما كان الصراع الدائم ، والبالغ الشدة والعنف ، بين القبائل
فرادي ، حين تصطدم مصالح القبيلتين ، إصطداماً ما زلناه بوقوع أحداث
بينهما ، أو أديباً معنوياً ي مجرد التنافس على أن تكون كل منها هي
صاحبة السيادة والقوة ، ولذلك نجد أغلب الحرث الجاهلي بين
القبائل كانت بين أشد القبائل قرباً لبعضها جواراً أو نسباً ، ومن
ذلك هذه الحرب الطاحنة بين بني عبس وبني ذبيان ، وعيس وذبيان
أخوان ، من بني غطفان ، هذه الحرب التي عرفت بحرب داحس
والغبراء ، وهذا فرمان أعد للسباق في قصة معروفة ، وقد أبلى
في الإصلاح بين القبيلتين رجالان من خيار العرب ، هما الحارث بن
عرف ، وهرم بن سنان ، وبعد أن أوشكت الحرب على تدمير
القبيلتين ، ولذلك يخاطبهما زهير بن أبي سلمى في ملائمة فيقول :
تداركتما عبسًا وذبياناً بعدما تفانوا ودفعوا ببنיהם عطر منشمش (٢)

(١) انظر في الأدب الجاهلي د. مه حسین ٢٤٥ وما يليها

(٢) شرح ديوان زهير للطباطبائي ١٥ وشرح الملقات السبع للزورقي ٦٣ ومتثمث امرأة
كانت تبيع العطر فاشترى جماعة منها عطرًا وغضوا أليفهم فيه متاهدين على القتال حتى
الموت فقتلوا جميعاً ففسر ب المثل يمطرها

ومن هذه الحروب حرب البيوسن ، التي دامت في الجاهلية بين بني بكر وبني تغلب نحو أربعين عاماً ، أو شكت فيها على إهلاك الحrust والنسل ، وظل أوار الحرب التي أشعلها المهلل يسيقه وشعره متعاظم الاشتعال ، حتى استطاع الحارث بن عياد أن يساعده على إخمادها بسيقه وفرسه المسماة النعامة ، حين لم يجد بدا من اشتراكه في الحرب ، بعد أن قرر اعتزالها ، وبعد أن قتل المهلل ابنه الذي جعله أبوه الحارث رسول صلح إليه ، فدعا الحارث فرسه ودرعه بقصيده المشهورة .

قريباً مربوط النعامة من قرياحاً وقرباً سر بالـ
قرباً مربوط النعامة من لفتح حرب وائل عن حيال
هذا مع أن يكرا وتغلب أخوان ، من أبيهما وائل بن جديلة^(١)

ولم تشر قط حروب بين عناصر من العرب ، لمجرد انتسابها إلى نسب أو إقليم ، فلم تثر حرب بين المفسرين والreibيين ، ولم تثار حرب بين أحدهما وبين قيس ، ولم تذر حرب بين أهل نجد والمحجاز ، أو بين أهل نجد واليمامة ، أو تحوذ ذلك ، فالمنصرية الوحيدة في الجزيرة العربية قبل الاسلام كانت بين القحطانيين والمدنانيين ، ثم استمرت في عصور إسلامية متواتلة ، حتى كانت من الأصوات البارزة المسومة في العصر العباسي كله . وفيما عدا ذلك ، كانت الصبية محصورة بين القبائل التي يجمعها رباط . يدعو إلى التنافس .

(١) تاريخ الاسلام د. حسن ابراهيم ١ - ١٤٠

ولكنا في سياق حديثنا عن الشعراء المخضرمين نريد أن نبرز
معنى ذا أهمية في الموضوع ، وهو أنه وإن كان الاعتزاز بالنسب
والانتماء غير بغيض في الإسلام كما سبق ، إلا أنه حينما يوضع
بجوار الإيمان ، أو الاعتزاز بالدين ، وبخاصة في هذه الآونة الزاهية
من حياة النبي، حمل الله عليه وسلم وما تلاها ، فإن المسلمين كانوا يرونهم
ويرون أي شيء سوى الدين صغيراً ويسيراً حينما يوزن بدينه .

الشعراء والعصبية القبلية :

ولكن الشعراء لم يكونوا كذلك ، فلم يكن اعزازهم بالدين في
المقام الأول كما كانت التزعةسيطرة على المسلمين حينئذ ، وإنما
ظلت التزعة الجاهلية في عبادة الأنساب ، والتهالك على العصبية القبلية
بارزة واضحة في شعرهم ، وإذا استثنينا بضعة شعراء ، كليبيد بن
ربيعة العامري ، وخفاف بن ندية السلمي ، والنمر بن توب القبيسي ،
وفروة بن عمرو الجذامي ، نجد أن الشعراء لم يكادوا ينتقلون من الجاهلية
إلى الإسلام ، ولم يكادوا يتجاوزون في الإسلام صورة العصبية القبلية
التي كانوا ينيرونها في الجاهلية .

فهذا شاعر من أشهر الشعراء المخضرمين ، هو العباس بن مردانس
السلمي ، كان من الفرسان البارزين في جيش المسلمين عند فتح
مكة ويوم حنين ضد هوازن ، وكانت قبيلته بتو سليم من القبائل التي
صدقت في إسلامها وبلاها يومئذ ، وقد بلغ من كثرة المتضمين منهم

إلى جيش المسلمين أن عقد لهم النبي لواء خاصاً بهم ، وكان هذا كله
كتفياً لأن يقوى من حماس العباس للدين الذي يدافع عنه ، وأن
يبدر أثر هذا الحماس رالانفعال في شعره ، ولكنه كان على عكس ذلك
منشغل بتعصبه لقبيلته ، انفعلاً يكاد يتنسى حماسه للدين ، وتعصبه
للمسلمين ، ولا يكاد يذكر إلا الآلف مقابل الذين انضموا من بني
سليم إلى جيش النبي يومئذ ، وهو يتحدث حقاً عن النبي وعن الإسلام
لكنه في أغلب الأحيان إنما يتخذ من هنا سبيلاً إلى إعلاء شأن بني
سليم ، والإشادة بمجدهم ، كقوله :

فجتنا بآلات من سليم عليهم أليس لهم من نسج داود رائع
نبارعه بالاخشبين ، وإنما يد الله بين الاختبين نبراع
فجستنا مع المهدى مكة عنوة بأسياقتنا والنفع كاب وساطع
علانية والخيل يعشى متوكلاً حميم وآن من دم الجوف ناقع
وبيوم خنين حين سارت هوازن إليه وضاقت بالنفوس الأصالع
صبرنا مع الفسحاك لا يستفرنا قراغ الاعدى منهم والواقع
أمام رسول الله يتحقق فوتنا لواء كحدروف السحابة لامع
عشية ضحاك بن سفيان معتض بسيف رسول الله والموت كائع^(١)
فموضوع الشعر ليس الإسلام ، ولا الدفاع عن المسلمين لذاته
 وإنما موضوعه بنو سليم وأمجادهم وشجاعتهم ، ولم يكن الإسلام إلا

(١) سيرة ابن هشام ٤٠٩-٤

فرصة لإظهار مجدهم وشدة بأسهم في رأى الشاعر ، وكل أشعار العباس في الإسلام تسير على هذا النهج ، بنو سليم موضوع الشعر ، والاسلام وأحداثه وسيلة إلى إثبات أمجادهم وشدة بأسهم في الحرب ، بل لم ير العباس بأن يدعى أنه لولا بنو سليم لحقت بال المسلمين في حين هزيمة مذكورة ، يصبحون فيها غنيمة لهوازن ، مدعياً أن النبي جعل من سليم محوراً للحرب ، ولم تتوقف الحرب إلا حينما توقف بنو سليم عن القتال ، ومن هذا القبيل قوله^(١) :

فهناك إذ نصر النبي بالقتال
عقد النبي لنا لواء يلمع
فرنا برايته وأورث عقده
مجد الحياة وسُؤداً لا يتزع
نصر النبي بنا ، وكنا معشراً
في كل نائية نضر وننسع
ذدنا غدائنا هوازن بالقتال
والخيل يغمرها عجاج يسطع
إذ خاف حدهم النبي وأستدرا
جمعاً تکاد الشمس منه تخشع
حتى إذا قال الرسول محمد
أبني سليم قد وَفِيتُم فارفعوا
رحنا ولولا نحن أجهض بأسهم
بالمؤمنين وأحرزوا ما جمعوا .

وكل ما وصل إلينا من شعر العباس في الإسلام - وهو كثير - يدور حول هذا المعنى ، وحول معانٍ تقرب منه ، ولكنها لا تمثل الاعتزاز بالإسلام ، وإنما بالقبيلة ، ولا تمثل القتال حباً في الجهاد أو إعلاء كلمة الله ، بقدر ما تمثل الرغبة في إثبات مجد بني سليم وتفوقهم

(١) سيرة ابن هشام ٩٠٨-٤

على سائر الناس ، وفي سبيل ذلك يشير أحيانا إلى التعریض بنافسهم أو بنی يراثم الناس أولى من بنی سلیم باستحقاق شرف السبق في نصرة الإسلام وهم الأنصار ، وهذه حقيقة تعد جزءا من الإسلام نفسه ، ولا ينكرها إلا الذين يعميهم عنها التعصب لقبائلهم كالعباس ابن مردام ، الذي نراه يعرض بالأنصار المشهورين بزيارة التخلق يشرب ، وبأهل اليمن المعروفين بكثرة البقر في موطنهم ، مشيرا إلى أن بنی سلیم خير من أولئك وهؤلاء ، حيث يقول^(١)

وأذكر بلاء سلیم في مواطنها وفي سلیم لأهل الفخر مفترخر
قوم هم نصروا الرحمن واتبعوا دین الرسول وأمر الناس مشتهر
لا يغرسون فسیل التخل وسطّهم ولا تخاور في مشتاهم البقر
ونحن يوم حنين كان مشهدنا للدين زا وعبد الله مدحسر
إذ نركب الموت محضرًا بظانبه والخيل يتجاذب عنها ساطع كدر^(٢)
تحت اللواء مع الصحاطل يقدمنا كما مشى الليث في غياهه الخدر^(٢)

وكذلك كان أبو محجن الثقفي ، من خيرة فرسان العرب ،
وصفوه شجاعتهم ، وله موقف يذكره التاريخ يوم القادسية ، حين
احتلال للخروج من محبسه ليشارك المسلمين في القتال ، حين اشتدت

(١) سيرة ابن عثام ٤ - ٩١١

(٢) الصداق ابن سليمان بن هوف الكلابي الذي تحدث عنه هنا وفي الآيات السابقة كان من أمراء سرايا النبي انظر تلقيح فهو أهل الآخر ٧٥ - وهو غير الصحاح ابن عبد الله صاحب أمر بي سلیم . انظر الشر لابن قويه ٤ - ٧ ومن المعرف أن صاحب لواء بنی سلیم كان مخافف بن ثيبة ولكن العباس كان يواجه قافله ينكر إماراته انظر الشر لابن قويه ١ - ٣٤

عليهم الحرب ، وكان أبو محجن يومئذ من أبرز الأسباب المباشرة في نصرة المسلمين ، ومع ذلك حين عاد من من موقفه هذا الباسل ، لم تشر في نفسه مشاعر إلحاد ، ولا مشاعر نصرته للإسلام ، وإنما سيطر عليه شعور الاعتزاز بقومه من بني عوف من ثقيف . فراح يسخر بقوله^(١) :

لقد علمت ثقيف غير فخسر
بأننا نحن أكرهم سيفوا
وأكثرهم دروعا سياجات
وليلة قادس لم يشعروا بي
فإن أحبس فقد عرفوا بلائي
وكون التحصب لقبيلة ، والاعتزاز بالآباء والأجداد ، أظهر في
شعر المخضرمين من التزعة الدينية ، هذه سمة واضحة وغالبة على شعرهم
كله ، غالاعتزاز بالقبيلة غالب على كل شيء ، بما في ذلك الدين
نفسه ، في شعر كل المخضرمين تقربا ، وحتى الشعراء الذين عرقو
باتهم شعرا الإسلام ، أو شعرا الرسول ، لا يكادون يبعدون كثيرا
عن هذا الحكم ، فإذا أخذنا شعر حسان بن ثابت ، مع دفاعه المجيد
عن الإسلام ، نجد أن هذا الدفاع في معظمها نابع من اعزازه بقوه
قومه ، وباتهم رجال حرب وباس شديد ، لا تصمد له قريش ولا
غيرها ، وأيسر ما يقوله حسان من مثل هذه المعانى قوله :

(١) الأنفال للأصفهان ١٩ - ٦

كتاب ملوك الناس قبل محمد فلما أتى الإسلام كان لنا الفضل^(١)

ومن شعر له يخلو من هذه النزعة .

وكذلك كان عبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك ، اللذان يلغون
شعرهما من التصub لقومهما ، والتحامل في هذه العصبية على قريش
أن أبدى النبي عدم رضاه عن هذا الشعر^(٢)

وهكذا حين تذهب إلى شعر الشعراء المخصوصين ، أول ما يبادرنا
إنه ، هذه العصبية القبلية المسيطرة على نقوسهم ، حتى إن بعضهم
لا يكاد الرواية يجدون في شعره أوضح وأبرز من هذه النزعة ، أو
لا يجدون من شعره ما يدعو إلى الرواية إلا هذا اللون ، لأن الشاعر لم
يتم بغيره ، كما نجد في شعر ربيعة بن مقرئ الذي يسيطر عليه
الفخر بنفسه وبقبيلته من يكر^(٣) وشعر قيس بن عاصم المنقري
التبسيي كذلك^(٤) وكذلك شعر حربث بن محفض الذي لم يكدد
يقدم بعض الرواية عند شيء منه إلا هذا الفخر والتصub لقبيلته من
بني تميم^(٥) وكذلك سعيم بن وثيل شاعر ينفي دوافع من تميم وسيدهم
الذى قتل الحجاج ببعض فخره بالآباء على المنبر^(٦) والذي منع

(١) سير ابن هشام ٤ - ٩٨٢

(٢) انتز العصبة لابن رشيق ١ - ٢١٠

(٣) انظر سجدة أبي تمام ٣-١ وما يهدى ١-١

(٤) المصدر السابق ٦٢-٢

(٥) الشعر والشعراء ابن قتيبة ٢ - ٦٤١

(٦) الشعر والشعراء ابن قتيبة ٢ - ٦٤٣

على بن أبي طالب المسلمين أن يأكلوا من ذيابه ، لأنها ذبحت للقمر ،
وليس لوجه الله ^(١) وكذلك ضضم بن الحارث السلى ، في شعره
الذى قاله إثر حنين ، فلم يذكر فيه إلا ثأره لنفسه من ثقيف الذى
قتل بعض ذويه ^(٢) .

بل إن بعض الشعراء لم يمنعه الدين من أن يؤثر العصبية القبلية
على تدينه ولو في بعض المواقف ، كما فعل أمية بن الاسكر البكري ،
الذى هجا من ساعد المسلمين ضد قومه ^(٣) ومنهم أبو خراش الهلل
الذى لا يخفى حنيته إلى الجاهلية ، وإخوان صفائها ، ولا يخفى
ضيقه ببعض قيود الإسلام التي تحول بينه وبين الشار لنفسه ، والتي
ساوت بين القوى الشجاع الكنى ، والشيخ الضعيف المهزوك ، في
أحكام كل متهمما إلى هذه القيود ، وعدم اللجوء إلى أساليب الجاهلية
في الشار ، ومن ذلك قوله ^(٤) :

فليس كعهد الدار يا أم ثابت ولكن أحاطت بالرقب السلام
وعاد الفتى كالكهل ليس بقاتل سوى الحق شيئا فاستراح العواذل
أهال عليهم جانب الترب هائل وأصبح إخوان الصفاء كائنا
بكمة إذ لم نعد عما نحاول فلا تحسبي أنى نسيت لياليا

(١) انظر مزانة البهادري ٢٥٦ - ١

(٢) سيرة ابن هشام ٤ - ٩١٤

(٣) الأخلاق للأصفهاني ٢١ - ٨

(٤) سيرة ابن هشام ٤ - ٩١٥

وي بعض الشعراء دفعهم التعصب لأقوامهم إلى الاقذاع في هجاء
خصومهم ، ولكن كان الهجاء بكل ما يحمل من معان ، مالوفاً مستساغاً
في الجاهلية وغيرها من العصور ، فإنه في هذه الحقبة المشرقة من
الإسلام كان نشازاً غريباً منكراً ، لكن بعض الشعراء كانوا يجدون
أن سيطرة التعصب لقبائلهم على نفوسهم أقوى من سيطرة الدين نفسه
فيتساقون وراءها ، متصدرين لأنكار المسلمين ، وسطخ القائمين على
أمر الإسلام . ومن هؤلاء الذين ظلت الجاهلية مسيطرة على مشاعرهم في
حياتهم لأمجاد أنسابها تميم بن أقيبل ، شاعر بني العجلان وهم
رهط من بني عامر بن صعصعة من بني تميم ، الذي عرف لدى الرواة
بيكائه على أمجاد الجاهلية وساداتها ^(١) .

ومن هؤلاء الشعراء شاعر بني الحارث بن كعب ، قيس بن عمرو
المشهور بالتجاشي ، وهو ينتهيون إلى اليمالية ، فقد سيطر عليه التعصب
لبني الحارث بن كعب حتى إنه هجا بني النجار ، رهط ، حسان بن ثابت
وكان ذلك في خلافة معاوية ، وكلا القبيلتين ، الأنصار وبني الحارث
بن كعب ، من أصل يمني ، ولكن منزلة الأنصار في الإسلام تجعل
هجاءهم - بوصفهم جماعة - ظلماً بينا ، وجوراً عن طريق الدين
القوي ، ولو هجا شخصاً معيناً منهم مهماً تكون منزلته لا يختلف الوضع
ولكنه يتعرض لبني النجار عامة ، مفضلاً قومه عليهم ، ومن ذلك
قوله :

(١) انظر عزالة الأدب البدنادي ٤٣١-٤

لست بنى التجار أكفاء مثلكم فلابعد بكم عما هناك أبعد
فإن شئتم نافرتكم عن أبيكم إلَى من أردتم من ثيام ومتاجد
فإِنَّ الْأَنْصَارَ أَنْ يَجُوْهُمْ أَحَدٌ ، وَالْتَّعْسُوا حَسَانَ بْنَ ثَابِتَ
يَدْفَعُونَ بِهِ تَعْرِضَ النَّجَاشِيِّ لَهُمْ ، وَيَدْفَعُونَ مُحاوَلَةَ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ
كَعْبٍ أَنْ يَرْتَفِعُوا عَلَى أَكْتَافِ غَيْرِهِمْ ، وَبِخَاصَّةِ أَكْتَافِ الْأَنْصَارِ ،
وَكَانَ حَسَانٌ مُشْهُورًا بِعِقْدَرَتِهِ فِي الْهُجَاءِ ، مِنْذَ نَشَأَهُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ،
مُقْدَرَةً تُرْهِبُ كُلَّ شَاعِرٍ وَكُلَّ حَيٍّ أَنْ يَتَالِهِ مِنْ لِسَانِ حَسَانٍ شَيْءٌ ،
وَكَانَ مِنْ مُفَاقِرِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ طُولُ أَجْسَامِهِ وَضَخَامُهَا ،
فَإِذَا حَسَانٌ يَحْوِلُ هَذِهِ الْفَخْرَةِ إِلَى سَبَّةِ السُّخْرِيَّةِ وَالْأَزْدَارِ ،
فَكَانَ مِنْ شِعْرِهِ هَذَا :

حَارَ بْنَ كَعْبَ أَلَا أَحَلامَ تَرْجُوكُمْ عَنَا ، وَأَنْتُمْ مِنَ الْجَوْفِ الْجَمَاحِيرِ
لَا عِيبٌ بِالْقَوْمِ مِنْ طَوْلٍ وَلَا عَظَمٌ جَسْمُ الْبَغَالِ وَأَحَلامُ الْمَصَافِيرِ
كَانُوهُمْ قُضِبُوا بِجُوفِ مَكَاسِرِهِ مُتَّبِّعُو فِيهِ أَرْوَاحُ الْأَعْاصِيرِ
أَلَا طَعَانٌ أَلَا فَرَسَانٌ عَادِيَّةٌ إِلَاتِجْشُوكُمْ حَوْلَ الشَّانِيرِ^(١)
وَوَاضَعٌ أَنْ هُجَاءَ حَسَانٌ كَانَ مِنْ أَبْلَغِ الْهُجَاءِ الْمُوجِعِ ، بَلْ الْمَهْلِكِ
لِكُلِّ قِيمَةٍ وَمِنْزَلَةٍ فِي الْمَجَمِعِ ، حِيثُ جَعَلُوهُمْ فِي أَجْسَامِهِمُ الطَّوِيلِهِ الْفَارِعَهِ
مُجَرَّدَ قُضِبَ أَجْوَافُ ، تَصَفَّرُ فِيهِ الرِّيحُ ، خَالِينَ مِنْ كُلِّ عُقْلٍ وَكُلِّ
قِيمَهُ ، وَجَعَلُوهُمْ مُجَرَّدَ بَهْمِ سَوَامِيهِ ، لَا هُمْ لَهُمْ إِلَّا التَّجَمُعُ حَوْلَ قُدُورِ الْطَّعَامِ

(١) مُرَازَةُ الْأَدْبِ الْيَقَادِيِّ ٤٩-٥٠ وَمَا يَمْهُو وَحَارَ تَرْتِيمُ حَارِث

ليملأوا أجسامهم هذه الجديدة ، ثم يظلون يتجلّسون من آثار التخمة ، ألم الطعن ، وألم الفرسية ، فلا شأن لهم بها . وقد بلغ الفزع ببني الحارث بن كعب من هذا الشعر مبلغه ، وبخاصية سادتهم بني عبد المدان ، فجاءوا بشاعرهم النجاشي مؤثثا ، وطرقوا بباب حسان بن ثابت ، يقدمون إليه شاعرهم ، يحتمل فيه ما يشاء ، مقابل أن تطيب نفسه ، فيكت عن هجائهم ، وقد طابت نفس حسان بهذا الصنيع ، فأعلن رضاه وغفره عنهم وعن شاعرهم ، ولكن بعض سادتهم يعاتبه قائلا : كنا نفخر على الناس بالعلم والطول ، فافتده علينا فيوامي حسان بني عبد المدان بقوله^(١) :

وقد كنا نقول إذا رأينا الذي جسم يُعدُّ وذى بيان
كائنك أَيُّها المعطى بيانا وجسما من بني عبد المدان
وحنى في الموقف المرتبطة بالدين ، لم يكن الدين ومواقه مانعا
لبعض الشعراء من العгин إلى حمية الجاهليه وعصبيتها ، فهذا أبيان
ابن سعيد بن العاص الأموي ، يعرض عثمان بن عفان على الاعتذار
بالنسبة للأموي ، وعلى الخليفة به ، كقوله لعثمان يوم الحديبية^(٢)
أَسْبِلْ وَأَقْبِلْ لَا تَخْفَ أَحَدًا بَنْو سَعِيدْ أَعْزَمْ الْحَرَمْ
وكذلك كان شاعر بني جرم ، أسماء بن ربان بن معاوية الجري
في الخصومة التي كانت بين بني جرم وبين عقبيل على أرض بينهما ،

(١) عزارة البهداء ٤ - ٧٦

(٢) الأصابة في تحيز الصحابة لابن سجر ١ - ١٠

فحين قضى النبي لبني جرم ، كأنّ بني عقيل أسفوا ، فيذكرهم
أسماء بأنه شاعر قومه ، وأنه المدافع عنهم ، ويصوغ هذا في ثوب
دينى فيقول^(١) .

وإذ أخوه جرم كما قد علمت إذا اجتمعت عند النبي الماجموع
فيإن أنت لم تقنعوا بقصائده فلما قال النبي لقسانع
على أننا نكرر معنى لا ينبعى أن يغيب عن أذهاننا ، وهو أن ما قد
نعده متاحد أو هنات على الشعراء المخصوصين ، لو كان في حصر غير
عصرهم ، لكن الأمر أهون وأيسر ، فإن وجودهم في هذا العصر
الشرق من الإسلام ، وفي هذا المجتمع الذى كان خير أمة أخرجت
للناس ، جعل حسابهم أشد ، وميزانهم أدق ، من حيث إنهم كانوا في
في هذا الذى نقله عنهم من الشعر ، خارجين على العرف ، وعلى
مؤلف المجتمع حينئذ .

(١) أسد الماءة في مرقة الصحابة لابن الأثير ١٠٣ - ٥

السياسة

والمراد من هذا الحديث إبراز ما يتصل بالحكم ، وبالقيادة السياسية في المجتمع العربي من شعر المختزمين ، فنقول إن غالبية الجزيرة العربية ، وبخاصة في نجد والمحجاز وتهامة ، لم تكن قبل الإسلام تعرف الخضوع لملك أو قيادة عامة ، وإنما كان رئيس القبيلة أو سيدها هو كل السلطة التي يعرفها أفراد القبيلة ، لا تعلوه سلطة ، ولا تزام زعامته على القبيلة سلطة أخرى ، فلما جاء الإسلام برزت أمم العرب السلطة العامة التي كانت جديدة عليهم ، ورغم مقاومتهم أول الأمر للدين ، فإن شخصية محمد صلى الله عليه وسلم ، جعلت هذه السلطة رغم جدتها وغرابتها على حياة العرب ، مقبولة مستساغة ، لما انفرد به النبي من صفة البوة ، ومن الحق العظيم ، البالغ التكامل ، بصورة يتعذر أن تتحقق في شخصية أخرى ، فهو يشعر كل من يتصل به أنه بالغ القوة والعزيمة ، وفي الوقت نفسه يشعره بأنه بالرحمة واللين ، في بينما تختلي نفسه هيبة من هذه القوة العزيزة ، تختلي أيضاً ميلاً إلى هذه الرحمة الوداعة اللينة ، وهو يشعر كل من يتصل به أنه بالغ العزم والسمو ، وفي الوقت نفسه يشعره أنه بالغ البساطة والتواضع ، في بينما تختلي نفسه إجلالاً لهذه

العظمة ، تقتل ، نفسه حباً وميلاً إلى هذا التواضع وهذا الدتو التفصي وهكذا في كل جانب خلق النبي ، الذي فطره الله عليه ، ليعده لهذه الرسالة الكبرى ، فشخصية النبي بوصفه صاحب السلطة ، فضلاً عن النبوة ، لم تثر في نفوس العرب بعد إسلامهم إلا الحب والتفاق في الولاء له .

ولكن النبي صل الله عليه وسلم بوصفه من قريش ، كان مرتبطة بهذا النسب ، وكان هذا الارتباط مثلاً في نفوس العرب ، وقد ربطوا بيته وبين سيادة قريش ، وسلطانها المنتظر بعد النبي ، وهم إذا طابت نفوسهم بالنبي رسولاً وصاحب سلطان من أي نوع ، فلن تطيب ببساطة قبيلة أخرى ولو كانت قريشاً ، وهم قد لا ينزعون في تفوق قريش ومجدها العربي ، ولكنهم ينزعون في السيادة والسلطان . من جانبها ، وسترى كيف كانت مشاعرهم نحو قريش وسيادتها ، ثم جاءت في حياة العرب بعد النبي ، سلطة الأفراد ، سواء أكانوا أخلاقاً أو ولاء ، وكان هذا جديداً غريباً عليهم في صورته العامة ، وسترى أيضاً كيف كان موقفهم من هذه السلطة . وكذلك نشأت في حياة العرب العربية السياسية ، التي بدأت بين على ومحاورة ، هذه الحرية التي لم تقم أساساً على عصبية قبلية ، أو عصبية الأخلاق ، أو غير ذلك مما تعوده العرب ، وإنما تقوم على الصراع حول السلطة المستمدّة من الدين ، وكل حرب لا يعتمد في عناصره وأفراده على نسب أو عنصر معين ، وإنما مجرد الانتماء القائم على الاقتئاع بوجهة النظر ، أو

المصلحة الشخصية ، وهذه الغزبية بهذه الصورة كانت جديدة غريبة على الحياة العربية ، وسترى موقف الشعراه المخضرمين أرضا منها .

موقعهم من قريش :

كانت قريش في الجاهلية تحمل مكانة مرموقة بين العرب ، وهي إن لم توصت حينئذ بالسيادة على العرب ، فهي على أيسير الفرض تنفرد بدرجة من الإجلال والإكبار من سائر العرب ، ولها أسباب عديدة منها قيام قريش على شتون الكعبية ، ومنها توسطها بين الجزيرة العربية ، في مكان تكاد تلتقي فيه الطرق والقوافل ، ومنها استحواذ قريش على معظم النشاط الاقتصادي للعرب ، وهو التجارة ، وأسباب أخرى ، كلها جعل العرب لا ينكرن على قريش تفوقها وتقدمها عليهم ، وهو اعتراف ليس سهلا في مثل البيئة العربية التي تقوم حياتها على التنافس الشديد بين القبائل ، ونتيجة لذلك كانت قريش أقل القبائل بين العرب أعداء ، ولم تكن بينها وبين غيرها إلا تلك الخصومات الفردية ، أو الناشطة من تعارض المصالح ، فيما تفرضه سنة الحياة .

فلما جاء الإسلام يبدأ العرب يتوجسون من قريش خيفة التسلط عليهم ، وهم لم يتعودوا أن يتسلط . عليهم أحد ، ففى بادئ الأمر كان غير المسلمين في الجزيرة ينظرون إلى شخص النبي صلى الله عليه وسلم على أنه ملك ، فلذلك كان ينظر إليه يهود الجزيرة ، كما يروى في قصة صحفية بشت حبي بن أخطب اليهودية ، زوج النبي ، حين رأت في منامها قبل

ذلك كأن البدر وقع في حجرها ، فلما قصت هذه الرؤيا على بعض أهلها لطمها ، وقال لها : كأنك تحلمين بذلك العرب ، يعني محدثاً صل الله عليه وسلم ، وكما قال أبو سفيان بن حرب قبيل إسلامه للعباس عم النبي ، حين رأى كثائب المسلمين وجيشهم الجرار : لقد أصبح ملك ابن أخيك يا عباس عظيماً .

ثم بدأ العرب جمِيعاً حتى بعد إسلامهم ، يتظرون إلى قريش على أنها وارثة الملك والمجد ، وأنها ستكون في الموضع الذي لا يحيون أن يكون فيه أحد بالقياس إليهم ، وهو موضع القوة والسلطان ، فأخذت هذه العوامل تدور في نفوسهم ، ثم أخذت ألسنتهم تقصص عنها ، ولم يمنع وجود النبي نفسه ، بعض الألسنة من الإفصاح عن هذه العوامل التي بدأت تتحول من التوجس والحذر ، إلى المنافسة والصراع ، ثم إلى العداء والتربص ، فهذا حسان بن ثابت ، يقول والنبي بين أظهرهم في المدينة ، مظهراً استياده من كثرة قريش وعزتها في المدينة ، مهدداً متوعداً ، فمن شعره هذا : (١)

أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا
وابن القرية أمسى بيضة البلد (٢)
قد ثكلت أمه من كت صاحبه
أو كان منتسباً في برشن الأسد
ما البحر حين تهب الريح شامية
فيُعطشل ويمرى البير بالزيد (٣)

(١) ديوان سان ١٦٠ وفيه التلابين وسيرة ابن هشام ٤ - ٧٧١

(٢) البلاجيت لقب كان يطلقه المتأثرون على المهاجرين ويبدو أنه جمع اجمع على غير قياس يعني وافق

(٣) يمثل البير : يركب يمسحه بمسا هائلاً ، والبير يكسر العين وسكنون الياء الشاعطى

يُوْمَا بِأَغْلَبِ مِنْ حِينٍ تَبَصِّرُ فِي
الْمَفِيطِ، أَفْرِي كَفَرِي الْمَارِضِ الْبَرِدِ
أَمَّا قُرِيشٌ فَإِنِّي لَنْ أَسْلِهِمْ^(۱) حَتَّى يَشَبُّوا مِنَ النَّبَاتِ لِرَشْدٍ
وَمَهْمَا تَكُنْ أَسْبَابُ هَذَا الشِّعْرِ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَنِ الْإِحْسَانِ حَسَانٌ
بِأَنَّ قُوَّةَ قُرِيشٍ أَصْبَحَتْ خَطْرًا، وَأَنَّهُ مَغِيطٌ لِهَذَا الْإِحْسَانِ أَشَدُ
الْمَغِيطِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مُسْتَكِينٍ فِي غَيْظَهُ، إِنَّمَا يَضْمُرُ التَّرْبَعَنَ وَالْأَنْقَاضَ
عَلَى قُرِيشٍ مَا أَمْكَنَهُ ذَلِكُ .

وَلَمْ يَكُنْ حَسَانٌ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي يَضْمُرُ هَذَا الشَّعْرَ، وَيَطْلُو
جَوَاحِدَهُ عَلَى هَذَا الْوَعِيدِ لِقُرِيشٍ، وَيَقْصِحُ بِشِعْرِهِ أَوْ بِلِسَانِهِ عَنِ ذَلِكَ
بَلْ يَشَارِكُهُ فِي الْإِضْمَارِ كُلِّ الْمَرْءِ، وَفِي الْإِفْصَاحِ كَثِيرٌ مِنَ الشِّعْرَاءِ
وَقَدْ كَانَ الْأَنْصَارُ أَوْلَى مِنْ أَهْلِنَا بِإِنْكَارِهِ لِقُوَّةِ قُرِيشٍ وَتَسْلِطَتِهِ،
وَاسْتِشَارَهَا دُونَ غَيْرِهَا يَكْلُ ذَلِكَ، وَكَانَ مَوْقِفُهُمُ الْمُتَشَهِّدُ فِي سَقِيقَةِ
بَنِي سَاعِدَةِ، يَحْاولُونَ تَعْبِينَ خَلِيقَةِ مِنْهُمْ لِلنَّبِيِّ، وَهُوَ مَا زَالَ مَسْعِيَ
عَلَى فَرَاشِ الْمَوْتِ لَمْ يَدْفُنْ بَعْدَهُ مَعْلَمَيْنِ فِي هَذِهِ الْمَحاوِلَةِ كُلِّ الْمُسْخَطِ.
عَلَى قُرِيشٍ، وَكُلِّ التَّحْدِيِّ لَهَا، وَتَلَى ذَلِكَ مُبَاشِرَةً بِإِعْلَانِ الْمَرْءِ عَامَةً
تَحْدِيمِهِ أَيْضًا لِقُرِيشٍ، وَذَلِكَ بِأَرْتَادِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ، وَكَانَ مَعْظَمُ
جَهَنَّمَ فِي ذَلِكَ، أَنَّ قُرِيشًا تَفْرُضُ عَلَيْهِمْ جُزِيَّةَ هِيَ الزَّكَاةُ، فَهُمْ
يَرْفَضُونَ الْاعْتِرَافَ أَصْلًا بِالْزَّكَاةِ، مَعَ أَنَّهَا مِنْ صَلْبِ الْإِسْلَامِ وَأَرْكَانِهِ
وَأَنَّ قُرِيشًا تَسْتَأْنِرُ دُونَ غَيْرِهَا بِالشَّمْلِ وَالسُّلْطَانِ، فَهُمْ يَتَمَرِّدُونَ عَلَى
ذَلِكَ، وَيَعْصِمُهُمْ يَسَاوِمُ قُرِيشًا عَلَى الشَّرْكَةِ فِي هَذَا السُّلْطَانِ، كَمَا

(۱) فِي الْبَيْانِ (أَمَّا قُرِيشٌ فَإِنِّي غَيْرُ تَارِكِهِ ...)

فعل مسيلمة الكذاب ، مدعى النبوة في بني تميم ، حيث جعل من قرآنـه الذي ادعى أنه يوحـي إلـيه أن لهم نصف الأرض ، ولقريش نصفـها ، ولكن قريشاً قوم لا يعـدون ، ومن المعـروف أنه لم يثبتـ على الإسلامـ في هذه الـردة غير أهلـ المدينةـ وـمكة .

وقد كان معروـفاً أنـ النبيـ صـلـى اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ كانـ يـضـيقـ بـهـ الكـراـهـيـةـ لـقـرـيـشـ ، وـقدـ أـعـلنـ هـذـاـ فـيـ مـرـاتـ عـلـيـدـةـ ، تـصـرـيـحاـ أوـ تـلـيـحـاـ ، فـمـنـ ذـلـكـ آـنـهـ حـيـنـماـ بـلـغـهـ مـقـتـلـ أـبـيـ عـامـرـ بـنـ وـهـبـ أـبـيـ الـأـسـوـدـ التـقـفـيـ يـوـمـ حـنـينـ قـالـ : أـبـعـدـهـ اللهـ : فـيـانـهـ كـانـ يـبـخـضـ قـرـيـشـ (١) وـمـنـ الـمـشـهـورـ آـنـهـ حـيـنـماـ سـمـعـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ يـتـوـعـدـ قـرـيـشـ ، قـالـ لـهـ أـنـهـوـ قـرـيـشـ وـأـنـهـمـ ؟ قـالـ حـسـانـ : أـسـلـكـ مـنـهـمـ يـاـ رـسـولـ اللهـ ، كـمـ تـبـلـ الشـعـرـةـ مـنـ الـعـجـيـنـ ، وـقـدـ سـمـعـ النـبـيـ عـبـدـ اللهـ بـنـ رـوـاحـةـ يـقـولـ ، مـنـكـرـاـ مـجـدـ قـرـيـشـ :

فـخـبـرـوـنـ ، أـمـانـ الـعـيـاءـ ، مـنـ كـنـتـ بـطـارـيـقـ ، أـوـ دـانـتـ لـكـ مـضـرـ فـظـهـرـ الصـيـقـ عـلـىـ وـجـهـ النـبـيـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، مـنـ جـعـلـ قـرـيـشـ أـمـانـ عـيـاءـ (٢) وـمـنـ السـخـرـيـةـ بـعـدـهـاـ وـكـيـانـهاـ بـيـنـ الـعـربـ ، وـمـنـ جـهـةـ أـخـرـيـ كـانـ النـبـيـ يـظـهـرـ الرـضاـ حـيـنـماـ تـذـكـرـ قـرـيـشـ بـخـيرـ ، كـمـاـ أـظـهـرـ رـضـاهـ مـدـحـ كـعـبـ بـنـ زـهـيرـ لـقـرـيـشـ ، فـيـ قـصـيـدـتـهـ الـمـشـهـورـةـ الـتـيـ أـلـقاـهـ بـيـنـ يـدـيـ النـبـيـ ، وـهـيـ (ـبـاـنـتـ سـعـادـ)ـ حـيـثـ يـرـوـيـ آـنـ النـبـيـ

(١) سيرة ابن شـاشـ ٤٩٩-

(٢) المسند لـابـنـ رـشـيقـ ١٠٢١-

كان حيئش كاته يوميء إلى من حوله أن يسمعوا ^(١) ، ومن الواضح في كل هذا أن موقف النبي لا يمثل تعصباً لقريش ، وإنما يمثل دفاعاً عن قريش والفرق بينهما كبير . ولنـ كـانـ شـعـراءـ الـأـنـصـارـ الـلـاـثـةـ ، حـسـانـ وـكـعبـ وـابـنـ رـوـاحـةـ قد اـتـخـلـواـ مـوـقـعـ الـحـرـبـ الإـعـلـامـيـ الـصـرـيـحـ أوـ الـمـاـبـاشـةـ ، بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ شـعـراءـ قـرـيـشـ الـمـشـرـكـةـ ، فـيـنـمـاـ قدـ اـتـخـلـوـ مـوـقـعـاـ غـيرـ مـاـشـرـ أوـ غـيرـ صـرـيـحـ بـيـنـهـمـ وـبـيـنـ قـرـيـشـ الـمـسـلـمـةـ ، الـمـشـعـلـةـ فـيـ الـمـهـاجـرـينـ ، وـلـكـنـ الـمـاـسـبـاتـ كـانـتـ تـزـيـعـ الـسـتـارـ أـحـيـاناـ عـمـاـ يـضـمـرـونـهـ لـقـرـيـشـ عـامـةـ ، مـشـرـكـيـهاـ وـمـسـلـمـيـهاـ ، حـتـىـ قـامـتـ بـيـنـ الـقـرـيـقـيـنـ خـصـومـةـ نـفـسـيـةـ مـحـدـدـةـ ، كـانـ وـجـودـ النـبـيـ بـيـنـ ظـهـورـهـمـ يـحـولـ دـوـنـ تـفـجـرـهـ ، فـمـاـ إـنـ اـنـتـقـلـ إـلـىـ الرـفـيقـ الـأـعـلـىـ حـتـىـ فـجـرـوهـ تـفـجـيرـاـ . وـمـنـ الـأـحـادـاثـ الـتـىـ بـرـزـتـ خـلـالـهـ هـذـهـ الـخـصـومـةـ فـيـ حـيـاةـ النـبـيـ ، مـاـ يـرـوـيـهـ الـرـوـاـةـ مـنـ أـنـ رـاجـزاـ مـنـ شـعـراءـ قـرـيـشـ الـمـسـلـمـيـنـ ، حـوـ سـلـمـةـ بـنـ الـأـكـوـعـ ، قـالـ رـاجـزاـ سـخـرـ فـيـهـ مـنـ التـسـرـ ، مـنـكـراـ أـنـ يـتـخـذـهـ طـعـاماـ لـنـاقـتهـ ، فـأـحـفـظـ ذـلـكـ الـأـنـصـارـ ، لـشـهـرـةـ الـمـدـيـنـةـ بـالـنـخـلـ وـالـنـمـرـ ، فـطـلـبـواـ مـنـ شـاعـرـهـمـ كـعبـ بـنـ مـالـكـ أـنـ يـرـدـ عـلـيـهـ ، فـقـالـ رـاجـزاـ يـدـافـعـ بـهـ عـنـ مـعـيشـةـ الـمـدـيـنـةـ ، وـمـاـ فـيـهـاـ مـنـ سـكـنـ وـاسـتـقـرـارـ ، مـعـرـضاـ بـمـعـيشـةـ مـكـةـ وـاعـتـمـادـهـ عـلـىـ الـقـفـرـ وـالـخـلـاءـ ، فـبـيـنـمـاـ تـعـلـفـ مـاـشـيـةـ الـأـنـصـارـ فـيـ الـدـوـرـ تـبـيـشـ مـاـشـيـةـ قـرـيـشـ فـيـ الـرـاعـيـ وـالـقـفـارـ ، وـيـرـوـيـ أـنـ النـبـيـ طـلـبـ مـنـهـمـ أـنـ يـكـفـاـ عـنـ ذـلـكـ ^(٢) .

(١) الشـعـراءـ وـلـاـبـنـ زـيـدةـ ١٥٥ـ١

(٢) الـأـنـانـ الـأـصـفـهـانـ ٢٣٠ـ١٦ـ أـخـيـارـ كـعبـ بـنـ مـالـكـ

وقد غلب على قريش لقب سخينة ، وهو طعام كانت تتخذه
قريش حينما يشتتد عليها الجدب ، ويقال إن أول من لقبها به هو
خداش بن زهير ، أحد بنى عامر بن صعصعة من تميم حيث قال :^(١)
ياشدة ما شدتنا غير كاذبة على سخينة لولا الليل والحر
ويظل خداش الشاعر المفترض يهجو قريشاً متجاوزاً خصوصاته
الفردية مع بعض أفرادها ، فيثال من قريش نيلاً موجعاً ، رغم مخالفته
الحقيقة في هجائه ، فهو يصفها بالذلة ، وبالبخل ، وبالسفاهة ،
وبالجهل ، وبأبيح صور المصوحة ، فمن ذلك قوله^(٢) :

أبى لكم أن النقوس أذلة وأن القرى عن واجب الضيف عاتم^(٣)
وأن الحلو لا حلوه ، وأنت من الجهل طير تحتها الماء دائم
ولولا رجال من على أعزه سرقتم ثياب البيت والبيت قائم^(٤)
وحين أفسح العرب عما في نفوسهم من موجودة على قريش ،
ومن إنكار لسيادتها وتسلطها ، وذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
انهالت من أفواه الشعراء قذائف السخط على قريش ، وتلأيب العرب
عليها ، فهذا الخطيب الذي كان في قمة شعراء العرب ، والذي يتعدد
صدى شعره في آرجاء الجزيرة ، يعلن فور وفاة النبي إنكاره لخلافة

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٤٥-٢

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٦٢-٢

(٣) عام : متاخر

(٤) يدعى حل من تميم قبيلة الشاعر يعني أن شرف قريش من قبيلة الشاعر هو ما ينتمي
من مرقة الكتبة

أبي بكر ، مخوفاً العرب من أن قريشاً قد يجعلون الملك ميراثاً فيهم ،
محرضاً لهم أشد التحريض على التصدي لقريش ولسلطان أبي بكر ،
حيث يقول في أبياته المشهورة (١) :

أطعنا رسول الله إذ كان بيتنا
فيما لهفت ما بال دين أبي بكر
أبورثها بكرًا إذا مات يسعده
فتكلك وبيت الله قاصمة الفاجر
فقوموا ولا تعطوا اللثام مقادة
وقوموا ولو كان القيام على الجمر
فدى لبني نصر طريفى وتأدى
عشية ذادوا بالرماح أبي بكر
والحطبية لا يفرغ من ملك أبي بكر للشخصه ، ولا ينكر عليه
 شيئاً للذاته ، وإنما ينكر على قريش كلها ، ويحرص ضد قريش كلها ،
وأصفاً إياها بالمؤمن .

وشاعر بنى الحارث بن كعب ، الملقب بالتجاشي ، كان أووضع
من الخطيبة في سخطه على سلطة قريش من حيث هي ، أيا كان متول
السلطة منها ، فيهجو قريشاً هجاء يجعل الرواة يقرئونه بالدعاية عليه
باللعنة ، فمن ذلك قوله (٢) :

إن قريشاً والإمامية كالآلـى . وفي طرفاًه بعد أن كان أجدعا
وحقّ من كانت سخينة قومه . إذا ذكر الأقوام أن يتقنعـا
ويقول في شعر آخر ما هو أشد تهـيناً لقريش (٣) :

(١) الكامل المبرد - ٢٣٧-

(٢) الشعر والشعراء لأبن قبيـة - ١

(٣) الشعر والشعراء لأبن قبيـة - ١

سخينة هي يعرف الناس لومها قدعا ، ولم تعرف بمجده ولا كرم
في ضيافة الدنيا وضيافة أهلها إذا ول الملك الشناولة الفزعم^(١)
وعهادى بهم في الناس نام ، ومالهم من الحظ . إلارغية الشاعر والنغم

ويحدد شاعر لم تذكر الروايات اسمه ، موضع السخط . على سلطة قريش ، وهي أن قريشاً تستأثر دون غيرها بلدة العيش ، وتسخر العرب لتنقى بهم الملاعيب والمخاطر ، فيتعرضون للناعب والمهلك ، ولو كانت قريش تشاركهم متابعيهم لقبلوا أن يخوضوا معها أشد المخاطر ، فيقول^(٢) :

تولت قريش لذة العيش وانتقت بنا كل فج من خراسان أغيراً
فلدت قريشاً أصبحت ذات ليلة تؤم بنا بحراً من الموج أكسدرا

وأيسر ما تخلل به نفوس العرب ، وتعبر عنه آلسنه شعرائهم ،
أن قريشاً مجرد قبيلة منهم ، مهما يكن شأنها ، فلن يتخollo عن مناقبتها
وعن عدم التسلیم لها بالتعالي والتعاظم ، فضلاً عن التحكم والسلطان ،
ويعبر معاوية بن زهير المازق ، أخوه بي جشم من هوازن ، عن هذه
المناقسة بينهم وبين قريش ، فيقول مخاطباً بعض قريش^(٣) :

أنا الجشعى كيما تعرفوني أبین نسيئى نقررا ينقسر

(١) الشناولة يجز قبيل أو قبيل يكسر الناء الرجل القصر . والفرم يفتح الفات والناء
يسنوى فيه الواحد والجمع يعني صفات الأجسام أداة أدباء

(٢) سهلة أبي تمام ٢ - ٢٢٨

(٣) سيرة ابن هشام ٢ - ٥٥٣

فإن تلك في الغلاصم من قريش فهان من معاوية بن بكر
 فأقسم باللهى قد كأن ربي وأنصاب لدلي الجمرات مُفْسَر
 لسوف ترون ما حسي إذا ما تبدلت الجلود جلود نمر
 ويعبر أيضاً زيد بن صحار السعدي ، من هوازن ، عن الله من
 هزعة المسلمين لهم يوم حنين ، ميديا أسفه على عزتهم التي أرغمتها
 قريش ، بعد أن لم تكن تستطيع ذلك فيقول :
 ألا هل أراك أن غلبت قريش هوازن والخطوب لها شروط ،
 وكنا يا قريش إذا غضبنا يعني من الغضاب دم عبيط ،
 وكنا يا قريش إذا غضبنا كان أثوتنا فيها سعوط
 فأصبحنا تُسْوَقُنا قريش سياق العير يحدوها التبيط ،
 وكون الشاعر ينسب النصر إلى قريش وليس إلى المسلمين ،
 دليل واضح على ما نقول .

ويعبر الأحدث بن قيس التميمي عن ذلك في مجازة مع معاوية بن أبي سفيان ، حين قال معاوية للأحدث : ما الشيء الملفظ في البجاد ؟
 قال : السخينة يا أمير المؤمنين ^(١) وكان الأحدث يعني تلقيب خداش
 ابن زهير قريشاً بسخينة ، أما معاوية فكان يعني ما هجيت به تميم
 قبيلة الأحدث ، من قول الشاعر :

إذا ما ميّات ميّت من تميم فسرّك أن يعيش فجيء بزاد

^(١) المسدة لابن رشيق ١ - ٧٦ - ٧٧

١٠٧
• يخز أو يلهم أو يتصدر أو الشيء الملفت في الجاد (١)
وفهم الأحدث قصد معاوية ، فأراد أن يرد إساءة بإساءة ، فليست
قريش في رأيه خيرا من تميم ، أو ليس من حق قريش أن ترى إلى
تميم ، أو أن تتعال عليها .

موقفهم من السلطان :

من الحق أن يقال إن الموقف في الموضوعات السابقة للشعراء
المخضرمين ، تنسم بالعموم ، أو بالكثرة الواضحة ، سواء فيما يتعلق
بالدين أو الخلق ، أو التحصص القبيل ، أو المشاعر نحو قريش ، أما
فيما تعرض له منذ الآن ، فإن أغلبه لا يوصف بهذا العموم ، أو
هذه الكثرة الغالية ، وإنما هي موقف إما فردية ، وإما ذات قلة ، وهي
بالإضافة إلى ذلك لم تكن ذات تأثير واضح ، ولكنها في كل حال
كانت مسومة مدوية ، وهذا النوع لا يخلو من تأثير ، وإن لم يكن
فعلاً أو خطير الشأن .

والسلطان يعني السياسي ، أو بالمعنى الذي تنتظمه الدول ، كما كان
منذ الإسلام ، لم يكن العرب يعرفونه ، ولذلك تمردوا عليه منذ ظهر
إلى الوجود بينهم ، فما إن تولى أبو بكر الخلافة ، وأحسن العرب أن
هناك سلطانا عليهم ، أيا كان شخص متول هذا السلطان ، حتى تمردوا
عليه في رديم المعروفة ، التي شملت كل العرب ، ما عدا مكة والمدينة

(١) الملفت في الجاد : يزيد به وطيب الدين ، والمعنى أن بين تميم مخصوصون فالتميم تم
شيد إلى طعام حتى إن ميتهم يحيى حين يمسن بوجوده أي شيء من الطعام

وقد رأينا كيف أن الخطابة عبر عن ذلك في قوله (١)
 أطعنا رسول الله إذا كان حاضرا فلها لهفتي ما بال دين أبا يذكر
 أيورثها يكرا إذا مات بعده فتلك وبيت الله قاصمة الظاهر
 ولكن كان الخطابة يعبر عن سخطه على السلطة الذاتية ، دون سبب
 معين يدعو إلى ذلك ، فإن بعض الشعراء كانوا يتخلون من المناسبة
 تعبيراً عمّا في نفوسهم ، كما فعل متمم بن نويرة ، في رثائه لأخيه [٢]
 مالك الذي قتلته خالد بن الوليد عند رجوع جيشه منتصرًا من اليهود ،
 بعد حرب ميسيلمة وبني حنيفة وأحلافهم على مالك أعلم إسلامه ،
 ولكن خالداً ظن به المراوغة فقتلته ، وقد عدها عمر بن الخطاب جرعة [٣]
 من خالد ، فجاء أخوه متمم بن نويرة يستشير المسلمين ضد أبي يكر
 وخالد ، فلأنشد مرثيته الرائعة المؤثرة في جموع المسلمين بالمسجد ،
 وفيها يقول مخاطباً أبي يكر :

أدعوه بالله ثم قتلتـ لو هو دعاك بدمعة لم يفسـدر
 وأشار عندي إلى أبي يكر ، فقال : والله ما دعوه ، ولا قتلتـ (٤)
 ثم واصل متمم محاولة إثارة المسلمين ، فيبعد أن انتهى من انشاد قصيدهـ
 هذه ، إنكـ على قوسـه ، وأخذـ يبكيـ ، وكانـ أعورـ ، حتىـ سالـ الدمعـ
 من عينـه العورـاه .

(١) مزحة الأدب البهادري - ٢٠٨

(٢) الكامل للبرد - ٢٩٩ - ورواية الكامل (ثم غررته) أنا رواية (ثم قتلتـ) في المصادر
 الأخرى وهي أوضح . انظر شرح التبريزى لحاشية أبي تمام - ١ - ٣٣٠ - والمالى لغزال - ٢

وكذلك باي الخلفاء الراشدين ، لم يسلم أحد منهم من ألسنة الشعراء ، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، يناله شعر عمرو بن عبد العزى من بني سليم ، وهو المشهور بباق شجرة السليم ، حيث كان مما قاله أبو شجرة أثناء رحلته :

ورويت رمحى من كتبية خالد وإن لأرجو بعدها أن أعمرا
حيث يروى أن أعمرا يكسر الميم ، يعني أنني رويت رمحى من دماء المسلمين في كتبية خالد ، وأرجو أن أرويه من كتبية عمر ، فلما جاء أبو شجرة إلى عمر ، علاه بالدرة ، فانطلق بناقه نحو قومه ، ثم قال شعراً ينال به من عمر مرة أخرى ، حيث يقول متحدثاً عن ناقته ، وعرضها بمخال عمر وضنه عليها (في أبيات يبدوها يقوله (قد ضنَّ عنها أبو حفص بنائه . . .) (١) وكذلك فعل أمية بن حربان شاعر بني ليث بن بكر ، حيث يهاجم عمر ، بأسلوب ديني ، طالباً منه رد ابنه كلاب من الغزو ، فيقول (٢)
سأستعدي على الفاروق ربسا له عمدة الحجيج إلى بساق (٣)
إن الفاروق لم يردد كلابسا على شيخين ها مهما زواق (٤)
فأسرع عمر برد ابنه إليه ، لا تخوفاً من شعره ، ولئلا تخوفاً من

(١) الكامل للبرد ٤٣٩-١

(٢) المسدة لابن رشيق ١-٨

(٣) بساق يضم إليه جبل بعرفات

(٤) زواق يعني قريباً من الموت .

استدعاء الله عليه . وأما عثمان بن عفان رضي الله عنه ، فكانت له مع ضابط بن الحارث البرجمي قصة مشهورة ، حيث حاول جاهداً أن يقتل عثمان ، حين استدعاه ليؤديه على هجاء شديد إلقاء ، نال فيه من عرضبني جرول ، حيث رمى أحدهم بكلب ، فلما جيء بضابط شد سكيناً على رجله ، ليقتل بها عثمان ، فاكتشف أمره ، فأودعه عثمان في السجن ، بعد أن نال جزاءه على إلقاء ، فظل ضابط يتضرر على أنه لم يتمكن من اغتيال عثمان ، وقال في ذلك شرعاً ، منه :

همت ولم أفعل وكدت ولبني تركت على عثمان تبكي حلاله
وما القتل ما آمرت فيه ولا الذي تخبر من لاقيت أنك قاتله (١)
وفي البيت الأخير يلوم ضابط نفسه على أنه أخبر بعض الناس
بقصته في الفتنة بعثمان ، سواء أكان لإخبار استشارة ، أم مجرد
خبر ، مشيراً إلى أنه لو لم يفش هذا السر لنجع في اغتيال عثمان ،
ومن المشهور أن عميراً بن ضابط هذا رفس عثمان عند مقتله فكسر
له خلبيين .

وأما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، فقد عانى من الشعراء أكثر
وأشد مما عاناه سابقوه من الخلقاء الراشدين ، حيث انحاز عدد غير
قليل من الشعراء إلى صنف معاوية بن أبي سفيان في صراعه مع علي ،
كما سترى .

(١) الكامل تأريخ ٢٢٨-١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣٥٠-١

وبعض الشعراء لم يكن في موقعه متحازاً إلى أحد ، وإنما كان يهاجم لإرضاء لنزعة أو غرض في نفسه ، كما فعل النجاشي الحارثي الذي حاول أن ينال من على ثم من معاوية كليها ، وذلك أن النجاشي بلغ من مجونه وادمانه الخمر أن كان يشربها في شهر رمضان ، وهو حينئذ بالكوفة ، فلما قاتل عليه الحد وبلاه ثمانين جلدة ، ثم زاده عشرين ، فقال النجاشي : ما هذه العلاوة يا أبي الحسن ؟ قال : لجرأتك على الله في شهر رمضان ، ثم شهر به ، فهو النجاشي أهل الكوفة ، وعرض بعلق في صورة الدعاء عليه ، كقوله :

ضربيوني ثم قالوا قدر قاتل الله لهم شر القادر
ثم حاول النجاشي أن ينال بشعره من معاوية بن أبي سفيان ،
مذكراً الناس بقصة تفكير معاوية في التجاة بنفسه ، والهروب على فرسه أثناء القتال مع على ، ومع أن معاوية لم يتقد ما فكر فيه من الهرب ، إلا أن النجاشي جعل من مجرد التفكير حقيقة وحدثاً واقعاً ،
فيقول : ^(١)

ونجيُّ ابن حرب سايح ذو علاله أجيش هزيم الرماح دواف ^(٢)
وهذا شاعر آخر كان أشد سفوراً في هجومه على معاوية ، وأشد صراحة في تحدي ملكه ، وإنذاره بالوعيد ، وهو عقبية بن هبيرة

(١) الشعر والشعراء لأبن تكية - ١ - ٣٤٠ وما يليها

(٢) العلاله يضم الين بقية جرى الفرس يعني أنه يختلط مقوته إلى النهاية في الجرى ، والأجيش ، والهزيم الشديد الصوت ، وداوى يعني دائمة قريبة

الأَسْدِي ، الَّذِي وَقَدْ عَلِيَ مَعَاوِيَةَ فِي خَلَاقَتِهِ ، لَا مَادِحًا وَلَا مُسْتَجْدِلًا
عَطَاءَ كَمَا يَفْعَلُ الشُّعَرَاءُ التَّكَبِّيُونَ ، وَلَا هَاجِيَا نَاقِمًا كَمَا يَفْعَلُ
الشُّعَرَاءُ التَّعْصِيُونَ لِأَقْوَامِهِمْ ، أَوْ الْمُوْتَوْرُونَ فِي تَفَوُضِهِمْ ، وَلَا مُشَوْهِدًا
أَوْ مُخْلِلًا أَوْ مُنْفَرًا كَمَا يَفْعَلُ الشُّعَرَاءُ التَّمَازِجُونَ إِلَى فَرِيقٍ آخَرَ ، إِنَّما
ذَهَبَ لِيُلْعَنَ سَخْطَهُ عَلَى أَسْلُوبِ مَعَاوِيَةِ فِي الْحُكْمِ ، وَعَلَى جُورِ أَتَيَابِهِ
وَأَقْارِبِهِ ، وَاحْتِكَارِهِ لِكُلِّ شَيْءٍ ، وَاسْتِبَادِهِمْ بِكُلِّ شَيْءٍ ، وَاصْطِنَاعِهِمْ
لِأَسْوَاءِ الْأَمْرَاءِ وَأَرَادِلَهُمْ ، ثُمَّ هُوَ يَهدِي مَعَاوِيَةَ بِجُنُودِ تَبَعِيهَا جَنُودٌ ، مِنْ
قَوْمِهِ بَنْيَ أَسْدٍ ، قَبْيلَةٌ طَلِيْحَةُ الْأَسْدِيِّ مَدْعَى النَّبْوَةِ ، وَقَدْ كَتَبَ عَقِيبَةَ
شِعْرَهُ التَّالِقَ الدَّوْعَى فِي رَقْعَةِ دَفْعَهَا إِلَى مَعَاوِيَةَ ، وَمِنْ هَذَا الشِّعْرِ قَوْلُهُ :
مَعَاوِيَ إِنْشَا بَشَرَ فَأَسْجَحَ فَلَسْنَا بِالْجَبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ
فَهَبْنَا أَمَّةً ذَهَبَتْ ضِيَاعًا بِزِيدِ أَمْرِهَا وَأَبْوَ يَزِيدِ
أَكْلَمَ أَرْضَنَا فَجَرَدَ تَمَوْهَا فَهَلَ مِنْ قَاتِلٍ أَوْ مِنْ حَصِيدٍ^(۱)
أَنْطَمَعَ فِي الْخَلْوَةِ إِذَا هَلَكْنَا وَلَيْسَ لَنَا وَلَا لَكَ مِنْ خَلْوَةٍ ؟
ذَرُوا خَوْنَ الْخَلَافَةِ وَاسْتَقِيمُوا وَتَأْمِيرُ الْأَرَادَلِ وَالْعَبِيدِ^(۲)
وَأَعْطُونَا السُّوَيْدَةَ لَا تَسْرِكُمْ جَنُودَ مَرْدَقَاتِ بِالْجَنُودِ^(۳)
فَدَعَا مَعَاوِيَةَ عَقِيبَةَ ، فَقَالَ لَهُ : مَا جَرَأْكَ عَلَى ؟ قَالَ : نَصَحتُكَ
إِذْ غَشْوُكَ ، وَصَدَقْتُكَ إِذْ كَانْبُوكَ ، قَالَ : مَا أَظْنَكَ إِلَّا صَادِقاً ، ثُمَّ
أَرْضَاهُ وَقْضَى لَهُ مَا يَرِيدُ^(۴)

(۱) يَعْنِي أَكْلَمُهُمْ كُلَّ مَا يَعْلَمُ الْأَرْضُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهَا قَاتِلَ وَلَا حِصَدَ.

(۲) شَرُونَ الْخَلَافَةِ يَعْنِي امْرَأَجَلِ الْحُكْمِ

(۳) السُّوَيْدَةُ : يَعْنِي أَعْطُونَا الْأَسَاطِ أَيْ سَعَنَا وَالْأَهْجِنُوكَ جَنُودُنَا الْمَوَالِيَةِ

(۴) مِنْزَانُ الْأَدْبِ الْيَهْدَى ۲۶۰-۲ وَمَا يَمْدُهُ وَفِيهَا أَنْ عَقِيبَةَ مُخْضَرٌ عَلَى الْأَرْجُعِ

موقفهم من الولاة :

عرفت عن كثير من الشعراء في هذه الحقبة نزعة إلى مصادمة الولاة، وعدم الاستكانة إلى سلطانهم ، أو الوفاق معهم ، إما لأن السلطان كان غريباً على نفوسهم ، وإما لخيبة أمل في العطاء ، وإما لأسباب أخرى ، ومن هؤلاء الشعراء عتبة الأسدى السالفى الذكر ، الذي أوجع أبي بردة ابن أبي موسى الأشعري بشعره ، فذهب أبو بردة إلى معاوية يشكوا عتبة ، قال معاوية : وماذا قال لك ؟ قال : هجاني بقوله (فما أنا من حُدَّاث أُمك بالضحي) قال معاوية : ليس من حُدَّاثا ، قال أبو بردة وقال لي (ولا من يزكيها يظهر مغيب) قال معاوية : ولكن الله ورسوله والمهاجرين والأنصار يزكينا ، وكانت تخدم الرسول صلى الله عليه وسلم . قال : وقال لي (وأنت أمرُّ في الأشعررين مقابل) قال معاوية صدق ، قال : وقد قال لي (وفي البيت والبطحاء حقٌّ غريب) قال معاوية : صدق ، ليس لك في البيت ولا في البطحاء حقٌّ ، قال أبو بردة : أفتندع على هنا يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما قاله لي أشد ، وقرأ له الأبيات السابقة .

ومن هؤلاء الشعراء عتبة بن مرداس المعروف بابن فسوة ، والذي كان الولاة يعطونه مجرد الخوف من لسانه ، فلما أتى عبد الله بن عباس وكان واليا على البصرة لعل بن أبي طالب أن يرخص للخوف من لسان عتبة ، ومنع عنه العطاء ، ثم زجره مذكراً لزياد بما يصدر عنه من عصيان وبيان ، تحفظ لهجاء ابن عباس ، ورغم توصل الحسن بن

على ، وعبد الله بن جعفر إلى عتبة ، واسترضاته عن ابن عباس ،
فإن عتبة هجا ابن عباس ، ومع محاوته أن يخفف من الهجاء ، وإن
يتحاشى الإقداع ، فإنه أتهم ابن عباس بالبخل ، وبالظلم ، وبتجادل
الرعاية ، بل بإهمال الحكم والعدل ، فاتته بمحاباة أصهاره في زهران
وبغير ذلك ، وكان بعض هذا تصريحًا ، وبعضه تلميحا ، ومن ذلك
قوله ^(١)

أبىت ابن عباس فلم يقض حاجى . ولم يرج معروق ولم يخشن منكري
حُبست فلم أنطق بعد لجاجة . وسد خصاص البيت من كل منظر ^(٢)
وحيث وأصوات الخصوم وراءه . كصوت الحمام في القليب المدور ^(٣)
فلو كنت من زهران ليس حاجى . ولكنى مول جمبل بن معسر
ولعتبة هذا أخبار كثيرة مع الولاة ، في خوفهم من لسانه ،
وانتقامهم شره .

والشاعر أنس بن أبي أنس المؤذن ، يعلم أن مصعب بن الزبير
أمهى لعائشة بنت طلحة ألف ألف درهم في زواجه بها ، فينكر هذا
الإسراف ، بينما هناك جنود تبيت جياعا ، فيتووجه إلى عبد الله بن
الزبير ، شاكراً ومنكراً ، ومذكرًا بأنه لو كان عمر بن الخطاب حيا
لارتاح من مثل هذا المسلك ، فيقول ^(٤) :

(١) الأغاني للأصفهان ٢٢-٢٨-٢٩ وما يليها

(٢) الخامس : الشفوب والمنظار مكان المنظر

(٣) القليب البذر والمدور بعد المدور

(٤) الشعر والشعراء لأن ثانية ٢-٢٩٨

أبلغ أمير المؤمنين رسالته من ناصح لك لا يزيد خطه
بُضع الفتاة بآلف ألف كاميل وتبثت سادات الجنود جياعها
لو لأبي حفص أقول مقالتي وأقص شأن حديثكم لارتفاعها
والغيرة بن الأسود الأسود المشهور بالأقىشر ، يشهد مطر بن
ناجية اليربوعي ، يخطب على منبر الكوفة ، حين أغاره قومه بنو تميم
على خلح واليها ، والاستيلاء عليها ، فيذكر الأقىشر هذه الولاية ،
ويهجو بنى تميم جميعاً فيقول^(١) :

أبنى تميم ما لنبر ملككم لا يستقر وعدده يتمرر^(٢)
إن المابير أنكرت أستاهكم فادعوا خزينة يستقر المنبر^(٣)
خلعوا أمير المؤمنين وبايعوا مطرا ، لعمرك بيعة لاظهر
ومن هؤلاء الشعراء عبد الله بن همام السلوى ، الذي سأله أن
يتولى قيادة الشرطة في الكوفة شخص يدعى الفلاقيس ، ولله الحارث
ابن عبد الله بن أبي ربعة وهو أبو شو عمر بن أبي ربعة المخزوبي ، فيقول
ابن همام^(٤) :

أقل على اللوم يا ابنة مالك وذى زماننا ساد فيه الفلاقيس
واسع مع السلطان ليس بناصح

(١) الشر والشراء لأن قيبة ٦٦٠-٢

(٢) يتصرّف ، يضطرب

(٣) الاست : الأزداف وخزينة يعني تراثها

(٤) الشر والشراء لأن قيبة ٢ - ٦٥١

فهو يسخط على الزمان الذي يسود فيه مثل هذا الشخص ، ويتم القلاقل بأشد ما يحاج به من في مثل موضعه ، يهجو بخيانته سلطانه والمنروض أنه حامي هذا السلطان ، ويهجو بأنه لمن ينتهي أن يحرس منه ، بينما هو الحارس .

ومن هؤلاء الشعراء عمرو بن معد يكرب ، وقد هاج أبناء ربه فروة بن مسيك المرادي ، الذي ولاد النبي صلى الله عليه وسلم على قبائل من اليمن ، فكان من هجاء عمرو بن معد يكرب إياه^(١) :

وَجَدْنَا مُلَكَ فِرْوَةَ شَرِّ مَلَكٍ حَمَاراً سَافَ مُتَخَرِّجَ يَتَفَسَّرُ
وَكُنْتَ إِذَا رَأَيْتَ أَبْنَاءَ عَمِيرَ تَرَى الْحُولَادَ مِنْ خَبَثٍ وَغَذَرِ
وَشَبَّابَ بْنَ عَمِيرَ بْنَ كَرْبَابَ الَّذِي كَانَ مِنْ قَطَاعِ الْطَّرِيقِ ، يَبْدِي
خَوْفَهُ مِنْ شَرْطَةِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، وَمِنْ سَجْنَهُ الَّذِي بُنِيَّ فِي ، الْكَوْفَةِ
وَسَمَاهُ مُخِيَّسًا ، وَبِرَوْيِ شَبَّابِ أَنَّهُ مَا إِنْ حَلَّ أَبْنَى شَبَّابِ اللَّذِينَ
وَجَهُوهُمَا أَبْنَى طَالِبَ إِلَيْهِ ، يَبْحَثُانَ عَنْهُ ، حَتَّى رَكِبَ فَرَسَ الْعَصَمَا
وَانْطَلَقَ بِهَا هَارِبًا ، ثُمَّ يَقُولُ^(٢) :

وَلَا أَنْ رَأَيْتَ أَبْنَى شَبَّابَ بِسَكَةَ طَيْءٍ وَالْبَابَ دُونِي
تَجَلَّتَ الْعَصَمَا وَعَلِمْتَ أَنِّي رَهِينٌ مُخِيَّسٌ إِنْ أَدْرِكُونِي
وَلِوَ أَنِّي لَبَثْتَ لَهُمْ قَلِيلًا لَجَرْوِي إِلَى شَيْخِ بَطِينِ^(٣)

(١) سيرة ابن هشام ١٠٠٥-٤

(٢) شرح حمامة أبي تمام للطبريزى ٢٥٢-١

(٣) بطين : كبر البطن صفة الإمام على

شديد مجتمع الكثفين بـ ساق على الحدثان مختلف الشئون^(١)

موقفهم من الحزبية :

لأول مرة يعرف العرب حزبية لا تقوم في كلا طرفيها على نسب أو تعصب يتعلق بالقبيلة والعنصرية في البيئة ، وإنما تقوم على محض الاتجاه السياسي ، وذلك حينما تتشظى الخلاف والصراع بين على معاوية ، فقد كانت الحزبية قبل ذلك تنبئ على النسب ، وما يرتبط به من وسائل الحلف والجوار ، ونحو ذلك ، فيكون معلوماً حينئذ أن هذا الحلف يضم هذا النسب من القبائل ، ومن يرتبط بها ، وذلك الحال يضم هؤلاء ، وهكذا ، ولكن الصراع بين على معاوية ، تكون منه حربان ، لا يتسمى أفراد كل حزب إلى نسبة أو عنصر معين ، وإنما يضم أشخاصاً مختلفين في النسب ، أو البيئة ، أو العنصر ، فقد يكون بعضهم قحطانياً ، وبعضهم عدنانياً ، وقد يكون بعضهم عربياً وبعضهم فارسياً ، وبعضهم رومياً ، أو غير ذلك ، ولا يجمجمهم بعد الإسلام إلا شيء واحد ، هو الوجهة السياسية التي يعتقدونها ، سواء أكانت وجهة التحصّب لعل ، أم لمعاوية ، وقد يقال إن العرب عرفوا هذه الحزبية الشاملة بالإسلام نفسه ، في صراع المسلمين مع المشركين وعكن أن يجاذب عن ذلك ، بيان هذه ليست حزبية وإنما هي عقيدة ، ولكن كان اعتمادها في بادي الأمر اختيارياً ، فإن الفرد بعد اعتماده هذه العقيدة يكون بالضرورة متبعاً إلى إخوانه في هذه العقيدة ،

(١) الحدثان يعني أحداث الدرر وأنه أقوى منها و مختلف الشئون يعني يتصرف في كل الأطوار

ومنحازاً إليهم ، أما في الحزبية السياسية عامة ، فإن الانتماء والانحياز إلى حزب معين اختياري ، وليس انتشارياً ، وحيثنا هنا منصب على الحزبية السياسية ، وليس على الانحياز أو التجمع الديني .

على أن هنا الحديث قد يجر إلى سؤال آخر ، وهو أن يقال :
ألا يعد الخلاف أو الصراع بين على ومعاوية دينياً ؟ يعني أن كل فريق يحاول أن يستند موقفه بالدين ، متحاجاً بأن الحق معه ، وأن الطرف الآخر يريد أن يسلبه حقه ، أو يزاوجه فيه ، مؤيداً دعوه بما يتيسر لديه ، أو بما يستطيع أن يقوله من نصوص القرآن الكريم أو الحديث النبوى ، وبهذا ، ألا يعتبر هذا الصراع دينياً ؟ ويجب عن ذلك بيان الخلاف لا يعبر دينياً إلا إذا كان في الدين نفسه بوصفه عقيدة أو تشريعاً ، فإذا اختلف شخصان أو فريقان ، في فهم العقيدة أو الشريعة ، يقال إن خلافهما ديني ، أما الخلاف بين على ومعاوية ، فمع كل ما سبق فيه من حجج أو اجتهادات دينية ، فإنه كان بعيداً عن العقيدة ، وعن الشريعة نفسها ، وكان محصوراً في الخلافة وتولي السلطة ، وقد كان في كل فريق جماعة من صفة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من لا يستطيع المساس بهم في عقيدتهم ولا في سلوكهم ، وحينئذ لا يكون من البسيط الحكم على فريق - من الناحية الدينية - بأنه على باطل ، وإن جاز ذلك من الناحية الدينية والناحية السياسية ، والبطidan عندئذ لا يكون مقابلاً للحق إنما يكون مقابلاً للصواب أو نحوه يعني أنه يمكن أن يقال إن أحد الطرفين محق في اجتهاده ورأيه ، والآخر مخطئ أو غير محق فيه ، ولكننا في

حديشتا هذا لست في حاجة إلى إثارة هذا المعنى بهذه الصوره لأننا لا نتحدث عن الفرقين جميعهما ، وإنما عن طائفة منها هي طائفة الشعراء ، والشعراء المخضرين بالذات ، من حيث إنهم موضوع الكتاب ، والشعراء كما سبق تميزوا بطابع معين ، كانوا فيه عامة مخالفين – قليلاً أو كثيراً – للاتجاه العام للمجتمع الديني الإسلامي ، وكانوا يصفون عامة أقرب إلى الجاهلية منهم إلى الإسلام .

ومن أدلة ذلك أن الأنصار كانوا في جملتهم منحزين بقولهم وسيوفهم إلى علي ضد معاوية ، باختبار أن عليا هو الخليفة الشرعي ، الذي بايعه المسلمون ، وأن معاوية خارج عليه ، وكان مقتنعى هذا أن يكون شراء الأنصار كذلك ، منحزين إلى على بقولهم وأسلفهم ولكلهم كانوا على العكس من ذلك ، ضد علي بقولهم وأسلفهم ، فقد كان حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن واحدة والنعمان بن بشير ، وعبد الرحمن بن حسان بن ثابت ، يعلدون خصومتهم لعل ، وتعصيهم لبني أمية ، باشاد ما يستطيع الإعلان والتعصب ، وقد حاور على بن أبي طالب حسان بن ثابت ، وكعبا والنعمان ، ليقتضيهم عوقبه ، ولكن إصرارهم العنيف العنيف على موقفهم لم يزدهم إلا تشبثاً وإصراراً على خصومتهم له ، وقد خاق على بذلك وخلى تأثير شعرهم في المسلمين ، من حرمه ، فطلب منهم أن يرحلوا عن المدينة ، فرحلوا إلى معاوية ، فلُسّن عليهم من عطایاته السخية [١]

وولي النعمان بن بشير على حمص ^(١)

(١) الأغان للأستهان ١٦ - ٢٢٣

ومن شعر كعب بن مالك الذي يهجي به الشار لعثمان ، ويحمل دمه
عليه وأصحابه كما يدعى معاوية ، ثم يظهر الشهادة في وقوع الشقاق
بين أتباع علي بن أبي طالب بوصفه خليفة بايعه المسلمين ، وكان
ينبني ألا يختلفوا في الولاء له ، فمن ذلك قول كعب^(١) :

كُف يديه ثم أغلق يابسه وأَيْقَنَ أَنَّ اللَّهَ لِيَسْ بِغَافِلْ
وقال مَنْ فِي دَارِهِ لَا تَقَاتِلُوا عَفَا اللَّهُ عَنْ كُلِّ اُمَّرَىءٍ لَمْ يَقَاتِلْ^(٢)
فَكَيْفَ رَأَيْتَ اللَّهَ صَبَّ عَلَيْهِمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَخْضَاءَ بَعْدَ التَّوَاصِلِ
وَكَيْفَ رَأَيْتَ الْخَيْرَ أَدْبَرَ عَنْهُمْ وَوَلِ كِادِبَارِ النَّعَامِ الْجَوَافِلِ^(٣)
ولا شك أن مثل هذا الشعر سيكون له صدى عميق في النفوس
وإثارة عنيفة في القلوب ، ففضلاً عما للشعر من أثر في نفوس العرب
فإن صدوره من شاعر يوصي بأنه شاعر الرسول ، أو أحد ثلاثة
عرفوا للمسلمين جميعاً بأنهم شعراء الإسلام ، وشعراء الرسول ،
حسان ، وكعب ، وأبي رواحة ، صدوره من مثل كعب ، ثم كونه
يتحذى من عثمان بن عفان أحد صفة المسلمين ، وصفة خواص
النبي ، موضوعاً للخطب عليه ، كل ذلك لا بد أن يملأ نفوس بعض
المسلمين تأثيراً بالعطاء على موقف عثمان وحزب معاوية ، وبعضهم
إشقاقاً وحنراً من الإثارة والتآليب

(١) الأناطي للأصنفهاني ١٦ - ٢٢٣

(٢) يتحدث في البيتين الأوليين عن عثمان ورفقه قتال التائرين به

(٣) فالبيتان الآخرين يشتمل في عل بن أبي طالب وأصحابه

وموقف الشعراء المخضرمين من هذه الحرية. كان نواة خصبة لمن تلام من الشعراء ، في جيل التائعين ، ثم من ولهم ، حيث انتهى الصراع إلى تكوين حزبين ثابتين ، أحدهما يمثله العلويون ، والآخر الأمويون ، ثم حل العباسيون محل العلويين ، أو كانوا فرعاً من هذا الحزب ، بعد قيام الدولة العباسية ، فبعد أن كان الولاء كله للعلويين يصففهم رمزاً للبيت الهاشمي ، أصبح بعد قيام الدولة العباسية شعراء يتحدون باسم العباسيين ، وشعراء باسم العلويين ، لأن الخصومة السياسية نفسها بين العلويين والأمويين ، انتقلت فأصبحت بين العلويين وال Abbasiens حين اندر كيان الأمويين بالشرق فلم تصير لهم قوة يتكون منها حزب سياسي يطالب بالحكم ، وإنما أصبح الصراع المقدم حينئذ ، بين العلويين وال Abbasiens ، ولكن الذي يعني هنا ، هو ما يتعلق بالشعراء المخضرمين ، وارتباطهم بهذا الحديث ، أن موقفهم من الحرية السياسية كان نواة لمن ولهم من أجيال الشعراء^(١) وتصحح الحديث عن موقف شعراء الأنصار من الحرية بين عل وعاوية ملحوظة لا ينبغي أن تمر دون الوقوف عندها ، وهي أن نتسائل : لماذا شد شعراء الأنصار عن قومهم في موقفهم ؟ فلماذا كان الأنصار بقلوبهم وسيوفهم مع على ، حتى إنه لم يشهد صفين مع معاوية لـ«من الأنصار إلا النعمان بن بشير»^(٢) وهو أحد شعراهم ، أما سائر مقاتلي الأنصار ، فكانوا مع على ، ثم ينفرد شعراء الأنصار بهذا

(١) انظر في الأدب الجاهلي د . مه حسين ١١٦ - ١٦٨

(٢) انظر المصدر السابق ١٤٥

الموقف الشاذ عن موقف قومهم ، فيكونون في حمام شديد ، مؤيدين
لعاوية ، ومخذلين عن علي مثيرين لشاعر المسلمين عدفا على عثمان
في قتله ، تعريضاً لأن علياً وصحبه هم الذين أسلموه إلى القتل ؟
ويمكن أن يجاب عن ذلك بأن الأنصار يصدرون في موقفهم عن نزعة
دينية ، هي الولاء لل الخليفة الذي بايعوه ، والذي يعتقدون أنه على
الحق في موقفه من هذه الخصومة ، أما شعراء الأنصار ، فإنما
يصدرون عن النزعة الجاهلية التي سيطرت على عامة الشعراء المحسنين
والتي جعلتهم مشدودين إلى ما ألقوا في الجاهلية ، وقد ألقوا فيما
ألقوا في الجاهلية هذه العصبية المنصرية أو القبلية ، وقد تجلت هذه
النزعة في هذا التناحر القديم بينقططانية والعدنانية ، فشعراء
الأنصار وهم نقططانيون لا ينسون أن قريشاً هي عنوان العدنانيين ،
وعلى بن أبي طالب عنوان قريش ، ثم إن الدين ، وما أقامه من صلة
الأخوة بين المسلمين ، لم يجعل شعراء الأنصار ينسون أن قريشاً احتمهم
في مجدهم ، فاستتبته ، وبعد أن كانوا أعزراً يشرب وما حولها خيل إليهم
أئمأ أصبحوا مسودين ومحكمين لقريش ، وليس لسلطان الإسلام ،
بالاضافة إلى عوامل أخرى كلها ينتهي إلى جنور الجاهلية ، كل ذلك
جعل شعراء الأنصار يصيرون نعمتهم على العدنانية ، وعلى قريش
فحثوب على بن أبي طالب ، ولم يكن لهم من منفعت حينئذ إلا أن
ينحازوا إلى صف معاوية بتائبيهم وألسنتهم كما كان حسان وعبد الله
ابن رواحة وكعب بن مالك وعبد الرحمن بن حسان ، الذين ظلوا
بموقفهم وألسنتهم ضد علي ، ولم يشاركوا معه في حرب ، تأييدها

لعاوية باللسان والسيف ، كما فعل النعمان بن بشير ، الذي شارك مع معاوية بسيفه في صفين ، ولم يشترك معه يومئذ أحد من الأنصار كما سبق .

أما المؤيدون على كرم الله وجهه من الشعراء المخضرمين فكانوا كثرة ، وكانوا من قبائل مختلفة ، فكان منهم شعراء من مزينة ، على رأسهم كعب بن زهير ، الذي كان مشهوراً بآله علوى ، وكان يتوأم بهم الناس عن رواية شعره الذي يفهم منه التحيز على كعبه القصيدة الطويلة الرائية التي يصدرها الرواة بأنّ بنى أمية كانوا يمنعون من روایتها ، ومن إضافتها إلى شعره معا ، ولذلك أستقطعها الرواة من ديوانه ، وإنما أضافها الشراح الحاذثون إلى ديوانه ، بعد نقلها من مصادر أخرى متفرقة ^(١) . وكذلك معن بن أوس المزني ، الذي كان معروفاً بانحيازه إلى بنى هاشم عامة ، وله في ذلك أشعار تناقلها الرواة ^(٢) ، ومن البديهي أن الانحياز إلى بنى هاشم في هذا الصراع بينهم وبين بنى أمية ، وبخاصة إذا كان بأسلوب إعلامي كالشعر ، يعني أنه ضد بنى أمية .

ومنهم من بنى عامر بن صعصعة النابغة الجعدي ، الذي نال شهرة وشرفًا بين الشعراء المخضرمين ، بسبب دعاء النبي له ، ورضاه عن بعض شعره ، حين أتىه النبي قصيده الرائية المشهورة

(١) انظر شرح ديوان كتب ٤٥١ وما يليها والملقة من (٣)

(٢) انظر مزاد التصيس للعباسي ٢٦٤

الى تبلغ نحو مائة بيت ، والى أظهر النبي رضاه عن بعض معانيها
كقوله :

ولا خير في حلم إذا لم يكن له بوادر تحمي صفوه أن يكتروا
ولا خير في جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا
قال النبي : لا يفصم الله فالك . وكان النابغة حين احتم
الخلاف بين علي وعاوية من أشد المתחمسين لنصرة علي ، حتى إنه
خرج في جيش على إلى صفين ، والنابغة شيخ موغل في الشيخوخة ،
ففرع عاوية ، لا من سيف النابغة ، وإنما من شعره ، ومن شهرته
بين المسلمين ، بعد دعاء النبي له ، فكتب عاوية إلى مروان ، فاستولى
على ماله ، وحبس أهله ، فأطلق النابغة شعره على عاوية موعداً ومهدداً
ومنه قوله :

من راكب يك ابن هند بمحاجي على النَّابِيِّ والأَبْيَاءِ تُنْعَى وَتُجَلِّبُ
فَإِنْ تَأْخُذُوا أَهْلَيْ وَمَالَ بِظَانَةِ فَإِنَّ الْأَحْرَارَ الرِّجَالَ مُجْرِبَ
صَبُورَ عَلَى مَا يَكْرَهُ الْمَرْءُ كُلَّهُ سُوَى الظَّلْمِ، إِنْ ظَلَمْتَ سَأَغْضُبُ
وَقَدْ اشْفَقْتُ عَلَى نَفْسِهِ، وَعَلَى حَزِيبِهِ مِنْ غَضْبِ النَّابِغَةِ الَّذِي
يَنْدَهُ بِهِ، فَأَمْرَ عَالِمَهُ أَنْ يَرْدُ عَلَى النَّابِغَةِ كُلَّ شَيْءٍ أَخْنَهُ وَقَدْ صَرَحَ
عَوْاَيْهُ بِخَوْفِهِ مِنْ شَعْرِ النَّابِغَةِ، حِيثُ اسْتَشَارَ مَرْوَانَ فِيمَا يَصْنَعُ بَعْدَ
تَهْدِيَ النَّابِغَةِ، قَالَ مَرْوَانَ: أَرَى أَلَا تَرْدُ إِلَيْهِ شَيْئًا، وَلَكِنْ عَوْاَيْهُ

يقول : ما أهون عليك أن يقطع على عرضي ، ثم ترويه العرب ، أما والله إن كنت لمن يرويه^(١)

ومن شعراء بني يميم المخضريين كان نهشل بن حربى ، الذى كان من بيت يتسم ذرورة الشرف فى قومه ، وكان أخوه مالك ، وأبواه حررى ، ثم جده ضمرة ، سادة قومهم على التوالى ، وكان نهشل وقومه من أخلص أنصار على ، وكانت لهم راية خاصة فى جيش على بصفين يحملها مالك أخوه نهشل ، وكان نهشل ضمن هذا الجيش ، وله مرات كثيرة فى أتجيه مالك الذى قتل يومئذ ، ولكن الروايات لم تورد لنا شعراً لنهشل فى تأييد على ، أو تحذيل معاوية ، اللهم إلا ما يتصف به حول هذه الحرب بينهما ، وكيف كان صبر قومه فيها ، وقد شغل الرواة عن تشبع موضوعات شعر نهشل لعجبهم بشعره فى الفخر الذى يفيض حماساً ، والذى يصور معانى بالغة الإلداع والجمال فى هذا الفخر ، كقوله^(٢) :

إنا لمن معاشر أفنى أولئكـ قيل الكمة : ألا أين المحامون^(٣)
لو كان فى الآلاف من واحدـ قدعواـ من عاطـ من خالهم إيهـ يعنيـ^(٤)
وليس بهـكـ مـنـ سـيـدـ أـبـدـ إـلـاـ اـنـتـلـيـنـاـ غـلامـ سـيـدـ فـيـنـاـ
وـمـنـ الـعـرـوـفـ أـنـهـ لـمـ يـكـنـ هـنـاكـ سـلاحـ أـمـضـيـ وـأـنـفـدـ وـأـعـنـ جـرـحاـ

(١) غزارة الأدب البدادى - ٣ ١٧١ وما يليها

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٣٨-٢

(٣) المحامون المدافعون . الكتابة : الأسطال

(٤) العاطف الذى يسلط أى يرجح فىكر على الاعداء

من الشعر ، فكم من قبيلة هزمت في حرب ، أو توالى عليها هزائم ،
فلم يكن ذلك سبة لها ، طالما كانت صامدة مدافعة ، ولم تكن تلك
الهزائم لتطاوطئ من رهون أبناء القبيلة ، طالما كانت سيوفهم يأيدهم
بأن كانت من مفاخرهم أن تخنهم الجراح ، وأن ترتوى من دمائهم
السيوف ، وأن تخنيهم الآلة وقراع الحماة ، كمارأينا في فخر
نهشل الأذن الذكر ، ولكن بيتا واحدا من الشعر ، كان يمكن أن
يخفض الرعوس العزيزة ، وأن يرفع الرعوس الخفيفة ، كما رفع
الخطيبة أذن بني أذن الناقة ، بعد أن كانت رعوسم تتحنى عجلة
من هذا القلب ، بقوله :

قوم هم الأذن والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الذئبا ؟
وكما يخضن حسان بن ثابت رهون بني الحارث بن كعب بعد
أن كانوا يশمخون بقاماتهم المدينة ، بقوله :

لا عجب بالقوم من طول ولا عظم جسم البغال وأحلام المصافير (١)
وكذلك كانت أهمية الشعر ، وخوفهم من تأثيره ، بالقياس إلى
قريش عامة ، وإلى حزب علي ، أو حزب معاوية ، أو بني هاشم أو بني
آمية ، ونضرب لذلك مثلا ، الرماح بن أبىد النبیان ، الشاعر
المشهور بابن ميادة وهى أمها ، الذى قال فيما قال من شعر :
فضلنا قريشا غير رهط محمد وغير بني مروان أهل الفضائل (٢)

(١) انظر المثال شواهد كبيرة في هذا المعنى في المدة لابن رشيق ٤٠ وما يليها

(٢) فضلنا يفتح القاء والصاد عطفه يعني كنا أفضل من قريش

مفضلاً أهل بيته على قريش ، لا يستثنى منها غير بنى هاشم رهط النبي ، وبنى مروان أصحاب الحكم ، فتناوله ابراهيم بن هشام منكرا عليه أن يفضل قومه على قريش ، وجمله بالسوء . من أجل ذلك ، ومن جهة أخرى أنكر عليه الوليد بن يزيد الأدوى أن يقدم رهط محمد في الترتيب على بنى مروان ، وأنبه من أجل ذلك تأثيرها شديدا ، ثم ظل هذا البيت من الشعر عالقا بذهن الطوفين ، مثيرا لاهتمامهم ، حتى ولـ الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي ، فأظهر رضاه عن ابن مياده لتقديمه بنى هاشم على بنى مروان ، وسائل أبو جعفر ابن ميادة عن قصته مع الوليد^(١) .

(١) الواقع للأستهانى ٢ - ٣٠٢ وما بعدها و ابن مياده ليس مخسرا ولكن الاستشهاد بالقصة لبيان أهمية الشعر في مجال المزية . انظر مخازنة ليهادى ١ - ١٥٠ وما بعدها

الشواعر المخضرمات

لم يحظَ جيل شواعر قطٍّ من المجد الأدبي، بفضل ما حلّى به جيل المخضرمات، فقد أتيح لهذا الجيل من الشواعر عوامل لم تتحقق في صورة ظاهرة لجيل آخر، وكان من هذه العوامل ظهور شخصيات بارزة موهوبة من نساء هذا الجيل، جمعت بين الشاعرية ومواهب أخرى كثافة الشخصية، أو التأثير في مجتمعها إلى صورة ومن هذه العوامل وجود الأحداث الكبرى التي أحدها الإسلام في المجتمع العربي، فاتسح لبعض النساء أن يرتقبن بهذه الأحداث، ومن هذه العوامل قرب هذا الجيل من زمن الثوارين، ومصاحبته لجيل الرواة الذين حفظوا لنا تاريخ الأدب، فيما حفظوا من أخبار وروايات شخصيات بارزة:

١ - الخنساء:

فمن الشخصيات البارزة الموهوبة في هذا الجيل، شخصية الخنساء، التي يتفق رواة الأدب ونقاده على أنه لم تكن قبلها ولا بعدها امرأة كانت أشعر منها، بل لدينا روايات [كثيرة غير معروفة] فيها، توحى بزاحمة الخنساء لتحول الشعراء من الرجال، فمن المشهور أن النابغة الديباني الذي كان حكماً بين الشعراء في سوق

عكاظ ، حين أشدهه الخنساء ، قال : لو لا أن أبي بصير أشدني
قبلك لقلت إنك أشعر من بالسوق ، ويعني بأبي بصير أشع
قيس ، ويروى أن جريرا كان يفضلها على نفسه ، فيقول حين يسئل
من أشعر الناس : أنا لو لا الخنساء ، ويروى أن عدي بن حاتم الطائي
حين قدم على النبي صلى الله عليه وسلم ، قال يا رسول الله ، إن قينا
أشعر الناس ، وأسخن الناس ، وأفرس الناس^(١) قال : سمهـمـ ،
قال عدي : أما أشعر الناس فامرؤ القيس بن حـجـر ، وأما أسخن الناس
فحاتم بن سعد - يعني آباء - وأما أفرس الناس فعمرو بن معد يكربـ
قال رسول الله : ليس كما قلت يا عدي ، أما أشعر الناس فالخنساء^(٢)
بنت عمرو ، وأما أسخن الناس فمحمد - يعني نفسه - وأما أفـرسـ
الناس فعلـيـ بنـ أـبـيـ طـالـبـ ومنـ الرـوـاـيـاتـ المشـهـورـةـ أنـ النـبـيـ كانـ يـظـهـرـ
رضـاهـ عنـ شـعـرـهـ ، فـكـانـ يـسـتـشـدـهـ ثـمـ يـسـتـزـيدـهـ قـائـلاـ :ـ هـيـ
يـاـ خـنـاسـ^(٣)ـ وـالـبـرـ يـقـولـ :ـ كـانـتـ الـخـنـاسـ بـثـلـثـةـ فـيـ شـعـرـهـ ،ـ
مـتـقـدـمةـ لـأـكـلـ التـحـولـ^(٤)

فقد كانت الخنساء اذن موهبة شعرية فريدة بين النساء على
طول التاريخ وعرضه ، وكانت موهبة متميزة بين الشعراء عامة تراجم
تهمـمـ ، وتنافسـ فـحـولـهـ ، وـكـانـتـ فـوـقـ ذـلـكـ مـشـهـورـةـ بالاعتدادـ
يـنـفـسـهـاـ وـبـأـيـهاـ ،ـ وـقـدـ أـعـانـهـاـ عـلـىـ ذـلـكـ نـشـأـتـهاـ وـمـعـيشـتـهاـ فـيـ بـيـتـ جـمـعـ

(١) لا يـبـيـاهـ طـيـ وـأـلـيـ النـبـلـ التـحـطـانـيـ الـيـمـنـ ؛ـ وـالـنـبـلـ سـاـمـعـ عـلـىـ يـتـسـونـ إـلـيـ التـحـطـانـةـ

(٢) مـرـاجـةـ الـادـبـ الـيـخـادـيـ ٤٤ـ١ـ

٢٧٩ـ٢ـ

(٣) الـكـاملـ الـبـرـ ٢

كل مقومات العزة في المجتمع العربي ، ومقومات العزة كانت تمثل في ثلاثة ، السيادة ، والفروسيّة ، والشعر ، وقد حظى بيتهما وبيت زوجها من هؤلاء بالتصنيف الأولى ، فقد كان أبوها عمرو بن الشريد من سادة القوم وفرسانهم وكان زوجها مردادس السلمي من سادة القوم وفرسانهم ، وكان ابنها أو ابن زوجها - حسب اختلاف الروايات - العباس بن مردادس من سادة القوم وفرسانهم ، ومعظم هؤلاء كانوا من الشعراء ، وبعضهم كان من أبرز شعراء عصره كالعباس بن مردادس ومن آثار صلابتها ، وقوة إرادتها أنها أصرت على حضور معركة القادسية بنفسها ، ومعها بنوها الأربعة ، فأخذت تحرضهم على المساللة في القتال حتى استشهدوا جميعاً وهم يرتجون شعراً حماسياً فلما سمعت بموتهم لم تظهر جزعاً ولا اضطراباً ، وإنما قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربِّي أن يجعلني بهم في مستقر رحمته ، فكان عمر رضي الله عنه يعطيها عطاءً أولاً دادها الأربعة بعد موتهم ^(١) .

ومن المشهور أن موت أخيها لأبيها صخر ، الذي كان شديد البر بها ، والذي كان يتحلى بصفات كثيرة من الشجاعة والفروسيّة والسيادة والجود ، هو الذي أطلق شاعريتها ، وكان سبباً مباشرأ في أن أحلها هذه المنزلة الشعرية الرفيعة ، ذلك لأنها وقفت حياتها على رثائه حتى ماتت ، ولم يحظ بهذه الأهمية منها أخوها الشقيق معاوية ، الذي

(١) خزانة الأدب البغدادي ٤٣٨-١ الشعر والشعراء لابن قتيبة

كان لا يقل عن صخر شجاعة وفروسيه وسيادة وجودا ، ولكنه كان
 أقل منه برا بها وعطها عليها ، ومع أن هذا الوضع مشهور متفق عليه
 في طول العصور ، إلا أنها لو تأملنا شعرها في رثائها لأخيها الشقيق
 معاوية ، لوجدناه على قوله يقيض حنانا وصدق عاطفة ، وعمق حزن ،
 ومع أن الحكم ينبع على الذوق والإحساس قبل القواعد النقدية
 المتعارف عليها ، فإن شيئا من عمق التأمل ، لا يلتوى في إظهار أن
 رثائهما معاوية من حيث العاطفة ومشاعر الحزن ، كان أعمق وأشد
 تأثيرا في النفس ، وإن كان رثاؤها لصخر من حيث اللح وتعديله
 المكارم ، أعلى وأشد إبرازا لأمجاد صخر ، فضلا عن الكثرة
 المستفيضة في هذا الشعر ، ونستطيع أن نأخذ مثالين لما نقول ،
 فأولهما هذه القصيدة وهي من أشهر مراثيها لصخر ، وفيها تقول (١)
 أعيني جسدا ولا تجمستا ألا تبكيان لصخر الندى
 ألا تبكيان الجرىء الجميل ألا تبكيان الفقى السيدا ؟
 طويل التجاد رفع العم اد ساد عشرته أمردا
 إذا القوم ملوا باليدهم إلى المجد مدد إليه يسدا
 فصال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
 يكفله القوم ما عالم وان كان أصغرهم مولدا
 ترى الحمد يهوى إل بيتها

(١) الكامل المبرد ٢٨٠-٢

الشعراء المختصر مون - ٦٧٧

وهكذا لا تجد في القصيدة أبعد من تعداد المآثر والمكارم ، ولا تجاد النساء تخذل في هذا عن شاعر لا تربطه بسخر قرابة أو صلة يزيد أن يربّيه ، وأن يعدد للناس صفاتي ومحارمه ، ولكننا حين نذهب إلى شعرها في رثاء أخيها الشقيق معاوية ، على قوله ، وعلى قوله ماقبها من سرد الصفات ، وتعداد المكارم ، نحس فيه مشاعر الحزن وعمق العاطفة ، كقولها :

أريقي من دموعك واستفيقي وصبرا إن أطقت ولن تطيق
وقول إن خير بني سليم وفارسها بصحراء العقيق
ألا هل ترجمَ لنسا الليالي وأيام لنا يلوى الشقيق
فلا والله لا تسلك نفسى لفاحشة أتيت ولا عسوق
ولكنى رأيت الصبر خيراً من التعلين والرأس الحليق (١)

فهي لم تعتمد في رثائها هذا على تعداد المكارم ، وإنما على إبراز مشاعر الحزن العميق الدفين ، الذي لا تبالغ في إبرازه كما تفعل في رثاء صدر ، وإنما تبالغ في كتمانه وإخفائه وكان حزتها على صدر يحتاج إلى إظهاره والإعلان عنه ليعلم الناس ولكن حزتها على معاوية بلغ من ظهوره هذا يحتاج إلى كبحه ومقاومته ولننظر إلى مدى تأثير قولها وهي تخاطب نفسها ، متذرجة في هذا الاختصار التفصي بين إرادة الدفع والاقامة منه ، وبين إطاعة الصبر ، وعدم إطاقته حيث تقول :

(١) العلان كانت تصرُّ بما المرأة خديها في المصاب الشديد وحال شعرها تمير من فداحة المصاب بهن تقول وجدت الصبر خيراً من هنا كله

أريقي من دموعك واستيفقني ... وصبراً إن أهلكت ولن تطيقني
ولننظر إلى هذه الإثارة النفسية العجيبة في الحزن ، حين تبرز
صورة معاوية وهو قتيل مجندل على صحراء العقيق ، فليس في هذا
 مدح ، ولا إشادة بمحنة كما تفعل في رثاء صخر ، وإنما هو إبراز
لشاعر الحزن العميق البسيط ، لأنه تعبير صادق ، تكفي فيه
البساطة ، دون حاجة إلى تكلاف أو مبالغة أو تصوير ، ولننظر إلى
إهاجتها لذكريات الأشواه والطفولة وهذا الأنس الطويل الذي أطلقه
الليالي ، وأقله هنا الوادي من لوى الشقيق حيث يقول :
ألا هل ترجعن لنا الليالي وأيام لنا بلوى الشقيق
ويمكن أن يقال إن ما يميز نظرة الخنساء إلى صخر زيادة عن صلة
القرابة ، هو الإعجاب والوفاء ، الإعجاب بصفاته العديدة ، والوفاء
لبره وأنعمه العديدة عليها ، ومنها ما ترويه الروايات ، من أن زوجها
كان مسرفاً مثلاً حتى أعدم ، ففقدت على أخيها صخر فقايسها ماله
وأعطتها خيراً القسمين ، ثم تكرر هذا مرتين بعد ذلك ، فظل هذان
التبنان ، الإعجاب والوفاء ، يفيسان على لسان الخنساء من شعرها
حتى ماتت ، ويمكن أن يقال إن ما يميز نظرة الخنساء إلى معاوية ، هو
غريبة الحنان الطبيعي ، بين الأخ وأختها الشقيق ، هذا الحنان
الذى علاً قلبها عطفاً وحنيناً في الحياة ، ولوحة وفجيعة في المصاب ،
فعين قتل معاوية انفجر في قلبها هذا النبع الحنون العطوف ، لذلك
لم يكن غريباً أن نجد رثاعها لصخر ، يحمل طابع المدح وتعداد

ال الكريم ، وهذا ما يستطيعه شاعر ولو لم يكن أخاً لصخر ، وأن نجد رثاءها لمعاوية يحمل هذا الحنان والحب النابع من رابطة الدم الشقيق وهذا ما لا يستطيع أن يعبر عنه بصدق إلا الأخ الشقيق ، وهذه الملحوظة وإن لم تعتمد على غير اللونق ، فإن أظنهما من الوضوح بحيث لا تلتفت على من ينتمي الإحساس به ، ويمكن من يريد أن يتابع هذه الملحوظة أن يقول : إن كثرة رثائهما لصخر ، وبمايتها في إظهار حزتها عليه ، دليل على عدم عمق هذا الحزن ، أو عدم ثباته ، وكأنها بهذه البالغة ترويد أن ثبت شيئاً لا تؤمن من شأنه ، لأنه لو كان ثابتاً لم يكن في حاجة إلى إثبات ، أما حزتها على معاوية فهو حقيقة تملأ نفسها قوة وثباتاً ، فهي ليست في حاجة إلى إثبات أو تأكيد ، وليس غريباً أن يوجد هذا القول من ينكره ويتأيده عليه ، وقد لا يعد من الأسباب ما يقتضيه به ، بل هذه إحدى ميزات الأدب ، أن تختلف فيه الأذواق ، وأن تختلف حوله الشاعر ، لأن مرجع الأدب الأول أو الأصل ليس العقل ، أو ليس العقل وحده ، وإنما اللونق والإحساس والوجدان ، ولكن كان الناس جميعاً لا يخلون عادة من من اللونق والإحساس ، فإنهم يتفاوتون في ذوقهم وإحساسهم ، كما يتفاوتون في كل صفاتهم ، وفي كل أرزاقهم ، ونضطر إلى ترك هذه النقطة لكونها ليست من صلب الحديث .

وأهم ما يعنينا الآن من هذا كله ، أن نعلم أن الخنساء موهبة شاعرية فريدة بين النساء ، وأنها موهبة فلذة تراجم فحول الشعراء وأعلامهم ، ولا يشكر عليها أن تتتفوق على كثير منهم .

٤ - هند بنت عتبة :

وكذلك كانت من الشخصيات القدّرة في تاريخ النساء كله هند بنت عتبة ، ولكن تركت قوة النساء في شاعريتها ، فقد تركت قوة هند في شخصيتها ، ولكن كانت النساء في شاعريتها قد تفوقت على كل النساء ، ونافست قوم الرجال ، فإن هنداً كانت كذلك في موطن قوتها وهو الشخصية ، فقد انفردت بين كل النساء بهذه الشخصية القوية التي تفرض تقديرها واعتبارها على الأولياء والأعداء على السواء ، وقد احتفظت بقوة شخصيتها في الجاهلية والإسلام أيضاً على السواء . ومع أنها وقفت من المسلمين موقفاً وكانت شديدة الإيلام لهم ، بتمثيلها بحمة أسد الله ، حيث شوهت جسده بعد استشهاده في أحد ، وبقررت بظنه ، ولاكت كبده ولم يعرف الفضب في النبي صل الله عليه وسلم ، كما عرف يومئذ حينما رأى عمه بهذه الشلة ، حتى أقسم لمن أظهره الله على قريش ، ليمثلن بثلاثين منهم وقال : ما وقفت موقفاً أغبيظ في من هنا ، ولكن الله الذي فطره على الخلق العظيم ، يرده إلى طبيعته من الحلم والصفح الجميل ، حيث ينزل له قرآننا يتلى (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولكن صبرتم فهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولاتنك في ضيق مما يعکرون ، إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنوون)^(١)

(١) انظر سورة النحل وانظر ميرة ابن حشام ٣ - ٦٦١ وما يليها

وَمَعَ أَنْ صَوْتَ هَنْدِ كَانَ مِنْ أَقْوَى الْأَصْوَاتِ الْمُدْوِيَةِ وَالْمُؤْثِرَةِ فِي تَأْلِيفِ قَرِيشِ ضَدِّ الْمُسْلِمِينَ ، وَمَعَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ مِنَ الطَّبِيعِ أَنْ يَجْعَلُهَا مَوْضِعَ كُراَاهِيَّةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَجْعَلُهَا مَوْضِعَ الْإِزْدَرَاءِ أَوِ التَّفْوِيرِ وَفَرْقٌ كَبِيرٌ بَيْنَ الْكُراَاهِيَّةِ وَالْإِزْدَرَاءِ ، فَقَدْ كَانُوا يَنْتَظِرُونَ إِلَيْهَا عَلَى أَنْهَا خَصْمٌ قَوِيٌّ عَنِيدٌ مُشَيْرٌ ، وَمِنْهَا يَبْلُغُ الْعَنَادُ ، أَوْ تَبْلُغُ الصَّلَابَةَ ، فَإِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ لِيَحْطُ . مِنْ قَدْرِ الْخَصْمِ فِي نَفْسِهِ ، طَلَّا كَانَ أَسْلُوبُهُ فِي الْخُصُومَةِ عَادِيًّا مَأْلُوفًا ، لَا يَنْزَلُ إِلَى إِلْسَافِ أَوِ الْأَمْتَهَانِ وَلَا شَكَ أَنَّ أَسْلُوبَ هَنْدِ عَلَى تَعْرِفَهُ ، وَعَلَى بِشَاعَةِ يَعْسِنِ ، لَمْ يَكُنْ مَسْفَاً وَلَا مَحْتَقِرَاً ، بِخَلَافِ أَسْلُوبِ أُمِّ جَمِيلِ حَمَالَةِ الْحَطَبِ ، فِيمَا كَانَتْ تَتَعَرَّضُ بِهِ الشَّخْصُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ إِيمَانِ تَحْمِلَهُ النَّفْسُ ، سَوَاءً مَا كَانَتْ تَلَقِيهِ بِيَدِهَا مِنْ قَادِرَاتِ الْأَرْضِ ، أَوْ بِلِسَانِهَا مِنْ قَدْرِ الْكَلَامِ ، لَذَلِكَ لَمْ تَحْظُ . أُمِّ جَمِيلٍ بِمَجْرِدِ الْكُراَاهِيَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَإِنَّمَا كَانَ أَهْمَّ مِنَ الْكُراَاهِيَّةِ الْأَحْتَقَارُ وَالتَّفْوِيرُ ، وَقَدْ سُجِّلَ الْقُرْآنُ صُورَةً مِنْ هَذَا ، فِي سُخْرِيَّةِ بَالِغَةِ مِنْ أُمِّ جَمِيلٍ ، لَمْ يَبْلُغْ بِلِفَاهَا وَصَدَّ أَوْ هَجَاءَ لِأَمْرَأَةٍ^(۱) .

وَلَكِنَ الشَّيْءُ الَّذِي يَلْفَتُ النَّظرَ فِي شَخْصِيَّةِ هَنْدِ ، أَنَّهَا حِينَ أَذْعَنَتْ لِلْإِسْلَامِ وَآمَنَتْ بِهِ ، لَمْ يَهْدُّ أَعْنَفَهَا ، وَلَمْ يَسْتَكِنْ جَمْوحُهَا ، بَلْ ظَلَّتْ عَنِيدَةً فِي إِظْهَارِ قُوَّتها ، وَالشَّبَيْثَ يَعْنَادُهَا ، وَكَانَتْ تَلَكَّ سَمَّةً غَيْرَ مَأْلُوفَةً ، سَوَاءً فِي الَّتِينِ دَخَلُوا إِلَيْسَلَامٍ بِيَمَانِ عَمِيقٍ ، أَوِ الَّتِينِ

(۱) فِي سُورَةِ الْمُدَدِّ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ : وَانْظُرْ فِي تَحْمِيلِ هَذِهِ السُّخْرِيَّةِ كِتَابَ أَسْلُوبِ السُّخْرِيَّةِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْوَلِتْ .

دخلوه إسلاماً وإذعنوا متهملين ريشما تستضيئ قلوبهم بالإيمان ، أو
الذين دخلوه وهم يقدمن رجلاً ويؤخرون أخرى ، فأولئك جميعاً
خضعت نقوسهم لِلإسلام ، وأذعنوا في استكانة واضحة ظاهرة ،
كما فعل زوجها أبو سفيان بن حرب ، الذي كان من أبرز سادات
قريش والعرب عامة ، فلما دخل الإسلام استكان خاضعاً ، سواء
أكانت استكانته عن اطمئنان قلب ، أم مجرد الأذعان ريشما يتسرّب
النور إلى قلبه ، حتى إن عمر بن الخطاب حينما شكا إليه المسلمين
في مكة أن بعض جدار أبي سفيان ينبع عليهم مسفل الماء ، أتى عمر بابي
سفيان ، وأخذ يأمره أن يرفع حجارة الجدار حجراً حجراً ، وأبيو
سفيان يمثل مطعى ، فلما فرغ ، رفع حر يديه إلى السماء قائلاً :
الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبي سفيان في عقر داره فيطع ، ولم
تصدر من أبي سفيان خلال إسلامه مراجعة أو مصادمة لأمر فقط ،
أما هند بنت عتبة ، فإنها وإن لم تعلن عصيانتها أو غرداً ، فإنها كانت
مصرة على إعلان عنادها وإبراز شخصيتها في أي صورة ، وبائي
أسلوب ، كما قالت عند مبادعه النبي صلى الله عليه وسلم للنساء فما
يروى (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فرغ يوم فتح مكة من
بيعة الرجال ، أخذ في بيعة النساء ، وهو على الصفا ، وعمر بن
الخطاب أسفل منه يبايعهن بأمره ، ويبلغهن عنه ، وهند بنت عتبة
امرأة أبي سفيان متقدمة متذكرة خوفاً من رسول الله أن يعرّفها ، فقال
عليه السلام : أبا يعكل على ألا تشرّك بنا بالله شيئاً ، فرفعت هند
رأسها ، وقالت : والله لقد عبدنا الأصنام ، وإنك لتأخذ علينا أمراً

ما رأيتك أخذته على الرجال، تباعي الرجال على الاسلام والجهاد^(١) ، فقال عليه السلام) ولا يسرقون . (فقالت إن أبي سفيان رجل صحيح ، وإني أصبت من ماله هنات ، فما أدرى أتحل لـ أم لا ؟ قال أبو سفيان : ما أصبت من شيء فيما مضى ، وفيما غير فهو لك حلال ، ففسحك النبي وعرفها ، فقال لها : وإنك لهند بنت عتبة ؟ قالت : نعم ، فاعف عما سلف يا نبي الله عفا الله عنك ، فقال : (ولا يزنين) قالت هند : أو تزني الحرة ؟ قال عليه السلام (ولا يقتلن أولادهن) قالت هند : ربناهم صغارا ، وقتلتهم كبارا فأئتم لهم أعلم ، وكان ابنتها حنظلة بن أبي سفيان قتل يوم بدر ، ففسح النبي عمر حتى استلقى ، وتبرس رسول الله ، ثم قال : (ولا يأتين بهتان) قالت : والله إن البهتان لأمر قبيح ، وما ثامرنا إلا بالرشد ، ومكارم الأخلاق ، فقال (ولا يعصينك في معروف) قالت : والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء . . . (٢) فلم تكن هند تشير في نفوس المسلمين إلا ما يتغير الخصم القوى الكريم حين يخاصم ، والخصم القوى الكريم حين يخضع وينعن ، وكل ما يمكن تصوره في نفوس المسلمين ، هو ما تشير إليه قهقهة عمر من شماتة بها ، أو نحوها من ذلك ، وكذلك لم يهدى من النبي صلى الله عليه وسلم نحوها ما يدا منه نحو وحشى قاتل عمده حمزة ، ف مما يروى

(١) تمنى هذه أن النبي لا يغنى على الرجال العودة إلى الشرك فيما يبايعهم على الاسلام والجهاد وكانت يعني من النساء الشرك قبليهن على الايشركت باقة شيئا

(٢) تفسير الكشاف للزمخشري ٤١٦-٤ آنف مذكورة المختصر

أن وحشيا حين جاء إلى النبي مسلما ، قبل إسلامه ، ولكنه لم يطع رؤيته ، وقال له : هل تستطيع أن تغيب وجهك عن ؟ فلم يره بعدها ^(١) ذلك لأن أسلوبه لم يكن أسلوب الخصم المواجه المعلن ، كما كان أسلوب هند ، ولا أسلوب المقاتل المبارز كما يفعل الخصم الشريف في قتاله ، وإنما كان أسلوب الخائن الفادر المستخفى .

وقوة الشخصية صفة لازمت هنا منذ عرفها الناس ، وظهرت هذه القوة في كل موقف من بها ، ومن ذلك موقفها في ثيمة الخيانة التي رميت بها أثناء حياتها مع زوجها القاتل ، قبل أبي سفيان ، فقد صمدت متحدة قوية حتى شئت برائتها ، وكذلك في كل موقفها ، بل كان أسلوب حياتها يتمس بهذه القوة ، وتظهر فيه خصائص شخصيتها ، وكذلك كانت في تربيتها لأولادها ، فقد رأى بعض سادة العرب ابنتها معاوية بن أبي سفيان ، وهو يومئذ غلام صغير ، فرأى فيه سمات الشبوغ والزعامة . فقال : ليسودن هذا الغلام قوسه ولكن هنا استنصرت هذا الهدف قائلة : نكلته إن لم يسد غير قوته . وقد أعاد هنا على ثنية القوة في شخصيتها ، وعلى مزاولة هذه القوة وإبرازها ظروف نشأتها وحياتها ، فقد نشأت في بيت من أعرق بيوت قريش والعرب ، في بيت عبد شمس أخي هاشم ، ثم كانت لأب من أكبر سادات قريش ، هو عتبة بن ربيعة ، ثم عند زوج من أكبر سادات قريش والعرب ، هو أبو سفيان بن حرب ، ثم ولدت

(١) سيرة ابن هشام ٢٩٥ وفى رواية (ويجعل غيب عن وجهك فلا أرى لك)

سيدا من أكبر سادات العرب ، حتى قبل أن يكون خليفة ، هو
معاوية بن أبي سفيان .

وأما عن تحريضها ضد المسلمين فقد كان صوتها كما يليق
من أقوى الأصوات دويًا وتأثيرا ضد المسلمين ، وبخاصة في نحو
ثلاث سنوات ، منذ مقتل ابنها حنظلة ، وأبيها عتبة يوم بدر
إلى أن أسلمت يوم فتح مكة ، وعلى وجه أخص في وقعة أحد ، فقد
كانت هذه من أشد المحرضين والمدبرين للحرب في أحد ، قبل أن
تشجع قريش إلى المسلمين في عقر دارهم قرب المدينة ، ثم كانت هذه
عصافة مدوية مثيرة أثناء القتال في أحد ، وما من رواية عن أحد ،
إلا وهند في صلبيها ، ذلك أن هندا تزعمت جماعة من نساء قريش
وأخذت تحرض قومها على قتال المسلمين ، بالذوق حينا ،
وبالتأنيب حينا ، وبالرجز حينا آخر ، ومعها هؤلاء النساء ، ومن رجزها

وهيأ بني عبد العزير وهيأ حماة الأديسار
شربا بكل بشار

ومنه أيضا تخاطب قومها بلسان من معها من النساء : (١)
إن تقبلوا نعائق ونفترش التمارق
أو تدبّروا نفارق فراراً غير وامق

(١) تاريخ الطبرى ٢٩٦-٣٠٥ وسيرة ابن هشام ٤٨٨-٤٨٩

وقد تعرضت هند يومئذ للقتل ، لولا شهادة أبي دجابة وترفعه ، وقد اجمعـت روایات أحد على هذه القصـة ، وهي أن أبي دجـابة سـماك ابن خـرشـة الـأنـصارـي ، الـذـي كان مـشارـاً لـأعـجابـ في شـجـاعـته وـسـائـته وـكانـ له طـابـ قـرـيدـ في القـتـالـ ، وـكـانـ له عـصـابـ حـمـراءـ ، فـإـذا عـزـمـ علىـ هـذـاـ الطـابـعـ منـ القـتـالـ عـصـبـهاـ عـلـىـ رـأـسـهـ ، فـيـقـولـونـ : لـقـدـ لـيـسـ أـبـوـ دـجـاجـةـ عـصـابـةـ الـوـتـ ، ثـمـ يـقـاتـلـ فـلاـ يـشـيـتـ أـمـامـهـ أـحـدـ ، وـلـاـ يـلـقـيـ أـحـدـ إـلـاـ قـتـلـهـ ، وـقـدـ قـدـمـ النـبـيـ صـلـلـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ سـيـفـهـ إـلـىـ الـسـلـمـيـنـ قـالـلـاـ : مـنـ يـأـخـذـ هـذـاـ السـيـفـ بـحـقـهـ ؟ فـقـامـ إـلـيـهـ رـجـالـ مـنـ الـسـلـمـيـنـ ، مـنـهـمـ الزـبـيرـ بـنـ العـوـامـ بـنـ عـمـ النـبـيـ ، وـمـنـ أـبـرـزـ شـجـاعـانـ الـعـربـ ، فـأـسـكـهـ النـبـيـ عـنـهـمـ ، حـتـىـ قـامـ إـلـيـهـ أـبـوـ دـجـاجـةـ يـقـولـ : وـمـاـ حـقـهـ يـاـ رـسـولـ ؟ قـالـ : أـنـ تـضـرـبـ بـهـ حـتـىـ يـتـحـىـ ؟ قـالـ : أـنـ أـخـذـهـ ، فـأـعـطـاهـ لـيـاـهـ ، ثـمـ يـرـوـيـ الزـبـيرـ بـنـ العـوـامـ أـنـ نـفـسـهـ ضـاقـتـ بـرـفـضـ النـبـيـ لـأـعـطـاءـ السـيـفـ ، ثـمـ يـعـطـيهـ لـرـجـلـ لـاـ يـعـرـفـ الزـبـيرـ عـنـهـ شـيـئـاـ ؛ فـيـقـولـ : إـنـ تـبـعـتـهـ لـأـرـىـ مـاـ يـصـنـعـ ؟ وـلـيـرـىـ مـاـذـاـ آثـرـهـ النـبـيـ بـسـيـفـهـ ؛ فـإـذـاـ أـبـوـ دـجـاجـةـ يـعـصـبـ رـأـسـهـ بـعـصـابـهـ الـحـمـراءـ ، وـإـذـاـ هـوـ يـخـتـالـ مـزـهـواـ بـبـيـنـ الـجـيـشـيـنـ ، فـيـقـولـ النـبـيـ : هـذـهـ مـشـيـةـ يـمـعـضـهـ اللـهـ إـلـاـ فـ هـذـاـ الـوـطـنـ ، ثـمـ يـقـاتـلـ أـبـوـ دـجـاجـةـ ، فـلـاـ يـلـقـيـ أـحـدـ إـلـاـ قـتـلـهـ ، وـلـاـ يـشـيـتـ أـمـامـهـ شـيـءـ ، يـقـولـ الزـبـيرـ : ثـمـ رـأـيـهـ قـدـ حـمـلـ السـيـفـ عـلـىـ مـفـرـقـ هـنـدـ بـنـتـ عـتـبةـ ، ثـمـ رـفـعـهـ عـنـهـ ، وـيـرـوـيـ أـبـوـ دـجـاجـةـ عـنـ هـلـيـهـ الـجـادـةـ

فيقول (رأيت إنسانا يخمن الناس خمسا شديدا)^(١) فقصدت له
فلم حملت عليه السيف وأول ، فإذا هي امرأة ، فاكبرت سيف
رسول الله أن أضرب به امرأة (٢) ولم يقل هذا من عزم هند ، ولم
يطنق ، أجيج لوعتها على قتلها في بدر ، فأخذت ومعها صاحبها
يثنان بالقتل من المسلمين يقطعن ويجد عن الآذان والأتواف ، حتى
أخذت هند من هذه الآذان والأتواف قلائد وحلبا ، ثم عمدت إلى
ما عمدت إليه من التمثيل بحمرة رضوان الله عليه ، ثم علت على
صخرة مرتفعة ، وأخذت تتشمت في هزيمة المسلمين بمثل قولها :

نحن جزءناكم بيوم يسرى وال Herb بعد الحرب ذات سُفر
ما كان عن عبة لـ من صبر ولا أخى وعده وبكرى
شفيت نفسي وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدرى
فشكرا وحشى على عمرى حتى ترمى أعظمى في قبرى
وقالت أيضا (٣) :

شفيت من حمرة نفسي بأحد حتى بقررت بعنه عن الكبد
أشهد على ذلك ما كنت أجد من لذة العزن الشديد المعتمد
ومثل شمائه هذه لابد أن تكون مؤلة لل المسلمين ، في هذا
الوقت المصيب الذي هنوا فيه بهزيمة مرة ، وقدوا فيه أبطالا من

(١) المثل هو القرب في الوجه

(٢) سيدة ابن هشام ٤٨٨-٣

(٣) سيدة ابن هشام ٣-٦٠٧ وما يليها

اعتز بهم الإسلام ، كمحمزة ، ولذلك يروى أن عمر بن الخطاب طلب من حسان لأن يرد على شماته هند ، قائلًا : لو سمعت ما تقول هند ، ورأيت أشرها قائمة على صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بمحمزة ؟ قال حسان : أسمعني بعض قولها أكتفكموها ، فلأشدك عمر بعض شعرها يومئذ ، فرد عليه حسان بقصيدة راثية ، منها :

أشرت لکاع وكان عادتها لوما إذا أشرت مع الكفر
وبلغ غيط . حسان من هند ، أن لجأ إلى الفحش والإلذاع في هجائه
إليها ، حتى إن ابن هشام يتغافل عن روایته بل إن غيط المسلمين
من هند حبنته ، دفع إحدى الشواعر وهي هند بنت أثاثة ، أن
تجاور الحياة في ردها على شعر هند بنت عتبة ، فتقلىع في شعرها
إلقاعا جعل الرواية يستحبون من روایتها^(١) .

٢ - شواعر المناسبات المختلفة :

وقد حفظت لنا الروايات أسماء كثيرة من الشاعرات ، وشعراء
غير قليل من شعرهن وبعض هذا الشعر كان على درجة كبيرة من
الجودة ، وقوة الشاعرية ، ولكن هذا النوع من الشواعر كان يطلب
عليه أن يكون وليد المناسبات ، لا أعنى في انشاء الشعر ، وإنما أعنى
وصوله إلينا ، يعنى أئمـن مهما بلـغـنـ من شاعرية ، فإنه لو المناسبة

(١) سيرة ابن هشام ٣ - ٦٠٨

لم يكن معاظمهن قد يلتفنا شيء من أخباره ، وهن لا يختلفن في هذا عن كثير من الشعراء الذين حفظتهم الروايات لمجرد ارتباطهم بعناسبة معينة ، ولكننا نريد التفرق بين هذا النوع ، والنوع السابق ، فمثل الخنساء وهند بنت عتبة ، تفرض نفسها على الرواية والتاريخ ولكن هذا النوع الذي نتحدث عنه ، ملبن في بقاء الحديث عنه إلى المناسبات .

ومن هؤلاء الشواعر قتيلة بنت الحارث القرشية ، التي قتل أشواها النضر بن الحارث يوم بدر ، حين أمر النبي صلى الله عليه وسلم علياً بقتله ، فامتلأت نفس أخته لوعة وحزنا ، فأخذت تقول شعراً واضح الصدق في الحزن ، والتأثير في النفس ، ومنه قولها تعاتب النبي صلى الله عليه وسلم :

هل يسمعُ النَّصْرَ إِنْ نَادَيْتَهُ
أَمْ كَيْفَ يَسْمَعُ مِيتٌ لَا يَنْطَقُ
أَمْ حَمْدًا بِإِخْبَرَ ضَنْءَ كَرِيمَةَ
فِي قَوْمِهَا وَالْفَحْلُ فَحْلٌ مُغْرِقَ
مَا كَانَ ضَرُكَ لَوْ مَنَّتْ ؟ وَرَبِيعًا
مِنَ الْفَتَنِ وَهُوَ الْمُغَيْظُ الْمُحْتَنِ
أَوْ كَنْتَ قَابِلَ فَلَبِيَةَ فَلَيْتَفَقَنَ
بِأَعْزَزِ مَا يَغْلُبُ بِهِ مَا يَنْفَقَ
فَالنَّضَرُ أَقْرَبُ مِنْ أَسْرَاتِ قَرَابَةٍ
وَأَحْقَمُهُمْ إِنْ كَانَ عَنْقَ يَعْنِقَ
ظَلَّتْ سَيِّوفُ بَنِي أَبِيهِ تَشْوِشَهُ اللَّهُ أَرْحَامَ هَنَاكَ تَشْقِقَ
صَبَرًا يَقْدَدُ إِلَى الْمَسْيَةِ مُتَبَّهًا
وَتَسْفَقُ الْمَقْبَدُ وَهُوَ عَانِ مَوْتِي
وَحَلَّيْهَا عَنِ الْقَرَابَةِ ، لَأَنَّ الْحَارِثَ مِنْ بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ ، أَقْرَبُ

قريش إلى بني هاشم ، ويروى أن النبي حينما بلغه هذا الشعر ، قال :
لوبلينى هذا قبل قتله لمنى عليه^(١) .

ومن هؤلاء الشاعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، التي رشت
أباها بشعر مؤثر ، بادي الصدق وعم الإحسان ، وكان أبوها من
سادات العرب في الجاهلية ، أما هي فقد أسلمت ، وهي معروفة في
الصحابة ، وقد ارتبطت رثاؤها لأبيها بمناسبة في الإسلام ، ذلك أن
فاطمة بنت النبي صل الله عليه وسلم ، أو عائشة زوجه في روایة أخرى
تمثلت به عند وفاة النبي ، ومن هذا الشعر^(٢) :

قد كنت لي جبلاً ألوذاً بظله فتركتني أضحي بالجرا^(٣) ضاح
تمد كنت ذات حمية^(٤) ماعشت لي أمishi البراز وكنت أنت جناسى
فال يوم أخضع للدليل وأنقى منه وأدفع ظالى بالراح^(٥)
وأغض من بصرى وأعلم أنه قد بان حد فوارمى ورماتى^(٦)
وكونه يقال في رثاء النبي صل الله عليه وسلم ، وبخاصة من بنته
أو زوجه ، يجعل له ولشنته شأنًا أو ذكرًا في تاريخ الإسلام .
ومن الشاعرات الباقي ارتبطت . ذكرهن بالمناسبات والملابسات ،

(١) سيرة ابن هشام ٢ - ٥٥٨ و ٥٢٧

(٢) شرح حلقة ابن حمam للطبريزى ١ - ٣٧٦

(٣) الأجرد الأسلسى والفصاسى الكشوف لا ظل فيه

(٤) الحبة العزة والبراز بذبح الناء ، الففاء تمنى كنت طيبة حرة فموتك نفس جناسى

(٥) بالراح تمنى لم يدخل ساحل إلاكلى

(٦) بان الفصل والخد تمنى به التورى

عائكة بنت زيد بن عمر القرشية ، التي كان أبوها أحد الأربعة
المتحففين ، دعاء الدين في مكة قبل الإسلام ، وكانت
عائكة مشهورة بالجمال والعقل وحسن رأى الرجال فيها ، وتنافسهم
على الاقتران بها ، ولكنها كانت سيدة الحظ في حياتها مع الرجال ،
فما من زوج تزوجته إلا ومات شهيدا ، تزوجت من عبد الله بن أبي
بكر الصديق ، فلما كان في جيش المسلمين في موقعة هوازن يوم حنين
أصابه أبو محجن الثقفي بهم ، فمات منه بعد مدة ، ثم تزوجها
عمر بن الخطاب فاستشهدت اغتيالا ، ثم تزوجها الزبير بن العوام ،
فاستشهدت في وادي السباع ، ثم تزوجها الحسين بن علي ، فاستشهدت
في كربلاء ، وكانت أول من رفع خده عن التراب ، ثم تأيت فلم
تنزوج بعده ، فكان عبد الله بن عمر يقول : من أراد الشهادة فليتزوج
عائكة بنت زيد ، وكانت عائكة شاعرة ، وقد حفظت لنا الروايات
بعض شعرها ، ومنه رثاؤها لزوجها الأول ، عبد الله بن أبي بكر (١) .
ومن شاعرات المناسبات سلمي بنت عتاب التميمية ، التي كانت
 ضمن السبايا اللات سباهن عبيدة بن حسن ، في سريّة التي أمره
 النبي صل الله عليه وسلم عليها ، ثم بعثه بها إلى بني العنبر من تميم ، وقد
 حفظت لنا الروايات شعراً قالته سلمي هذه عند أسرها (٢) .
[] ومنهم كبشة بنت معد يكرب ، أخت عمرو بن معد يكرب ،
 وقد كانت لها قصة ملأت نفسها حزنا ، فاتّجح هذا الحزن شعرا

(١) شرح التبريزى لخاتمة أبي تمام ١-٦٠٠

(٢) النطريه أبن هشام ٤-٣٩٠

إن لم يكن في معانٍه وتصوّره ، فهو طريف متميّز في إشارته الحزن على أخيها القتيل ، ذلك أنها كان لها أخ شقيق يدعى عبد الله ، وكان عمرو أخيًا غير شقيق لها ، فحدث خلاف بين عبد الله وبين عمه بنى مازن ، فقتلوا ، ثم ذهبوا إلى أخيه عمرو يستصرّونه طالبين منه أن يقبل اعتذارهم ، وأن يقبل دية أخيه ، فرُدّى عمرو ، وهو أن يأخذ الدية ، فإذا كبرت ثثير الدنيا حزنًا وصباً على عبد الله ، ولو ما وإنكاراً على عمرو أن يرثي بالدية ، ولا يشأ لأنّيه عبد الله وصاغت هذا كله في شعر يجمع بين الحزن والمحنة . والذرة على قومها في اتجاههم إلى السلم والمودعة^(١)

ومن شاعرات المناسبات حرقـة بنت النعمـان بن المنـذر اللـخـي ، الذي كان قـبيل إلـاسـلام مـلكـاً مشـهـورـاً عـلـى الـحـيـرة ، وقصـته مـعـ النـابـةـ النـبـيـانـ الشـاعـرـ مشـهـورـةـ ، وقد أـسـلـمـتـ حـرقـةـ اـبـنـتـهـ ، ثـمـ وـفـدـتـ عـلـىـ سـعـدـ بـنـ أـبـيـ وـقـاصـ إـبـانـ إـمـارـتـهـ لـلـجـوشـ إـلـاسـلامـيـةـ فـلـمـاـ عـلـمـ يـقـدوـمـهـاـ عـلـيـهـ ، أـبـدـىـ اـهـتـمـاماـ بـهـ ، وـكـرـرـ السـؤـالـ عـنـهـ ، فـاستـشـعـرـتـ حـرقـةـ شـيـثـاـ مـنـ خـجـلـ مـاـ صـارـ إـلـيـهـ مـلـكـهـ ، وـكـلـاـ ظـلـمـتـ سـعـدـاـ يـشـمـتـ بـهـ ، فـكـلـلـهـ هـذـاـ إـلـاحـسـانـ ، فـغـيـرـتـ عـنـهـ يـخـطـيـةـ قـصـيـرـةـ تـبـرـيـزـ فـيـهاـ عـنـ مـجـدـهـ الزـائـلـ ، وـتـسـبـ الـدـهـرـ الـذـيـ لـاـ يـشـيـمـ عـلـىـ حـالـ ، وـتـذـكـرـ سـعـدـاـ بـأـلـاـ يـغـترـ بـالـدـهـرـ وـمـاـ فـيـهـ مـنـ عـرـضـ زـائـلـ ، ثـمـ تـقـولـ فـيـمـاـ قـالـتـ^(٢)

(١) انظر شرح التبريزى لمحات أبي تمام ١ - ٧١

(٢) اختصر شرح التبريزى لمحات أبي تمام ٢ - ٥٣

بيننا نسوس الناس والأمر أمرنا
إذا نحن فيهم سوقة نتصدقن^(١)
فأف لدينا لا يدوم نعيمها
تقلب تاركـات بشـا وتصـرفـ

شاعر المغارـى :

من طبيعة المرأة ضعـت اهتمامـها عـادة بالـأمور العامة ، واقتـصارـ
عنـياتـها واهتمـامـها عـلـى ما يـرـتـبـطـ بـذـانـتها وـشـخـصـيـتهاـ ، يـسـبـبـ مـباـشرـ
أوـغـيرـ مـباـشرـ ، هـذـهـ حـقـيقـةـ لـا يـلـتـوىـ التـارـيـخـ الطـوـيلـ فـيـ إـعلـانـتهاـ
وـتـأـكـيدـهاـ ، وـمـنـ آـذـارـ ذـالـكـ أـنـ الـرـأـءـ قـلـماـ تـعـنىـ بـالـسـيـاسـةـ أـوـ حـدـيـثـهاـ ،
وـلـاـ يـشـدـهاـ حـدـيـثـ يـتـعـلـقـ بـأـمـرـ مـنـ الـأـمـرـاتـ العـامـةـ قـطـ ، إـلاـ إـذـاـ كـانـ
هـذـاـ الـأـمـرـ مـرـتـبـطاـ بـهـ اـرـتـبـاطـاـ يـجـعـلـ لـهـ فـيـ مـصـلـحـةـ شـخـصـيـةـ ، مـنـ
طـرـيـقـ قـرـيبـ أـوـ بـعـيدـ ، وـمـنـ آـذـارـ ذـالـكـ أـيـضـاـ أـنـاـ قـلـماـ نـجـدـ شـاعـرـةـ فـيـ
التـارـيـخـ الطـوـيلـ عـنـيـتـ فـيـ شـعـرـهـ بـأـمـرـ الـحـربـ ، إـلاـ إـذـاـ مـسـتـهـ هـذـهـ
الـحـربـ فـيـ عـزـيزـ عـلـيـهـ ، أـوـ أـصـابـتـهـ بـضـرـ يـلـمـسـ حـيـاتـهـ ، حـيـثـنـذـ
يـمـكـنـ أـنـ تـدـقـقـ شـاعـرـيـتـهـ بـالـتـعبـيرـ عـمـاـ أـصـابـهـ مـنـ هـذـهـ الـحـربـ ، كـمـاـ
تـدـقـقـتـ شـاعـرـيـةـ جـلـيلـةـ يـشـتـرـتـ مـرـةـ فـيـ حـربـ الـبـسـوسـ حينـ وـجـدـتـ نـفـسـهـاـ
فـيـ صـرـاعـ بـيـنـ مـشـاعـرـ الـولـاءـ لـأـهـلـهـ ، وـالـولـاءـ لـأـهـلـ زـوـجـهـ ، وـكـلـاـهـمـاـ
أـلـدـ عـدـوـينـ لـعـضـهـمـاـ فـيـ هـذـهـ الـحـربـ .

ولـكـنـ الـأـمـرـ فـيـ ظـلـ إـلـاسـلـامـ كـانـ مـخـلـفـاـ إـلـىـ حـدـ ماـ ، فـقـدـ ظـاهـرـتـ
فـيـ شـعـرـ النـسـاءـ نـزـعـةـ الـاحـتـمـامـ بـهـ الـحـربـ الدـائـرـةـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ

(١) هنا : فقط يقيد المقابلة ، والسوقة : العامة ، وتصدق : تعني تصريح خدما الناس

والملحدين ، وبدا أن النساء أخذن يعنين بما تسفر عنه هذه الحروب ، ويعبرن عن مشاعرهم إزاءها ، وقد يقال إن المتتبع لشعر النساء المتعلق بالحروب الدينية هذه ، يجد أيضاً أن شعرهن أو أكثره نابع من مشاعر شخصية ، وليس من اهتمام بأمور عامة ، فما كثرنه إنما يقلن الشعر حينما يقتل لهن عزيز عليهن ، أو حينما ترد إحداهن على شاعرة أخرى تحس منها شماتة أو تشفيها أو نحو ذلك ، وهذا القول غير بعيد عن الحقيقة ، ولكنه لا ينفي أن نزعة جديدة ظهرت في شعر النساء لم تكن ظاهرة قبيل ذلك ، وهي الاهتمام بأمور عام ، هو الصراع بين قوتين ، وقد يكون السبب المباشر لدى الشاعرة رثاء أب أو أخ ، ولكن معالجتها للموضوع تحمل نزعة الاهتمام بهذه الحرب لذاتها ، وترقب نتيجتها ، أو نتيجة أخرى تحض عليها ، كالمطالبة بالثأر في حالة هزيمة فريقتها .

ولذا التمسنا تعليلاً لهذه النزعة التي ظهرت في شعر المختصرات ، من حيث الاهتمام بالحروب التي دارت بين الإسلام والشرك ، تجد من الواضح أن النزعة الدينية هي العامل الأصلي في هذا المجال ، ثم تدعمها العوامل الأخرى ، من العصبية والشاعر الشخصية التابعة من القسر الذي أحتجته بها هذه الحرب ، وحتى إذا كانت هذه العوامل ممكورة الترتيب لدى بعض الشاعرات ، فإنها لا تنفي أن النزعة الدينية عامل ظاهر وأصلي بين هذه العوامل .

كما أن الشعور الديني ، وإن كان شعوراً شخصياً ، وليس

المصلحة الثانية ، فإنه لا ينفي أيضاً أنه أمر عام ، لا يختص به واحد دون غيره .

وأشهر الشاعرات الالات لمع اسمهن خلال غزوات المسلمين وصراعهم هند بنت عتبة بن زبيعة القرشية ، زوج أبي سفيان ، التي كانت كما سبق القول قوة يحسب المسلمين حسابها ، سواء بقوتها شخصيتها أو بتأثير شعرها ، وقد رأينا كيف أن عمر بن الخطاب ضاق بشماتتها وبشعرها يوم أحد ، وأفضى بهذا الفضي إلى حسان بن ثابت محرضاً ليه على أن يرد على شعرها ، وقد فعل حسان بن ثابت ما أشار به عمر .

وكل أشعار هند بن عتبة كانت في جاهليتها ضد الإسلام ، وكأنها شرعت أن الحرب وضعتم أوزارها بالقياس إليها هي حين أسلمت ، فلم تعد بها حاجة إلى الشعر ، لأنه لم تعد أمامها قوة تصارعها وإنما أصبحت حروب المسلمين بعد إسلامها أموراً عامة لا تعنيها كثيراً ، ولا تتعقل بها ، لعدم مساسها بكيانها وذاتها ، وقد حفظت كتب التاريخ الإسلامي ، وبخاصة سيرة ابن هشام أشعاراً كثيرة لهند ، وعلى الأخص ، في يوم بدر الذي قتل فيه ابنها وأبواها وعمها ثم يوم أحد الذي شفت فيه نفسها من المسلمين شماتة وتشويهاً لشهدائهم ، كما فعلت بمحنة أسد الله^(١) ومن شاعرات الشرك

(١) انظر المثال سيرة ابن هشام ٥٥٥ و ما قبلها ٦٠٧ و ٦٦٦ وما بعدهما و خزانة البغدادي ٢٦٤-٣ وتاريخ الطبرى ٩٦٢-٢

حيثند صافية بنت مسافر الأموي القرشية ، التي اسهمت بشعرها ضد المسلمين ، ومنه رثاؤها لقتل قريش يوم بدر^(١) وشعرها وإن لم يكن جيد الشاعرية ، إلا أنه ينم عن شعور بالحزن على عدد كبير من السادة ، كانت قريش تعزز بهم ، وتباها بهم أربضاً ومن شاعرات قريش قتيلة بنت الحارث ، التي سبق القول بأن رثاءها لأخيها التضير يبلغ من تأثيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لو بلغني هذا قبل قتله ما قتليه^(٢) .

ومن شاعرات المشركيين عمرة بنت دريد بن الصمة ، التي قالت شعراً كثيرة في رثاء أبيها حين قتل في موقعة هوازن يوم حنين ، وكان دريد من أشهر هوازن بالفروسية والسيادة ومداد الرأى ، وكان يومئذ شيخاً كبيراً لا يقوى على القتال ، فوصل إليه غلام ناشي^(٣) من المسلمين من بني سليم ، فضربه بسيفه فلم يقتله ، ولم يكن الغلام يعرفه ، فقال دريد : يشسم سلطنتك أمك يا غلام ، خذ سيفي من مؤخرة رحلي ، ثم اضرب به فوق العظم ، وتحت الدماغ ، فكذلك كنت أخرب الرجال ، فإذا أذيت أمك ، فقل : إلى قتلت دريد بن الصمة ، وقد أظهرت عمرة ابنته حزناً على مقتله ، وغضباً شديداً لعدم مقدرة قومها على النّار ثم تعلن في شعرها استكانتها لسلطان الإسلام وأنه (قهر الأقوام كلهم) حيث تقول :

(١) سيرة ابن حشام ٥٥٧-٤

(٢) المصدر السابق ٥٥٧-٤

(٣) المصدر السابق ٩٠٢-٤

قالوا قتلتنا دريدا قلت قد صدقوا فظل دمعي على السر بال ينحدر
لولا الذي قهر الأقوام كلهم رأت سليم وكمب كيف نافر

ويعکن أن يكون قصدها بالذى قهر الأقوام كلهم شخص انتى
صل الله عليه وسلم ، وكان شعرها وشعر أخيها سلمة بن دريد ،
من أبرز أشعار هوازن يومئذ ، وأشدها إثارة ضد المسلمين .

وكان من الطبيعي أن يقابل هذا السلاح الشعري في محيط المشركين ، سلاح شعري في محيط المسلمين ، وكما كان في قريش شاعرات يهاجن المسلمين ، ويحرضن ضد الإسلام ، وكذلك كان في قريش أيضاً شاعرات مسلمات ، يصددن هذا الشعر المصوب نحو ذويهن ، ونحو دينهن ، فمنهن هند بنت أنيفة بن باد بن المطلب التي أثارتها شماتة هند بنت عتبة في المسلمين ، وفي حمزة يوم أحد، حيث قالت بعد أن بقررت يطعن حمزة ولاكت كبدته تحت أسنانها ، ثم انقطتها بعد أن لم تستفها ، قالت تخطاب المسلمين ، وتحاطب نفسها أيضاً :

نحن جزيناكم بيوم يسدر وال Herb بعد الحرب ذات سُفر
شفيت نفسى وقضيت نذرى شفيت وحشى غليل صدارى
نشكر وحشى على عمرى حتى ترم أعظمى فى قبرى

فإذا هند بنت أذلة تشيرها هذه الشهادة في ذويها من بني هاشم^(١)

فتقول شعراً ترد به على هند بنت عتبة ، منه :

خرت في بدر وبعد بدر يا بنت وقاع عقيم الكفر
صيبحك الله غداة الفجر ملها شعيب الطوال الزهر
بكل قطاع حسام يغمرى حمزة لبني وعلى صقرى
وتنسب إلى هند بنت أذلة أشعار في رثاء بعض أقاربها يوم بدر .

ومن شاعرات قريش المسلمات ، صفية بنت عبد المطلب ، عممة النبي صلى الله عليه وسلم ، شقيقة حمزة ، وقد كانت أشد صبراً على حمزة مما كان متوقعاً ، حتى إن النبي حين رأى بشاعة ما أصاب حمزة من التحشيل والتشويه ، أشفق على صفية أن ترى هذا المشهد البالغ بشاعة ، فطلب من ابنتها الزبير بن العوام أن يصرّفها حتى لا ترى حمزة في هذه الصورة ، فإذا صفية تقول : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مثل بيأني ، وذلك في الله ، فما أرضنا بما كان من ذلك ، لأنفسين ولأصبرن ، إن شاء الله ، فاذن لها النبي في رؤيته ، فما زادت حسنه رأته على أن استرجعت ، واستغفرت له ، وصلت عليه^(٢) ، وحتى في رثائهما إيه ، كانت صبوراً ثابتة ، وكان حديثها عن الدين أوضح من حديثها عن الحزن ، كقولها^(٣) :

(١) هي هند بنت أذلة بن عياد بن المطلب والمطلب هذا آخر هاشم وتوفى بعد شمس أيامه عبد مناف بن قصي

(٢) سيرة ابن هشام ٦١٢-٣

(٣) المصدر السابق ٦٦٦-٣

دعاه إله الحق ذو العرش دعوة إلى جنة يحيى بها وسرور
فذلك ما كنا نرجي ونرتجي لحرمة يوم الحشر خير مصير
ومن الشاعرات المسلمات نعم بنت سعيد ، امرأة شمام بن
عثمان ، وهو من بني مخزوم ، وقد أظهرت نعم على زوجها جزعا عبرت
عنه بشعر واضح الحزن والألم ، منه ^(١) :

يا عين جودي بقبيض غير إيساس على كريم من الفتیان أیاس ^(٢)
أقول لما أتی الناعی له جزعاً لأودي الججاد وأودي المقام الكاسی
فأخذ أخوها أبو الحكم بن سعيد بن يربوع يواسيها ويعزّها بثقل قوله :
اقْنَیْ حِيَاكَ فِي سُرْ وَ فِي كَرْمِ [] فَلَمَّا كَانَ شَمَاسُ مِنَ النَّاسِ
لَا تَقْتُلُ النَّفْسَ إِذْ حَانَتْ مِنْتَهِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ يَوْمَ الرُّوْحِ وَالْبَسَاسِ
فَدَّ كَانَ حَمْرَةً لِيَثَ اللَّهُ فَاصْطَبِرْيَ فَذَاقَ يَوْمَتَهُ مِنْ كَأسِ شَمَاسِ
ومن شاعرات المسلمين أمامة الزبيرية التي غاظتها نفاق أبي عفك
أحد بنى عمرو بن عوف من الخزرج وكان يحرض الأنصار واليهود
ضد النبي بشعره ، ويشير أحداثهم وخلافاتهم الجاهلية ، فأمر النبي
بتقتله ، فقتله أحد أقاربه ، وهو سالم بن عمير ، فعبرت أمامة
الزبيرية عن غيظها من أبي عفك ، وعن سرورها بقتله ، بثقل قوله
تُخاطب أبي عفك بعد مقتله .

تكلب دين الله والره أحمدا
لعم [] الذي أمتلك أن ينس ما يُنفي
أبا عفك يخلدها على كبر السن
حياك حنيف آخر الليل طعنة

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٦-٣

(٢) الأیاس : القهار للأعداء

الشعراء اليهود

وفي حديثنا عن الشعراء المخضرمين من اليهود ، أو المعاصرین ، للمخضرمين ، أو الوالين لليهود من الشعراء العرب ، نقول أولاً إن المستشرقين كما سبق يسرفون في إبراز كيان النصرانية في الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وفي سبيل عاطفهم الدينية يلحوظون أحياها إلى المبالغة أو تجاوز الحقيقة ، فيصورون أن اليهودية والنصرانية كائناً ما كانتا مسيطرتين ديناً وفكراً على العرب ، مع اعتقادهم بأن اليهود كانوا محتررين من العرب ^(١) وأن النصارى كانوا محصورين في بقعة محشدة من شمال الجزيرة وجنوبها ^(١) وليس من المعقول أن تكون القلة المحترفة ، أو القلة المنزوية ذات سيطرة أو انتشار ، في دينها أو فكرها أو غير ذلك ، ولكن أغلب المستشرقين يهذفون من وراء ذلك إلى إثبات أن اليهودية والنصرانية لهما تأثير في الحضارة العربية ، بل وفي الدين الإسلامي ، ومن ذلك أنهم ينسبون كل حديث عن الدين في شعر الجاهلية إلى النصرانية أو اليهودية ، حسب ما يدين به المستشرقين من دين ، حتى إن بعضهم لم يخجل من ادعاء

(١) انظر تاريخ الأدب العربي كارل بروكلاند ١٢١-١ و الأغافل للأصفهاني ١١٥-٢٢

أن كل شعراء الجاهلية كانوا نصارى^(١) ، ومن آثار محاوئتهم إثبات تأثير هذين الدينين في الثقافة والحضارة العربية ، ادعاء الكثرة والتأثير للشعراء اليهود والنصارى ، كما فعل كارل برو كلمان ، مع أنه حين استشهد لم يستشهد إلا بالسموع! الشاعر اليهودي ، وبعدى بن زيد ، الشاعر النصراني ، ولم يذكر الملك القوى في السموءل ، هل هو يهودي النسب ، أم عربي؟^(٢)

أما الحقيقة التي يعرفها التاريخ بوضوح ، فهي أن أصحاب الديانتين كانوا قلة قليلة ، فلا يكاد اليهود يتجاوزون مناطق صغيرة محددة ، أهمها في أطراف اليمن ، وجوانب يثرب ، ولا يكاد النصارى يتجاوزون أيضاً مناطق صغيرة في شمال الجزيرة وبخاصة في الحيرة ، وفي نجران من جنوب الحجاز ، ومن المؤكد أن كلا الديانتين لم يكن لها تأثير أوسع من النطاق الفردي المحدود كما كان المتحفون الأربعة في مكة ، ورقة بن نوفل وصحبه ، على أن هؤلاء كانوا مع تأثيرهم بالنصرانية يعلون ولاهم ملة إبراهيم ، وليس للنصرانية بالذات ، والذى يعنينا من هذا أن كلا الجماعتين : اليهود والنصارى لم تخل من شعراً ، ولكن كانوا قلة ، وكانوا غير ذوى تأثير واضح ومن الملاحظ أن شعراء النصارى لم يكونوا ظاهرين ، لا في عددهم ولا في إعلان دينهم ، بل كانوا من القلة إلى حد التندرة ، وحتى عدى

(١) المصدر السابق الجزء الأول لكتاب عن مسيرة قرن اخر وانتظر شهر امتحانات لويس شيفنر

(٢) المصدر السابق ١٢٥-١ والأغاني للأصفهان ١١٦-٢٢

ابن زيد الذى يجعلونه عنوانا للنصراني في الجزيرة العربية ، حين
تنذهب إلى شعره لا تجد فيه الدين النصراني واضحا ، فهو نصراني ،
ولتكن النصرانية غير واضحة في شعره ، يوصي بها دينا يتعصب له
أو يدعو إليه ، أما اليهود فكان لهم عدد من الشعراء في كل العصور
ولعل هذا الفارق مرتبط بالسمة النصرانية ، وعدم شهرة أبنائنا
بسبيطه التعصب الذي يدفعهم إلى تكاليف شعر يعلون به هذا التعصب
أما اليهود فمن المعروف عنهم في كل عصر ، وفي كل بيئة أن حياتهم
مصحوبة من التعصب لأنفسهم ، والعداء لغيرهم ، فكان من الطبيعي أن
يكون لهم شعراء يعلون هذا التعصب ، ويدافعون عنه .

ومن الشعراء اليهود المعاصرين لهذه الإسلام ، والذين ظهرت
فيهم هذه التزعنة أوس بن ذئب من شعراء بني قريطة . ومن
أخباره أن امرأته اليهودية وكانت من بني قريطة أيضاً أسلمت
وفارقته ، ثم خيل إليها أن تدعوه إلى الإسلام ، وأن يعودا إلى سابق
حياتها مسلحين ، فتذهب إليه تعرض عليه الإسلام ، وترغبه فيه ،
ولكنه أبي ، وأصر على التمسك بيهوديته وأخذ يدعوها إلى اليهودية
وقال في ذلك شعرا ، كان منه (١) :

دعتني إلى الإسلام يوم لقيتها
فقلت لها : لا بل تعالى تبودى
فتحن على توراة موسى ودينته
رنعم لعمري الدين دين محمد
كلانا يرى أن الرسالة دينه
ومن يهمنه أبواب المرشد يرشد

(١) الأخلاق ، للأصفاق ٢٢-١١٥

وإذا كان مثل هذا الشعر يصور تصويرا صريحا نزعة التشتت بالكتاب من جهة ، ونظرة العداء للغير من جهة أخرى ، فإن هناك شعرا يصور هذه النزعة تصويرا رمزا وليس صريحا ، كهذا الذي ترويه الروايات على أنه ما شاع من شعر اليهود حتى أمسى يغنى ، ومنه^(١) :

أعذلني ألا نفذني فكم من أمر عاذلة عصيت
دعيني وارشدني إن كنت أغوى ولا تُؤْكِنْ زعمت كما غويتُ
أعذل قد أطللت اللوم حتى لو أني مُنتهٌ لقد انتهيتُ
وحتى لو يكون في أنسابي بكى من عذل عاذلة يكبتُ

فهو يصور الناس عاذلين لآتميين ، ويصورهم ظالماً ظالماً يدفع إلى البكاء ، ويصور الشاعر نفسه عنيداً متشائماً بوقفه وأسلوبه ، وإن آتميه الناس جميرا بالفضال والخواية ، وهذه نزعة اليهود ، وتصورهم لوقت الناس منهم .

وهذا شاعر ، يهودي آخر يخرج من حصن بنى التفسير ، عند حصار النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً يوم خيبر ، غير تجزئ شعرا ، ويطلب من يزاره ، ولم يعرف الرواة من اسمه إلا أنه مرحبا ، وأغلب القلن أنهم إنما عرفوه من شعره ، حيث ساق اسمه في هذا الرجل ، على عادة المبارزين ، فيقول :

(١) الأفاف للأصفهاني ٢٢-١١٦

قد علمت خبير أني مُرحب شاكى السلاح بطل مجرّب
أطعن أحياناً وحينما أخسر بـ إذا الليوث أُقبلت تحتربُ
إن جمائ للحمى لا يُشربُ يُخيم عن صوالي المجرّبُ
ولذلك يسوقون اسمه على أنه مرحباً اليهودي .

وأشهر شعاء اليهود المعاصرین لبدء الإسلام كعب بن الأشرف
الذى يختلف الرواية فى تسلیه ، هل هو من بنى التنصير ، أم هو من
طبيه وأمه من بنى التنصير ، ولكنهم يتفقون على أمررين ، أحدهما أن
أمه يهودية ، وهذا كان في ظهور يهوديته ، فمن المعروف أن اليهود
ما زالوا حتى اليوم مختلفين على تعريف اليهودي ، ولكن آخر ما رجحت
فيه كفة الآراء لديهم ، أن اليهودي من كانت أمه يهودية ، مهما كانت
صفة أبيه ، والأمر الآخر الذى يتفق عليه الرواية يثبت يهودية كعب
أنه كان يعيش في بنى التنصير ، وكان من سادتهم ، ومن أشهر فرسانهم
وشعراهم ، وكان أيضاً من أشد اليهود عداء للنبي ولإسلام ، ومن
أكثر الشعاء إثارة للناس ضد الإسلام ، ولذلك أمر النبي صلى الله
عليه وسلم بقتله ، فذهب خمسة من المسلمين ، على رأسهم محمد بن
مسلم ، فاحتالوا ذات ليلة حتى استدرجوه إلى الخروج إليهم ، ثم قتلوه
ولكعب أشعار كثيرة ضد المسلمين ، وفي إثارة الفتنة بين الأنصار
وتابعهم على النبي والمهاجرين ، وله شعر كثير في رثاء المشركين من
قربيش يوم بدر ، وهو يتمى في هذا الشعر أن لو كانت الأرض ساخت
بأهلها وتتصدع قبل أن يسمع بمصرع هؤلاء السادة من مشركي

قريش ، وأخذ في شعره هذا يشير ذهافون قريش على قتلامهم ، متوجهاً
بنفر من أعلام هؤلاء القتلى كأبي جهل الحكم بن هشام وعيبة وشيبة
ابني ربيعة ، ومن ذلك قوله :

نبشت أن بني المذيرة كلهم خشعوا لقتل أبي الحكم وجندعوا
ولم يكتد بأن ينشر هذا الشعر من مقره في يثرب ، وإنما طوف
به حتى بلغ مكة ، ثم عاد ، وأخذ يتفتن في إثارة المسلمين حتى
تال من أعراضهم ، وقد رد عليه عدد غير قليل من شعراه المسلمين ،
وشواعرهم ، ومنهم حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك^(١) ومن
شعر كعب الذي تال فيه من أعراض المسلمين ، بعد عودته من
رحلته إلى مكة ليطلب القبائل على المسلمين ، وكأنه حينئذ يتصرف
كل ألوان الحرب على المسلمين ، بما فيها حرب الشعر ، وما تشيره
من نواحٍ نفسية ، ففيقول في غزنه أيام الفضل بنت الحارث^(٢) :

أراحل أنت لم تحمل بمعنقي وتسارك أم الفضل بالحرم
صفراء رادعة لو تعصر انصرت من ذي القوارير والحناء والكم
ومن شعراه اليهود في هذه الآونة جبل بن جوال الشعلبي ، الذي
تصفه الروايات بأنه كان يهوديا فأسلم ، وتعدد بعض الروايات من
 أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم^(٣) ، وكان من الذين عبروا

(١) انظر الأخلاق للأصحاب ١٤٢١-٢٢ - وسيرة ابن هشام ٥٦٥ وما يليها

(٢) انظر تاريخ الطبرى ١٧٨-٢

(٣) انظر آلة الغابة في معرفة الصحابة ٣١٧

بشعرهم عن الحزن العميق على ما أصاب بنى قريطة وبنى النمير على
يد المسلمين ، فهو يبدي حزنه ، معددا بعض سادة اليهود الذين قتلوا
حينئذ ، معرضا بالأنصار وبخاصة الأوس ، ويبدو أن هذا الشعر كان
قبل إسلامه ، ومنه : (١)

ألا يا سعد سعد بنى مساذ لما لقيت قريطة والنصير
وأفترست البويرة من سلام وسعية وابن خطب وهي بور
وقد كانوا يبتلتهم ثقلا كما ثقلت به بيطان الصخور
وجدنا المجد قد ثبتوا عليه بجند لا تغيبة البسدر
أقيموا يا سراة الأوس فيها كأنكم من المخرزة عور
ومن شعرا اليهود الذين عاصروا تلك الحقبة ، والذين امتهنت
نفوسهم بعراة الهوان والخزي حينئذ سمير بن أدنك ، الذي آلمه
جزم حمر بن الخطاب في تصفية ركانز اليهود وإجلائهم عن جزيرة
العرب ، وكان من شعرا يهود خبير ، فيقول هذا الشاعر شرعا يعد
من أول الأشعار على نفسية اليهود وأخلاقهم وخصائص طبيعتهم
ونظراتهم إلى أنفسهم وإلى غيرهم ، فمن المعروف عن اليهود ضعف
نزعتهم الدينية من حيث العقيدة إلى حد الانعدام ، فهم فيما بينهم
وبين أنفسهم لا يعتقدون عقيدة ، ولا يشتتون على الدين ، وكل ما
يبدونه من التفات حول الدين وتشبث به ، فإنما هو تعصي جماعي

(١) سيرة ابن هشام ٣-٧٢٥ وانظر تاريخ الطبرى ٢-٢٥٠

تفعى ، لا يهدفون من ورائهم إلى رفع لواء دين ، وإنما لتحقيق كسب مادى ، في أى صورة من صور المادية الدينية ، ولا بأس لديهم حينئذ أن يتحققوا من الدين وسيلة للوصول إلى هذه الغاية ، وهذا الشاعر يكشف عن هذه التزعة حين يشك في صدق نبيهم موسى ، ويكتشف هذا الشاعر عن نظرية اليهود إلى غيرهم ، وما تحمله نقوشهم من عداء للناس ومن تعامل على الناس ، في الوقت الذى يحملون فيه الازدراء لأنفسهم وهو تناقض وإن بدا غريبا في ظاهره ، إلا أننا حين نردد إلى تحليل نفسياتهم وخصائصهم في ضوء ما كشفه الباحثون من هنا التحليل لطبيعتهم ، لا نجد حينئذ غرابة ولا عجبا^(١) ، يقول الشاعر اليهودى سمير بن أدرين^(٢) :

يصول أبو حفص علينا بذرة
كذلك لم تتبع حركة ماقط.
فلو كان موسى صادقا ما ظهرت
عليها ولكن ذلة ثم تذهب
ونحن سبقناكم إلى المبين فاعرفوا لنا رتبة البادي الذي هو أكذب
مشيم على آثارنا في طريقنا وبعثكم في أن تسودوا وترهبونا

(١) امطر تاريخ بيـنـ الاسـرـائيلـ منـ آسـياـهـ مـحـمـدـ عـزـةـ دـروـزـ - وـانتـ اـسـلـوبـ السـخـريـهـ فـيـ القـرـآنـ الـكـرـمـ المـلـوـقـ خـصـلـ السـتـرـيـهـ وـالـبـهـودـ

(٢) رسالة الفتنان للعمري

(٢) الملاقط الأجير والخدم يفهم عمر بأنه محروم وأنه لا يزيد عن مستوى الأجراء والخدم

يشير إلى فقر المسلمين حيث

(٤) الذين اتكلب بهم المسلمين بالكتب مدعياً أن اليهود هم السابقون بالكذب في الدين

ونزعة عدم الاعتقاد الديني ، وعدم اطمئنان إلى كل ما تقرره الأديان قديمة معروفة في كل العصور وكل المجتمعات التي احتك باليهود وعشرتهم ، ومن أمثلة ذلك هذه القصة التي يتضمنها هذا الحديث التبوي ، من أن أبا طلحة كانت له حديقة نخل ، وكان يزارعه أحد اليهود في نخلة واحدة منها ، فاختصها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال النبي لليهودي ، أتسمح له بالنخلة وأضمن لك نخلة في الجنة ؟ ونعتها له النبي بنحو أشجار الجنة ، فقال اليهودي : لا أبيع عاجلاً بتأجل ، فقال أبو طلحة : أضمن لي يا رسول الله كما ضمنت له ، فأعطيه الحديقة ؟ قال : نعم ، فرضى أبو طلحة بذلك ، وأخذ اليهودي وذهب به إلى حديقته ، فوجد فيها أمرأته وأبنائه وهم يأكلون من جنى النخلة ، فجعل أبو طلحة يدخل أصبعه في أفواههم فيخرج ما فيها من التمر ، فقالت أمرأته : لم تفعل هذا بيتيك ؟ قال إن قد بعثت الحديقة ، فقالت : إن كنت بعثتها بعاجل فيبس ما فعلت ، فقص عليها الخبر ، ففرحت بذلك^(١) .

وقد استطاع اليهود أن يجذبوا إليهم بعض شعراً العرب الذين كانوا لم يسلموا بعد ، وذلك بعد أن أخثر زعاء اليهود من أمثال كعب بن الأشرف يبذلون كل ما تطيقه نفوسهم من جهد لتأليب القبائل ، وبخضuron قريشا ضد المسلمين ، وكانت من ثمرة ذلك جموع الأحزاب التي تدفقت نحو المدينة بعد تدبره وإعداد حشد اليهود كل جهدهم

(١) رسالة الفران المعرى ٢٧٥

واهتمامهم ، ولو لا أن الله أفشل هذا الحشد الهائل لكان له دوى لم يكن يعلم مداه وآثاره إلا الله ، وذلك في الموقعة المعروفة بالآخراب .

ومن الشعراء الذين اجتذبهم اليهود ليعاطفوا معهم باعتبارهم صفا واحدا ضد المسلمين ، عبد الله بن الزبيرى السهمي القرشى ، الذى روى له شعر فى الأسى على ما أصاب بنى قريظة من يهود ، ومنه^(١) حى الديار مخاً معارفَ رسّمها طولُ البلى وتراؤحُ الأصحاب فكأنما كتبَ اليهودَ رسّمها إلا الكثيفَ ومقدمة الأطباب^(٢)

ومن الشعراء الذين اجتذب اليهود عواطفهم عباس بن مردارس السلمى ، الذى أظهر عاطفة جياشة نحو اليهود توشك أن تكون تعصبا لهم ، وانحيازا إليهم ، فيمدح في شعره اليهود ، ويأسى على طباء يهوديات يصعبين الحليم المجرب كما يقول ، ويخص بعزمته من سادة بنى النضير سلام بن مشكم ، وحيى بن أخطب^(٣) ولكن شعراء الأنصار يتصدون له منكرين تعصبه لليهود ، لأنّين إيه فى عتاب مر على أن يؤثر اليهود على من ينتهي أن يكونوا أحب وأقرب إليه من اليهود ، وهم العرب ، فيرد خوات بن جبيه الأنصارى على العباس بشعر يقول منه مخاطبا العباس :

(١) سيرة ابن هشام ٣ - ٦٣٠

(٢) مني اليهود أن ديار اليهود خربت فسمت رسومها ولم يبق منها إلا آثار كأنها سطور كتبها اليهود وسبعيني مكائدن بقى ليهلا على سالف المهد

(٣) انظر سيرة ابن هشام ٦٩٠ - ٣

ولكن العباس يدل أن يستجيب لخوات ، إذا هو يدعو خواتا إلى
أن يبكي معه على بنى هارون من يهود ، وهو يعرف أن لليهود مساواة
مكرورة ، ولكنه يدعو خواتا إلى التجاوز عنها ، فيقول من هذا
الشعر :^(١)

فبكَّ نَبِيُّ هَارُونَ وَذَكَرَ فَقَالُوهُمْ وَقَتَلُوهُمْ لِلْجَوَعِ إِذْ كَنْتَ مَجْدِبًا
أَخْوَاتُ أَذْرِ الدَّمْعَ بِالدَّمْعِ وَابْكُوهُمْ وَأَعْرَضُ عَنِ الْمَكْرُوهِ مِنْهُمْ وَتَكَبَّا
وَكَذَلِكَ يَتَبَرَّى شُعَرَاءُ الْأَنْصَارِ لِلَّرْدِ عَلَى كُلِّ الشُّعَرَاءِ الَّذِينَ
تَعَاطَفُوا مَعَ الْيَهُودِ ، كَمَا ردَ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ عَلَى شِعْرِ ابْنِ الزِّبْرِيِّ^(٢)
الْقَرْشِيِّ السَّابِقِ ، وَكَذَلِكَ ردَ عَلَيْهِ كَعْبُ بْنُ مَالِكَ فِي أَشْعَارِ كَثِيرَةٍ
وَكُلُّ هَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ صَوْتَ الشِّعْرِ الْيَهُودِيِّ كَانَ فِي هَذِهِ الْحَتْكَةِ
وَاضْحَا وَمَسْمُوعَا ، سَوَاءً أَكَانَ صَوْتُهُ يَهُودِيًّا مُبَاشِرًا ، أَمْ صَوْتًا عَرَبِيًّا
مُتَعَاطِفًا مَعَ الْيَهُودِ .

(١) سِرَّةُ ابْنِ هَشَامٍ ٢ - ٦٩١
(٢) الْمَصْدَرُ السَّابِقُ ٣ - ٧٣٦ - ٧٣٧

الشعر

وفي هذا الجانب من الحديث نلقى نظرة على شعر المخصوصين من بعض زواياه التي تظهرنا على أهم ما يعنينا أن نلم به ، وقبل أن نخوض في حديث الشعر ، هناك ملحوظات ينبغي أن تكون واضحة حتى لا يحدث شيء من ليس في تعميم الأحكام ، أو في تطبيق هذه الأحكام على الشعراء ، بمعنى أنه حينما يبدو من خلال الحديث أنه قد تحدد حكم معين على شعر المخصوصين ، كأن يقال مثلاً إنه وفي بالغرين ، أو قصر في الوفاء ، أو أنه كان أقل جودة من شعر الجاهلية ، أو كان أعلى رتبة منه أو نحو ذلك ، فقد يثور في النفس تساؤل من أكثر من جهة ، وما يثور في النفس حينئذ هل هذا الحكم ينطبق على كل الشعراء ؟ وهل شعراء كل القبائل في هذا الحكم سواء ؟ بل هناك جوانب أخرى أو أمثلة من هذا الجانب ، كأن يقال مثلاً : وهل كل شعر قيل من الذين أدر كوا الجاهلية والإسلام يدخل في موضوع هذا الحديث ؟ وإذا كان الأمر كذلك ، فكيف تنظر إلى شعر الشعراء الجاهليين الذين أدر كوا الإسلام فلم يسلموا ، ومع ذلك لهم شعر يتفق مع روح الإسلام كبعض شعر أمية بن أبي الصلت وأعشى قيس ؟ وكيف تنظر إلى شعر الذين عاشوا في العصورين ، ولكنهم لم يقولوا

شاعراً إلا في عصر واحد منهما ، كليبيد بن ربيعه العامري الذي كان شاعراً مدوياً للشعر في الجاهلية ، فلما أسلم كف عن الشعر ، فلم يقل في الإسلام شعراً ، وكانت عمانت بن بشير الأنباري ، الذي قال شعراً كثيراً في الإسلام ، ولكنه لم يقل شعراً في الجاهلية ، أو لم ي BRO له شعر فيها ، لأنَّه كان حيبث حدثاً صغير السن ، كيف تفعل بشعراً هذين النوعين ؟

ثم كيف ننظر إلى شعر الذين ظلوا على جاهليتهم بعد الإسلام مدة قالوا فيها شعراً ضد الإسلام ، ولكنهم أسلموا بعد ذلك ، وهم كثرة كيف ننظر إلى شعرهم الذي قالوه معادياً للإسلام قبل أن يسلموا ؟ وكيف ننظر أيضاً إلى شعر الشعراه الذين ظلوا على جاهليتهم بعد الإسلام فام يسلموا وماتوا مشركين ، مع أنَّ في شعرهم الذي عادوا به الإسلام ارتباطاً بالشعر الإسلامي ، من حيث إنَّ كليهما رد على الآخر ، ولا يستقيم فهم أحدهما فهما كاملاً ، أو تقويم دون معرفة الآخر ، كيف ننظر إلى مثل هذا الشعر ؟

وحيث يشير هذا التشبيب في التساوى ، فإنَّ عدم المتسائل أبواباً أخرى تفتح له ، فمن حق هذا المتسائل أن يقول : وإذا كان هذا حديثنا عن الشعراء ، فكيف بالحديث عن الشعر نفسه ، من حيث الصحة في الانتساب من علمها ؟ وهذا التساوى يطرق قضية كثيرة الحديث حولها ، وهي قضية تحل الشعر فنقول

نحل الشعر :

ومن الحق أن قضية تحل الشعر ليست جديدة ، بل إنها قدية قدم النقد الأدبي ، قبل أن تتحدد معالم عصر التدوين ، فقد صاحب النقد الفطري الذى كان يتردد خلال لمحات النقد الملوى الذى يعبر به النقاد عن آرائهم وأذواقهم أن يتحدثوا أحياناً عن آرائهم في مدى صحة انتساب الشعر أو بعضه إلى صاحبه ، مما نراه مبثوثاً خلال روایات الكتب القدمة ، ولكن ذلك لم يأخذ طابع البحث العلمي أو الرأي المحدد حتى جاء محمد بن سلام الجمحي صاحب النوع الأدبي الذي ينبع من التدوين ، والنهاج العلمي الذي لا يزال يبهر علماء النقد حتى اليوم ، فهو صاحب رأى وذوق وعلم غير ملتبس ولا مضطرب ولا منساق في تيار غيره ، بل يعتمد دائماً على استقلال النظرة ، وعدم اضطرابها مهما خولف في الرأى ، ومن أمثلة ذلك حديثه في سياق الحديث عن الشاعر الأسود بن يعفر ، حيث يرفض رأى المفضل وهو من كبار آئمه النقد والأدب في عصره ، ويرفض رأى علماء الكوفة جميعاً يائياً لهذا الرفض على منهج موضوعي فيقول (وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة ، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريباً منه ، وقد عامت أن أهل الكوفة يرونون له أكثر مما يروى ، ويتجزؤون في ذلك بما يكتن في جوزنا) ثم يقول أيضاً (وأسمعني بعض أهل الكوفة شعراً زعم أنه أخذته عن خالد بن كلثوم يرثى به حاجب بن زراة ، فقلت له : كيف يروى خالد مثل هذا وهو

من أهل العلم ، وهذا شعر متداخ خبيث ، فقال أخلاقناه من الثقات ، ونحن لا نعرف هذا ولا ننبله^(١) فهو لا يتأثر برأى المفضل ، ولا بعلماء الكوفة ولا بن يوصفون بالثقة ، ولا يجعل رفقيه مجرد تشكيت برأى ، وإنما هو منهيج موضوعي يعبر عنه بقوله : (وهذا شعر متداخ خبيث) فحيث يوجد شعرا لا يتفق مع أسلوب الشاعر وطابعه فهو إذن شعر دخيل على هذا الشاعر ومت حول عليه .

وقد جعل ابن سلام هذا المنهج مقاييسا موضوعيا يزن به الشعر يحدد من خلاله مدى ثقته في نسبة الشعر إلى من ينسب إليه ، ولا يبال أمام هذا المنهج أن يشك في أي رواية مهما علت منزلة صاحبها حتى إنه هاجم بهذا المنهج رجالا من أئمة الثقات وأجلائهم ، هو محمد ابن إسحاق ، صاحب أشهر كتاب في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الكتاب المشهور بسيرة ابن هشام ، ولم يشك ابن سلام في علم ابن إسحاق ، ولا في ثقته فيه بوصفه عالماً أميناً في التاريخ والسيرة وإنما يشك في معرفة ابن إسحاق بالشعر وذوقه فيه ، بل يجزم بجهل ابن إسحاق في الشعر ونقده فيقول (وكان من أفسد الشعر وهجه) وحمل كل غثاء منه محمد بن إسحاق وكان من علماء الناس بالسيرة .. فقبيل الناس عنه الأشعار وكان يعتذر منها ويقول لا علم لي بالشعر ، إنما أوى به فأحمله ، ولم يكن ذلك له عذر ، فكتب في السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شمراً قط .. .^(٢)

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٤٨-١

(٢) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٨-٧-١

ثم يتحدث عنه أيضاً بمثل هذا الأسلوب العلمي الذي لا يهدف إلى تجريح أو طعن في ذات الشخص ، وإنما في منهجه ، مراعياً أن يتعلّم كل نقد بالأسلوب العلمي المقنع ، مستشهاداً أحياناً بالقرآن الكريم كاستشهاده على خطأ ابن اسحاق في نسبة بعض الشعر إلى عاد وثمرد فيقول ابن سلام (أولاً يرجع إلى نفسه فيقول : من حمل هذا الشعر؟ ومن أداه منذ آلاف السنين؟ والله تبارك وتعالى يقول : (فقطع دابر القوم الذين ظلموا) أى لا بقية لهم ، وقال أيضاً : (وآنه أهلك عادا الأولى ونمود فما أبقى) (١)

وهكذا يستمر ابن سلام في منهجه الذي كان متميزاً ومتفوقاً عن عصره وعن عصور كثيرة تالية في النقد ، فيجعل النظرة الموضوعية أساساً وعماداً في النقد ، وهو لا يسوق ذلك في لمحات خاطفة ، أو نظرات عابرة كما كان يفعل معظم النقاد القدماء ، حيث يعتمدون على اللمحات الخاطفة ، والكلمة الموجزة التي تشبه الإشارة ، وهي وإن كانت عندهم معبرة عما يريدون ، ومبرزة لما يقصدون إليه من نقد ، أنها بالقياس إليها أو إلى من يريد أن يرى بحثاً علمياً موضوعياً فإنها لا توفي بالغرض منها ، أما ابن سلام فإن حديثه في منهجه ، وفي نقده الموضوعي لم يكن مجرد إشارات أو كلمات موجزة خاطفة ، وإنما كان بحثاً علمياً واضحاً محدداً ، ومثال ذلك حديثه عن شعر أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فإن ابن اسحاق روى له في

(١) طبقات تحول الشعراء لابن سلام ١ - ٨

سيرته شعراً كثيراً ، ولكن ابن سلام يتحدث ، فلا ينفي أن أبي سفيان هذا كان شاعراً ، بل يؤكد أنه كان شاعراً ، وأن له في الجاهلية شعراً معروفاً ، ولكنه مقطط من الرواية ، كما سقط. شعراء كثيرين ، فثبتت الرواية لهم شعراً مصطنعاً منحولاً ، فينظر ابن سلام نظرته الموضوعية ، فلا يخفي عليه أن هذا شعر متکاف مصنوع ومنحول على أصحابه الذين نسبوا إليه ، وأن ابن اسحاق لجهله بالشعر نقله عن الرواية كما سمعه وهو حسن الشبه فيما فعل ولكن ابن سلام في أكثر من موضع لا يفتر له حسن نيته ، بل يلوجه لما شدیداً على أنه كان كمحاطب ليل ، يجمع كل ما يقع في يديه دون أن يتبيّن نوعه أو طبيعته ، والحق في جانب ابن سلام ، فإن العلم لا يؤخذ بالظن والشك فضلاً عن الجهل ، ولا ينفي العالم أو كاتب أن يقول إلا ما تطمئن إليه نفسه ، وليس هذا موضع مقاضاة بين ابن اسحاق وابن سلام ، وليس مناقشة هذه النقطة هدف الحديث ، وإنما الهدف من سياق الموضوع أن تضرب مثالاً لموضوعية ابن سلام في النقد ، فيقول (ولأبي سفيان بن الحارث شعر كان يقوله في الجاهلية ، فسقط. ولم يصل إلينا منه إلا القليل. ولستنا نعد ما يزروى ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً ، لأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم) ^(١) فابن سلام يثبت أن أبي سفيان شاعر ، وأن له شعراً كان معروفاً في الجاهلية ، ولكنه لا يصلح حكماً على هذا الشعر من حيث الجودة أو الرداءة ، لأن هذا الشعر لم يصل معظمه

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ - ٢٤٧

إلينا ، فالحكم عليه أو على شاعرية صاحبه إذن حكم على شيء غير موجود ، ثم إن ما نسبه ابن اسحاق لهم من شعر ينافي إلى ابن سلام بالنظرية الموضوعية ، فإذا هذا الشعر لا يناسب شعرهم ، ولا يسير على منواله قط ، فإذا هو ليس شعرهم ، بل ليس شعراً إذا قيس بقياس الأدب والفن الشعري ، فبربى ابن سلام أن هذا الشعر يسىء إلى من ينسب إليه ، لأن يرفعه ، فيصدر هذا النقد البالغ التعبير والإيحاء (ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم) فهو بقياس الموضوعية ليس هنا في حاجة إلى تحجيم الرواية أو مناقشة الإسناد أو أي شيء آخر ما دام الموضوع كافياً للحكم ، والموضوع هنا واضح لديه ، وهو أن طبيعة هذا الشعر تختلف عن طبيعة شعر الشعراء الذين ينسب إليهم هذا الشعر ، وهذا كاف في الحكم بأنه ليس شعرهم ، بصرف النظر عن الرواية والإسناد .

وتبلغ دقة منهج ابن سلام وأمانته أنه لا يدعى أن ذوقه الأدبي ، أو نظرته الموضوعية يكفيان للاعتماد عليهما في الحكم دائماً ، بل إنها في بعض الأحيان يعجزان ويصبحان في حاجة إلى أدوات أخرى من أدوات النقد ، ومثال ذلك حديثه عن أشعار قريش ، حيث يقول (وأشعار قريش أشعار فيها لين ، فتشكل بعض الإشكال) (١) وكان ابن سلام يقول إن شعر القبائل العربية عدا قريش شعر فيه طابع البداوة والبيئة المحلية ، فشعراء كل قبيلة بحكم معيشتهم في

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ٢٤٥ - ١

بيئة محددة محصورة الصلات ينتجون شمرا فيه طابع البيئة المحددة المحصورة ، فيتمكن للنقد البصير الطبع والذوق أن يلمس هذا الطابع المميز لهذا الشعر ، فيستطيع إذن أن يميزه من غيره ، بل وأن يتسبّب أحيانا إلى بيته ، أما شعراء قريش فهم يحكم معيشتهم في بيئه غير محصورة ، بل في عاصمة تأوي إليها كل البيئات على اختلافها ، وتشغل بحكم حياتها وتجارتها وموقع الكمية منها بكل القبائل وكثير من الشعوب الأخرى ، ولابد لهذه الصلات أن يكون لها أثر في نفوس أصحابها وطبيعتهم وشاعريتهم ، فيخرج شعرهم متاثرا بكل هذه الصلات ، وبكل ما تشره هذه الحياة الاجتماعية المتعددة الجوانب ، فلا يكون لشعرهم طابع محدد متميّز كما هو لكل القبائل ، وهذا ما يمكن أن يوحي به تعبير ابن سلام عن شعر قريش بأنّ فيه لينا يشكل بعض الإشكال .

وبهذا المنهج ينظر ابن سلام في الشعر الجاهلي ، وشعر صدر الإسلام فلا تطمئن نفسه إلى نسبة بعض هذا الشعر إلى من نسب إليهم ، حيث يرى في بعضه اختلافا في الطابع وفي مستوى وقيمة ، وقد يرى في القصيدة الواحدة هذا الاختلاف ، بعضها يناسب شعر من نسبت إليه ، وبعضها يختلف عنه ، فيدعوه هذا إلى البحث والاستعانتة بأهل الخبرة والعلم حتى ينتهي إلى حكم يحكم به على الموضوع ، ومن أمثلة هذا حديثه عن شعر أبي طالب عم النبي صل الله عليه وسلم ، حيث يقول : وكان أبو طالب شاعراً جيد الكلام ، أربع ما قال قصيده التي مدح فيها النبي صل الله عليه وسلم .

وأيضاً يستنسق القمام بوجهه ربيع الباقي عصمة للأرامل
وقد زيد فيها وطولت ، ورأيت في كتاب يوسف بن سعد . . .
وقد علمت أن قد زاد الناس فيها . . .^(١)

وقد أعاد ابن سلام في هذا تعدد الأسباب والدوافع التي تحفز
الشعراء إلى الشعر وخصوصاً فيما يتعلق بالعصبيات والأحزاب ،
فكلاً عصبية ، وكل حزب يريد أن يحشد أقصى ما يستطيع من أسلحة
ضد الحزب الآخر ، ومن الواضح أن الشعر كان من أقوى أسلحتهم ،
وحيث ينشأ في قبيلة أو عصبة أو حزب موقف يرتبط بكلائهم ومصالحهم
فياتهم يحاولون أن يحشدو لأنفسهم أقصى ما يستطيعون من شعر ،
 فإذا لم يجدوا تحلوا ببعض من شعر الآخرين ونسبوه إلى أنفسهم أو
إلى شاعر معين منهم بهم أن ينافسوا به شعراء الخصوم ، وهكذا في
أسباب عديدة وجد ابن سلام أنها من عوامل انتقال الشعر ، فضمن
هذه الإشارات والآراء كتابه المشهور (طبقات فحول الشعراء)
ولو أن النقاد والعلماء المعاصرین لابن سلام ، أو الذين جاءوا في
عصور تالية اهتموا بهذا الجانب مثل اهتمام ابن سلام لوصلنا في
موضوع الانتقال إلى نتيجة أشد وضواحاً وأوضح تحديداً .

و لكن الذي حدث أن هذه القضية لم تزل بعد ابن سلام من العلماء
اهتمامًا كبيراً ، حتى أشكت على الانزواء والإهمال ، ولم تعد موضع
بحث أو جدال ، حتى جاء العصر الحديث فبدأ المستشرقون يتفضّلون

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ - ٢٤٤

عن هذه القضية غبار النسيان ، وأخذوا يشيرونها إثارة واضحة ، وما يوسع له أن إثارتهم إياها لم تكن في معظمها نابعة من رغبة في البحث العلمي والوصول إلى الحقيقة بقدر ما كانت تنبع من تحامل على التراث العربي ، وتلمس لكل ما فيه هدم للتاريخ العربي الإسلامي ، فإن أغلب المستشرقين غلت عليهم أهواؤهم العنصرية ، وعصبيتهم الدينية التي تبع الاستشراق أساساً ليكون خدمة لها ، فلم يستطعوا أن يلزموا الحياد والأمانة العلمية ، بل جنح معظمهم جنحاً واضحاً إلى التحامل والتحيز ضد كل ما هو إسلامي ، وكان العرب وتاريخهم وأديبهم في نظرهم هم رمز الإسلام ، فأخذوا يتلمسون كل ما يمكن أن يخلقوا منه شيئاً يسىء إلى التاريخ العربي أو يحط من قدره ، أو يخفض من مزاياه ، فكان موضوع نحل الشعر أحد هذه الخيوط. التي صنعت منها بعض المستشرقين وعلى رأسهم مرجليلوت الانجليزي مطعناً في الشعر العربي القديم^(١)

ومع أن فيما سلكه هؤلاء المستشرقون مجافاة لأمانة العلم ، ونزاهة الحكم ، ومع أنه مسلك لا شك معيب بكل المقاييس العلمية والإنسانية إلا أن عيبه أيسر بكثير من مسلك بعض الباحثين العرب والمسلمين ، فقد اتبهر الدارسون العرب في مطلع هذا القرن بالمعلومات الواسعة التي تفريض بها بحوث المستشرقين ، وبالآراء الجديدة ، والمناهج المبتكرة التي لم يألقها الدارسون العرب ، فكان التناقض يمثلاً على أشدّه في

(١) انظر تطبيقة الانتحال في الشعر الجاهلي د. عبد الحميد المسولت من ٧٣ وما بعدها

تقليد هذا الابتكار ، على أن هذا الابتكار كان يشير نفور طائفة من الدارسين المحافظين على التراث القديم وطابعه ، وفي مقدمة هؤلاء علماء الأزهر والتأثيرون بهم ، حيث كانوا يجدون في معظم هذا الابتكار ليس إضافة إلى التراث القديم الذي افرغوا حياتهم للقيام عليه والمحافظة على كيانه ، وإنما يجدون فيه نقضاً وهداً لهذا التراث ، أو تشكيكاً فيه على أيسير الفروض ، فيهبون في وجه كثير من هذا الابتكار مدافعين عن كيان التراث ، ولكن هذا الدفع نفسه كان يغري بعض هواة الشهرة والظهور بأن يتلمسوا أي رأي أو فكرة تشير دفاع هؤلاء المحافظين . وحملاتهم ليجذبوا من وراء ذلك شهرة وبعداً في الصيت ، ولو كان ذلك على حساب الأمانة العلمية أو الخلفية ، وأذكر أنني سمعت المرحوم الدكتور حله حسين من خلال المذيع وهو يجيب على أسئلة لقين من الكتاب والأدباء ، فحين سُئل عن سبب حملته وهجومه في مطلع حياته على المرحوم المقلوطي أجاب بأنها كانت نزعة شاب يريد الظهور على حساب شخصية عظيمة ، ومعنى ذلك أن المقلوطي كان شخصية أدبية عظيمة تحظى بتقدير القراء وإعجابهم ، ومهاجمته ستثير دفاع كثير من المدافعين ، وستلفت نظر كل المثقفين إلى مصدر هذا الهجوم .

ومن هذا القبيل ونحوه شاعت في مطلع هذا القرن ، وحتى منتصفه آراء كثيرة من الدارسين والمثقفين العرب وال المسلمين فيها مساس بالتراث العربي والإسلامي ، كان بعضها تأثراً وإعجاباً باتجاه المستشرقين

مصحوبا بحسن النية من هؤلاء الدارسين ، ولكن بعضا آخر لم يكن في أغلبظن مصحوبا بهذه النية الحسنة ، وإنما كان يهدف إلى نحو من أنحاء أخرى .

وكان من هذه الأنحاء التي لم تكن في أغلبظن مصحوبة بحسن النية ما ذهب إليه الدكتور طه حسين في كتابه الذي كان يسمى (في الشعر الجاهلي) ثم غيره إلى (في الأدب الجاهلي) حين اشتدت الحملة عليه حتى ضاق عليه الخناق ، وذلك أن الكتاب كله يكاد يدور حول فكرة واحدة ، هي هدم الشعر الجاهلي تماماً كاملاً ، حيث ينتفي صحة كل ما ورد إلينا من الشعر الجاهلي ، مدعيا أنه شعر منحول قيل في الإسلام ثم نسب إلى الجاهليين لأسباب يدور معظمها حول العصبية القبلية ، والجزبية السياسية ، وفي هذا المنحى يتجاوز الدكتور طه حسين موقف المستشرق مرجليوث الذي لم يقطع خطوطه الشك في مجمل ما ذهب إليه ، يمعنى أنه كان يتراجع بين الشك واليقين في آرائه ، ولكن الدكتور طه حسين يتجاوز هذا فيجزم جزماً بأن الشعر الجاهلي كله منحول على الجاهليين ، وليس هنا مجال الرد فيه عليه ، ولكنه من الواضح أنها مجرد حملة قد أريد بها أي وجه غير وجه الحق والعلم ، وكما تصدى بعض المستشرقين المنصفين للرد على مرجليوث [فقد تصدى كثير من الكتاب للرد عليه^(١)]

(١) منهم محمد فريد وبديق كتاب (نقد الشعر الجاهلي) ومحمد المفتر حسين في كتاب (نقد كتاب الشعر الجاهلي) والغراوى في كتاب (النقد التحليل لكتاب الأدب الجاهلي) وشوق سيف في كتاب (المصر الجاهلي) ومحمد المفترى في كتاب عما رأته في هذا الموضوع .

ونخلص من هنا كله إلى موضوع الحديث ، وهو شعر المخضرين
فلو جارينا الدكتور حسین وأستاذ المستشرق مرجلیوت لكان هذا
الحديث غير ذى موضوع ، بل لوصلنا إلى نتيجة لا تخلو من إثارة
التفكير والسخرية ، وهي أن يكون للشعراء المخضرين شعر إسلامي
فحسب ، أما الشعر الذى قالوه في الجاهلية فكان الأرض اشترت
فجأة وابتلعه ، أو كأنهم لم يهبط عليهم الشعر إلا في الإسلام . أما
حياتهم التي عاشهما في الجاهلية طالت أو قصرت فلا ينبغي أن
يكون لهم فيها شعر ، أو كأننا نقول : إن الحياة التي عاشهما في
الإسلام لا يأس بأن يكون لهم فيها شعر ، أما حياتهم الجاهلية فلا
ينبغي أن يكون لهم فيها شعر ، أو نحو ذلك ما تلفظه القول ، وتباوه
كل سبل المنطق القويم .

ثم إن بعض الشعراء المخضرين عاش دهراً غير قصير في الإسلام
فأدرك الأوقات التي زعم دعاة الانتداب أن الشعر الجاهلي نحل فيها
أى اختراع حينئذ ونسب إلى شعراء جاهليين ، فهل كان هؤلاء
المخضرون من الذين اخترعوا شمراً ونسبوه إلى شعراء من الجاهلية ؟
أم كانوا من الذين نسب إلى جاهليتهم شعر من هذا الشعر المنحول ؟
يعنى أننا هل نتصور أن يكون قد اخترع شعر ونسب إليه على
قالوه في جاهليتهم لأن شعر الجاهلية هو الذي وجه إليه اتهام الاصنف
والنحل إلى غير أصنفاته ؟ وهكذا في افتراضات كثيرة كلها بعيدة
من العقل والإقناع العلمي .

ولكتنا حين ترك هذه الاقتراضات غير الجادة إلى شيء من الجد
نقول: إننا حتى لو جارينا دعوة الانتدال فيما جمعوا إليه من غلو في
التحامل على الشعر الجاهلي ، فإننا لا نستطيع تطبيق هذا الغلو على
شعر المخصوصين ، يعني أننا لا نستطيع أن نطبق دعوى الانتدال على
شعر المخصوصين الذي قالوه في الجاهلية ، ومن باب أولى الذي قالوه
في الإسلام ، ذلك لأن الشعراء المخصوصين لا بد وأنهم عاشوا في
الإسلام ، وإنما انتطبق عليهم وصف المخصوصة ، ومعنى هنا أنهم أدر كوا
العصر الذي بدأ في الرواية ، فحياتهم في الإسلام لا تتحققها دعوى
الانتدال ، فلا يقال إن شعرهم في الإسلام منحول ، كما أن حياتهم
في الجاهلية قريبة من عصر الإسلام ، بل ملائقة له ، فلا يتتصور
الانتدال بالقياس إليها لسببين : أحدهما أنهم ما داموا قد أدر كوا
عصر الرواية فسيروي عادة شعرهم كلهم ، جاهليه وإسلامية ، لأن
شعر الشاعر وحدة متكاملة ، ولم يكن المسلمون ينفرون من تناقل
الشعر وروايته ، بل كان كبار أعلام المسلمين يتدارسون الشعر
ويتعلمون به ، بما في ذلك شعر الجاهلية ، كما كان يفعل عمر بن
الخطاب ، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، فحين يروي شعر
إسلامي للشاعر ، فسيروي شعره الجاهلي أيضا ، والسبب الثاني أن
وجودهم أحياه في مدة الانتدال أو قريبا منها يبعد احتمال أن ينسب
إليهم شعر لم يقووا به ، لأن وجودهم أحياه أو وجود القرىبيين منهم ذوى
الصلة المباشرة بهم كأبنائهم والمعاشرين لهم يجعل احتمال أن ينسب
إليهم مل لم يقولوه ، هل أن دعوة الانتدال أنفسهم لم يركزوا دعوى
الشعراء المخصوصون —

الاتصال على شعر المختبرين ، لذلك فإن دعوى الاتصال سواء صدقت أو لم تصدق ، فإنها لا تعال شعر المختبرين .

على أنه لا يبني أن يفهم من هذا الحديث أنت نضع شعر المختبرين في إطار متغير يجعل له حكماً خاصاً به لا يسرى على شعر السابقين لهم أو اللاحقين من حيث الاضطراب أحياناً في الرواية ، أو فقدان شعر كثير منه لم يصل إلينا لا عبارات كثيرة تناولها التقاد ومؤرخو الأدب ، أو نحو ذلك من القضايا والمواضيع التي تدور حولها البحوث في الشعر القديم ، فكل ذلك لا يريد أن يجعل الشعر المختبرين وضعاً خاصاً فيه ، وإنما يتصل هذا الحديث في هذا الفضل على دعوى الاتصال وما يرتبط بها ، أما ماعدا ذلك فإن شعر المختبرين ينبع بطبيعة الحال لما ينبع له الشعر القديم من نواحي البحث والتحقيق .

جوانب الموضوع :

والحديث عن قضية الاتصال وموئل شعر المختبرين منها يجرنا إلى قضايا أخرى عديدة تتصل بشعر المختبرين ، وأهم هذه القضايا اللهجات العربية التي كانت تتحدث بها القبائل العربية التي ينتسب إليها الشعراء المختبرون ، والتي تباين وأحياناً تختلف عن بعضها اختلافاً واضحأ ما هو معروف في بحوث علماء اللغة وما نقلوه من معالم هذه اللهجات ، وما كان واضحاً في الأوجه التي قررها بها القرآن الكريم وعرف بالقراءات ، وفيما يتعلق بشعر المختبرين من هذا [نقول إن الشعراء المختبرين بالضرورة ليسوا من قبيلة واحدة ،

ولما هم من كل القبائل العربية ، لأن كل القبائل العربية دخلت الإسلام ، سواء قبل الردة أو بعدها ، فكل الشعراء حينئذ عاصرون الجاهلية والإسلام ، وقالوا بطبيعة الحال شعرا في العصرين ، وهم من قبائل مختلفة ، ولهجات مختلفة متعددة ، ولكن هذه اللهجات لا تظهر فيما وصل إلينا من شعرهم ، وإنما وصل إلينا شعرهم وشعر غيرهم من كل العصور بلهجة واحدة ، هي لهجة قريش ، فلماذا ؟ وكيف تركوا لهجاتهم وقالوا الشعر بلهجة قريش ؟ وكيف لا يقولون شعرا بلهجتهم الأصلية ؟ وإذا كان لهم شعر بهذه اللهجات فلأين ذهب ؟ ثم قضىوا أخرى تتصل بالرواية ومدى صلاحيتها من حيث الصحة وعدم التداخل أو عكس ذلك ، وقضىوا تتصل بالأغراض ومدى استيفاء الشعراء أو بعضهم إليها ، ومدى مطابقة الأغراض التي طرقوها للبيئة والحياة من جوانبها المختلفة .

وكل هذه القضية في حاجة إلى بحث إذا أردت للموضوع أن يكون كاملا ، ولكن خطة هذا البحث تنحصر في عنصرین أساسیین يدوران أساسا حول موقف الشعراء المخضرمين من الإسلام بوصفهم شعراء :

فأخذ العنصرين يتعلق بشعر المخضرمين ، وقد اقتضى هذا الحديث عن جانبيين

١ - مفهوم الشاعر المخضرم ، وقد ألمتنا به في صدر الكتاب واضح من حديثه أنه يتبنى أن تفرق بين قولنا : شخص مخضرم ،

وشاعر مخضرم ، فالشخص تتحقق فيه الخضرمة مجرد معاصرته العهدين ، أما حين نقول : هذا شاعر مخضرم ، فيعني أن تنصب الخضرمة حينئذ على الشعر ، يعنى أن هذا الشخص كان شاعراً في الجاهلية ، وكان شاعراً في الإسلام ، أى أنه قال شعراً في كلا العصررين ، ويترتب على ذلك أنه لو كان قد قال شعراً في عصر واحد منها فحسب فلن يعد شاعراً مخضرم بالمعنى الدقيق لخضرمة الشاعر رغم أنه عاش في كلا العصررين

ولكتنا من الناحية الواقعية حين نطبق هذا في مجال البحث العلمي نجد أنه إنما ينطبق على الأفراد ، وليس على المجموع ، يعنى أتنا حين نتحدث عن شاعر ما نتجعله مجالاً للحديث أو البحث نجد أن الدقة تقتضى أن نطبق عليه هذا المقياس ، ولكتنا حين نتحدث عن المجموع أعني حين نتحدث عن شعراء الجاهلية عامة ، أو عن شعراء بدء الإسلام عامة نجد أن الوضع يختلف ، فليبيد بن ربيعة مثلاً لا شك أنه رجل مخضرم ، من حيث إنه أدرك الجاهلية والإسلام ، ولكنه بوصفه شاعراً لا يعد بالمعنى الدقيق شاعراً مخضرم ، لأنه قال الشعر في جاهليته فحسب ، ولم يقل شعراً بعد إسلامه باستثناء البيت المفرد الذي ينسب إليه ، ومع كوننا لا نعد بهذا المقياس شاعراً مخضرم فإننا حين نتحدث عن شعر الجاهلية لا نستطيع أن نخرج منه شعر ليبيد . والنعمان بن بشير كذلك ، هو شخص مخضرم ، ولكنه لم يكن شاعراً إلا في الإسلام ، لأنه كان في الجاهلية صغيراً لم تبلغ به

السن مبلغ الشعراء ، فلا يوصف بالقياد الذى أشرنا إليه بأنه شاعر مخضرم ، ومع ذلك فإننا حين نتحدث عن شعر الإسلام لتوافق بينه وبين شعر الجاهلية ، أو لبيان مدى تأثير الإسلام فيه ، فستضطر إلى الحديث عن شعر الجاهلية ، فلا تستطيع أن تخرج منه شعر ليبد وستضطر إلى الحديث عن شعر الإسلام ، فلا تستطيع أن تخرج منه شعر التعمان بن بشير ، ونكون قد اضطررنا إلى وضع شعر ليبد مع شعر المخضرمين ، وكذلك شعر التعمان .

وإذن فمع اعترافنا بأن الشاعر المخضرم ينبغي قصر مدلوه على من قال شعرا في الجاهلية ، وقال شعرا في الإسلام ، إلا أننا في مقام البحث في الشعر الجماعي لا نستطيع التزام هذا القيد ، لذلك اقتضى البحث الاستشهاد بشعراء لا تتحقق فيهم المخصوصة أصلا ، كالشعراء الذين ظلوا على شركهم ، أو على يد دينهم حتى ماتوا ، إما من الناحية الجماعية ، وإما لأنهم يمثلون الجبهة المضادة للموضوع كالشعر الإسلامي الذي يقال رداً على شعر المشركين ، فلن يتضح هذا الشعر إلا بالشعر المضاد له .

ب - والجانب الثاني من هذا المنصر هو شعر المخضرمين ، ويتصب الحديث فيه أساسا على علاقته بالدين ، وبيان موقف الشاعر من الإسلام ، ومدى مطابقة شعره لموقفه من الإسلام .

والمنصر الثاني :

ويتعلق موقف الشعراء المخضرمين من الدين في سلوكهم بصرف

النظر عن الشعر ، ولا تعنى بالدين هنا العقيدة ، فالافتراض أن
الشعراء الذين يتناولهم الحديث أساسا هم الذين دخلوا الإسلام ،
ولإنما تعنى السلوك ، بمعنى أن ترى هل كان الذين اهتموا بالإسلام من
الشعراء ، يلتزمون السلوك الذي يتلامع مع الإسلام أم يخالفونه ؟
وهل كان شعرهم موافقا لما يقتضيه اهتمامهم بالإسلام أم لا ؟

وقد يقال : إننا حين نضع هذا الجيل من الشعراء أمام هذا
المقياس ، مقاييس التزام السلوك الديني ، والشعر الديني ، تكون قد
قسمنا عليه ، أو لم ترق به ، أو على أيسر الفروض لم تتحاسب بالقياس
الذى تحاسب به سائر الأجيال ، فقد تختفى لشعراء الأجيال الأخرى
ما لا تختفى للمخضرين ، وقد تحاسب المخضرين على أشياء
لاتحاسب عليها غيرهم من شعراء العصور الأخرى .

والجواب أن هذه الملاحظة تفقد معظم ما تنطوي عليه ، إذا علمنا
أن الوجهة العامة في هذا الكتاب عدم إخضاع الشعراء لقياس خاص
بهم ، وإنما كان مقاييسهم هو المقياس الذي يحاسب به عامة المسلمين
الذين يعاصرونهم ويعايشونهم ، فلن يطلب منهم فوق ما يطلب من عامة
الذين اهتموا بالإسلام حينئذ ، ولا دون ذلك ، وليس من حيث على
الشعراء ، ولا من الجور عن العدالة ، أن يحاسبوا كما يحاسب عامة
الناس ، وليس خاصتهم ، مع أنه يمكن أن يقال إن للشعراء من
لوعي والإدراك ، ومن الشعور بالكرامة والمنزلة بين الناس ، وما يجمعهم
بالضرورة فوق العامة ، ويسلكهم في عداد الخاصة ، وحينئذ يكون

ن العدل أن يحاسبوا كما يحاسب خاصة المسلمين ، وعندئذ تكون مسؤولية الشعراء المخضرين أكبر ، ومحاسبيهم أشد ؛ ومع أن هذا القول لا يبعد كثيراً عن الصواب ، إلا أنها مبالغة في تحاشي ما قد يفهم منه التحامل على الشعراء ، وأيضاً مراعاة لأن السلوك ، وبخاصة الاجتماعي منه إنما يحدده ، ويحدد الحكم عليه العرف السائد في المجتمع ، وليس الوعي والمعرفة ، بمعنى أن لكل مجتمع أعرافاً وتقاليد تسود فيه ، وأحكاماً يحكم بها ولو أدبياً على من يشتد على هذه الأعراف والتقاليد ، ولا عبارات أخرى منها طبيعة الشعراء وتكوينهم النفسي الخاص ، كل ذلك جعلنا نكتفي بأن نجعل العرف السائد في مجتمع الشعراء المخضرين ، هو الحكم على سلوك الشعراء و موقفهم من تطبيق الإسلام على سلوكهم ، وأن تحاسبيهم كما يحاسب عامة الناس وليس كخاصتهم .

وقد كان معظم ما سبق من حديث هذا الكتاب منصباً على هذا الجانب الذي رأينا فيه كيف أن الشعراء المخضرين كانوا أضعف مجتمعهم المسلم تشبثاً بالسلوك الديني ، وكانوا أشد المسلمين جرأة على مخالفه العرف ، وعلى التعرض لما يصبه عليهم الإسلام والملائكة من عقوبة مادية محددة أحياناً ، ومن إنكار وسخط. أحياناً أخرى ، وأن سلوكهم كان تطبيقاً عملياً لما ذكره القرآن الكريم من شنوذ الشعراء عن سائر الناس ، في بعض جوانب الخلق والسلوك .

المخضرون والشعر

الشعراء الذين وصل إلينا شعر ذو قيمة أدبية من شعرهم لا يكادون يتتجاوزون خمسة وتسعين شاعراً من الشعراء المخصوصين ، مع التجاور قليلاً في تطبيق معنى الخضرمة عليهم ، من حيث إن بعضه قليلاً منهم له شعر في الجاهلية دون الإسلام ، كليبيد بن ربيعة ، أوله شعر في الإسلام دون الجاهلية كالنعمان بن بشير ، أو أنه عاصر الجاهلية والإسلام فلم يسلم ومات مشركاً ، ولكنكه كان بشعره طرقاً في الصراع بين شعراء الإسلام وشعراء الشرك مثل أبي عزة الجمحي القرشي الذي أمر النبي صلى الله عليه وسلم بقتله يوم أحد (١) .

وليس هذا العدد من الشعراء هو كل شعراء هذه الحقبة ، فللمقول أن هناك شعراء كثيرون بين كانوا منشئين في القبائل والعشائر ، ولكنهم كانوا شعراء محليين ، لم تتح لهم الظروف أن يصلوا إلى المستوى الاجتماعي العام الذي يجعلهم يوصفون بأنهم من شعراء العرب عامة ، فظلوا شعراء لقبائلهم وأجيالهم .

ولا شك أن في التاريخ الأدبي العربي قبل التدوين أشياء من قصور تجعل في هذا التاريخ شيئاً من الفجوات أحياناً ، والغموض أحياناً

(١) سيرة ابن هشام ٦١٨-٣

أخرى ، مما أثار بعض المشككين أن يفسخوا هذه الأشياء ، بل أن يجعلوا منها مطعنا في الأدب العربي الجاهلي كله ، كما فعل طه حسين متخدنا من هذه الفجوات أدلة لهدم الشعر الجاهلي قاطبة ، فما يستشهد به من هذه الفجوات موضوع اللهجات ، حيث يمثل بالمعتقدات السبع ، التي ينتهي شعراًها إلى قبائل لهجات مختلفة ، ولكنها وصلت إلينا بالهجة واحدة ^(١) ..

ثم إن هذا العدد من الشعراء المخضرمين لا يجمعهم اتجاه واحد ولا بيئة واحدة ، ولا مستوى واحد ، بل كانت لهم اتجاهات شتى ، دينية وعصبية وسياسية وغير ذلك ، وكانت لهم بيئات مختلفة ، بعضها في الحاضر والقرى ، وبعضها في الباذية من يعيشون في خيامهم يتنقلون بها وراء العشب والماء ، وكانت لهم أيضاً مستويات مختلفة في جودة الشعر ورداته ، وهكذا لا يكاد يجمعهم نمط واحد أو أنماط محددة ..

ولذلك نقصر الحديث على بعض الجوانب التي يربطها موضوع الكتاب سبب من الأسباب .

(١) في الأدب الجاهلي د. طه حسين ٩٣

شعراء الاسلام

الفرد ثالثة من بين الشعراء المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم
بوصفهم بأنهم شعراء إسلام أو شعراء الرسول ، هم حسان بن ثابت
وعبد الله بن رواحة ، وكعب بن مالك .

حسان بن ثابت

هو حسان بن ثابت بن المنذر من بني التجار وهم فرع من الخزرج
الأنصار ، وبنو التجار أخوال عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم
وحسان أشهر شاعر في الإسلام بسبب أن النبي نصبه ليكون سلاط
 المسلمين في الشعر ضد شعراء المشركين بدعاته المشهور له .

ويع ذلك فإن تاريخي مولده ووفاته غير محددين ، بل فيما بين
أقوال عديدة ، واختلاف غير يسير ، ولكن المرجح أنه ولد فيما بين
ستين ٥٦٥ و ٥٩٠ الميلاديين وتوفي أيضاً فيما بين ستين ٤٠ و ٥٤
الميلاديين المواتقتين لستين ٦٦١ و ٦٧٥ الميلاديين ، وسواء صحت
الروايات التي تذكر أنه عاش في الجاهلية نحو ستين سنة أم لم تصح
فلا شك أنه عاش في الجاهلية حقبة طويلة كان فيها مكتمل الشخصية
والشاعرية ، حيث تتفق الروايات على أنه كان يتربّد على العيرة
ودمشق يدح الأُمراء اللخميين والنسائيين لينال عطاهم ، وقد اجتمع

مع النابغة التميمي عند بعض هؤلاء الملوك والأمراء ، وشعره في هذه الحقبة أبجود شعره على الإطلاق ، فرغم أن له شعراً كثيراً في الإسلام إلا أنه كما لحظ الأصمي كان أضعف بكثير من شعره الجاهلي ولعل سر ذلك أنه كان في الجاهلية يقول الشعر يدافع ذاتي ومصلحة شخصية يرجوها من ورائه بالعطاء والشهرة ، أما في الإسلام فلم يكن الشعر يدر عليه منفعة مباشرة ، بل كان نوعاً من الكفاح الديني ويوصفه أحد المسلمين فهو يدافع عن الإسلام ضد أعدائه الذين ياجمونه .

مع أنه لم ينافسه شاعر آخر في درجة منزلته في الإسلام بوصفه شاعر الرسول أو شاعر الإسلام الأول حين احتج النبي صلى الله عليه وسلم إلى شاعر يرد على شعراء المشركين فتقدّم أكثر من شاعر من المسلمين فلم يرض النبي لهذه المهمة إلا حساناً ودعا له حيئشة بقوله: (قل وروح القدس معك) مع ذلك ، ومع أن الوضع كان ينتظر أن يسمو به إلى درجة كبيرة بين المسلمين إلا أن حساناً لم يبلغ بين المسلمين منزلة ذات قيمة ، بل ظلت منزلته تتلاشى حتى كاد ينسى وكأنه غير موجود بيتهما ، وكان من آثار ذلك الشك الكبير في تحديد وفاته ومن أسباب هذا أن حساناً سقط سقطة خلقية كبيرة حين تورط في حديث إلحاد ضد عائشة رضي الله عنها ، وقد أقيم عليه حد القذف حيئشة ، ويروي أن عائشة ظلت تظن أنه المقصود بقوله تعالى: (والذى تولى كبره منهم له عذاب حظيم) ، ومن أسباب

هبوط. متزئنه أنه بينما كان المسلمين يشنعون حماساً وحمنة في الجهاد وحب الاستشهاد في سبيل الله كان معروفاً عن حسان جبنه الشديد كما مرت بعض أمثلة من ذلك ، حتى إن النبي صل الله عليه وسلم فيما يروى تبسم حين سمع بعض شعر حسان الذي يفخر فيه بشجاعته ، وهذا ينفي ما ذهب إليه بعض المحدثين الذين حفروا ديوانه من زعمهم أن يده كانت قد أصنيبت بغاية تمنعه من استخدامها في القتال ، فلو كانت به عاهة لكان موضع الإشراق لا السخرية والإنكار .

وكان حسان يتحامل على قريش في شعره ، ولم يكن تحامله نزعة دينية فحسب ، وإنما كان فيه ما يوحى بتحامل العنصرية والعنصرية ، ولذلك تباهي النبي صل الله عليه وسلم ذات مرة بقوله : (أَتَهْجُو قُرِيشًا وَأَنَا مِنْهُمْ ؟) فأجاب حسان بقوله : أَسْلَكَنِي مِنْهُمْ يَا رَسُولَ اللهِ كَمَا تَسْلُ الشَّرْعَةَ مِنَ الْعَجَنِ ، ولكن النبي صل الله عليه وسلم كان معروفاً عنه أنه يبغض الإساءة إلى قريش في غير الناحية الدينية ، وكان يسرد مدح قريش لذاتها كما ظهر على وجهه من السرور حين استمع إلى كعب ابن زهير عندما وصل في قصيده إلى مدح قريش ، وكان من آثار ميل حسان إلى التحامل على قريش أشعار مشهورة مثل (أَمْسَى الْجَلَابِيبَ قَدْ عَزَوا وَقَدْ كَثَرُوا) ومن آثار ذلك أيضاً انجيازه ضد على ابن أبي طالب وآله الذين كانوا ذروة قريش وعنوانها موالياً لمعاوية وحزبه ، مستغلاً مقتل عثمان رضي الله عنه في أشعار كبيرة تطالب بشارة تحريراً ضد بنى هاشم .

وأما عن شاعرية حسان فإن النقاد سواء في القديم والحديث يتفقون على الجانب الجاهلي منها ، وهو أن حسانا كان في الجاهلية من فحول شعرا العرب ، وشعره الجاهلي من أجزل وأقوى أشعارهم ومعظم هذه الأشعار الجاهلية الجيدة لم تدور حول غرضين : أحدهما الفخر وشعر المصلحة لقومه الخزرج ، حيث كان الصراع في الجاهلية على أشده بين الأوس وكان شاعرهم قيس بن الخطيم ، والخزرج وكان شاعرهم حسان بن ثابت .

والآخر مدائحه للملك لحم وغسان في الحيرة والشام ، وكما أشرنا آنفا يمكن أن نعمل قوة شعر حسان في الجاهلية بأنه شعر نابع من مشاعره وانفعاله بمواقف وأفراط له فيها هو ومصلحة شخصية ، يصعب في الإسلام لأنّه لم تكن له في هذا الشعر مصلحة شخصية ولا منفعة يرجوها من ورائه ، ولا انفعال يتبع من نفسه كما كان يفعل في صراعه مع الأوس ، من الفخر بقومه وهجاء أعدائهم ، ومني ذلك أن شاعرية حسان لم تضعف في الإسلام ، وإنما ضعفت الدوافع الشخصية لديه ، حيث كان يقول شعره الإسلامي وكأنه يؤذى عبادة أو شيئا مطلوبا منه وليس له فيه انفعال حقيقي ، والدليل على ذلك أنه حينما كان يوجد لديه هذا الدافع الشخصي كان يوجد بشعر جزل لا يقل جزالة عن شعره الجاهلي ، ومثال ذلك هذه القصيدة المشهورة التي يروي الرواية أنها حدثت في خلافة معاوية آى في أخريات حياة حسان ، والتي مؤداها أن قوم حسان من الأنصار آلمهم هجاء التجاشي شاعر

بى الحارث بن كعب فأثاروا سبة حسان حتى هجا بن عبد الله
رمط، النجاشي بهذه القصيدة التي ذهب بعض أبياتها من الشهرة مذهب
الأمثال «والتي كان منها :

لا عيب بالقوم من طول ولا عظم جسم البغال وأحلام العصافير (١)
كانهم قصب جوف مكاسره مثقب فيه أرواح الأعاصير (٢)
وقد بلغ من تأثير هذا الشعر في المهومنين أن جاءوا بشاعرهم النجاشي
موثقا إلى حسان ليحكم فيه حكمه، وواضح أن هذا الشعر أعلى في
وجوده بكثير من شعر حسان الإسلامي ، مع أنه قاله في الإسلام ، بل
في أواخر عمره ، بل إن الدارماني لشعر حسان الإسلامي يلحظ بوضوح
أن الشعر الذي قاله في واقف دينية عامة ليس له فيها انتقال خاص
أو مصلحة شخصية يميل إلى الهبوط . والسطحية سواء في ألفاظه ومعانيه
وأحيائه ، ولكنه يلاحظ ، أيضاً أحياناً بيته أو معنى جيداً خلال هذا
الشعر الهابط ، وهذا تطبيق لما أشرنا إليه من أن حساناً كان ينوي
شعره الإسلامي كما ينوي المرء العادى واجراً عاماً ليست له مصلحة
شخصية فيه ، ولكنه قد يعرض له خلال ذلك معنى يهمه هو ، وينفعل
بـه مصلحة أو رغبة شخصية كالفرح بشيء معين ، أو هجاء في شيء

(١) سخرية بالمهاجرين حيث يجعل الشعر الأولي سوراً مدحهم بالطول وعظم الأنسام
كما كان العرب يفترون بذلك ولكنه يعود في السطر الثاني إلى هنا التناقض الشديد بين خطابة
الضم وضرر الفعل .

(٢) الجوف بهم أيام جميع أقواف يصفهم بأنهم كالقصب الأجرف ، المثقب الذي يفتح
فيه كلزمار ولكن صوره ليس موسيقى وإنما صور آلات معاصر يشبه كلها منهم بالقصبة الملووأة
حيث إن مكان الكسر منه فهو ما بين الكبارين أيضاً أجرف .

معين ، فيأتي هذا المعنى في صورة جيدة للأتم مستوى شاعرية سان
ويبدو حينئذ كالنشاز الجيد بين شعر هابط . أو متوجه إلى الهبوط ،
ومثال ذلك قول حسان مما قاله في مفاخرة بيته وبين أبي سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب في غزوة بدر الثانية ، فقال حسان عندما انفعل
عوقض قومه العزيز المنتصر يصف الموقع الذي نزلوا به ، ويصف خيلهم
وإبلهم :

أقمنا على الرس النروع ثمانيا بارعن حرار عريض العبارك
بكل كميت جوزة نصف خلقه وقت طوال مشرفات الحوارك
ترى العرّف القائم تذرى أصوله مناسم أحلف المعلى الرواتك

فهو في البيت الأول يصف جيشه الجرار الذي يشبه الجبل
الأربع الشامخ الضخم الشاسع لبارك الإبل والدواب ، وفي البيت
الثاني يصف خيلهم الذي تبلغ خطوة الواحد منها نصف طوله بقوائم
طوال مفتوحة ، وفي البيت الثالث يصف إبلهم الذي تبلغ من قوتها أثناه
السير أن تقلع مناسم أحلفها جلور شجر العرّف . وهكذا في ثلاثة
أبيات تعرض لنا شاعرية حسان صورة متكاملة للجيش بجنته وخيله
وإبله ، بينما لا تجد هذه الجودة في بقية القصيدة ، ولا في قصائد
إسلامية كثيرة ، لأن هذا المعنى الذي أجاد فيه عيسى نزعة فخر تبرز
مشاعر حسان فتوقعه . شاعرية التي أصابها شيء من إعفاء في الإسلام
ومن أمثلة ذلك شعره الذي هجا به بنى مرة فاستجار منه الحارث بن

عوف بالنبي^(١) ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نتخد من هذه الأبيات المفردة أو المعانى المنشارة حكما على شعر حسان ، فالحكم لا يصلح إلا على المجموع ، ومجموع شعر حسان الإسلامي يميل إلى الضعف ، وكل ما تنبئ عنه هذه المعانى المنشارة من دلالة فهو أن شاعرية حسان لم تغير ، ولم تضفت في الإسلام ، وإنما ضفت الدوافع والحوافر التي تحفزه إلى الإجاده ، والدowافع العديدة التي كانت لدى الشاعر في الجاهلية والتي لا داعي الآن للإفاضة فيها ضفت في هذه الحقبة التي عاشها حسان في الإسلام ، ثم بدأت تستيقظ . ولو في ألواب أخرى بعد حياة حسان ، ولو تصورنا أن حسانا قد امتد به العمر ، وبقيت فيه بقية من قوة وعاصر الصراعات العصبية والسياسية والحزبية وعوامل إغراء الشعراء بعضهم ببعض وغير ذلك ثم انفعل بهذا أو ببعضه لأعاد إلى الناس شعره الجزل القixin الذي عرفوه عنه في الجاهلية

ولكن الحكم العام على شعر حسان أنه كان قوياً واضحاً القوة في الجاهلية ، ثم مال ميلاً وأضحاها إلى الضعف في الإسلام ، وهذا الحكم يمثل الاتجاه العام لدى العلماء والتقاد القديمة ، ولم يجد موضع خلاف بين النقاد الحديثين ، ولا يخل بهذا الحكم ما تجد من آراء فردية لبعض العلماء كوصفهم حسان بأنه كان شاعر الأنصار في الجاهلية ، وشاعر النبي في النبوة ، وشاعر اليمن في الإسلام ، فالوصفات الأولان

(١) طبقات فنون الشعراء لابن سلام ٢١٩-١

لَا خلافٌ حولَهُما ، وَلَكِنَ الْوَصْفُ الْأَخِيرُ قَدْ لَا يَرَادُ بِهِ التَّنْقِيدُ لِشِعْرِ
حَسَانٍ ، وَإِنَّمَا يَرَادُ بِهِ تَكْرِيمُ حَسَانٍ وَالْإِشَادَةُ بِشَخْصِهِ .

وَإِذَا أَرَدْنَا مَثَلًا لِالْخَلْفَافِ مُسْتَوِيًّا شِعْرَ حَسَانَ بَيْنَ الْجَاهِلِيَّةِ
وَالْإِسْلَامِ فَلَنْ يَنْجُدَ هَذَا التَّسْوِيقُ الَّذِي يَرْوِيُهُ الرَّوَاةُ عَلَى أَنَّ قَصْبِيَّةَ وَاحِدَةٍ
ثُمَّ يَرْجُحُونَ أَنَّهُ قَالَ شَطَرَهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، ثُمَّ أَنْشَأَ الْبَاقِي فِي الْإِسْلَامِ
لِأَنَّ الْجُزْءَ الْأَوَّلُ مِنْهَا لَا تَنْتَقِعُ مَعْنَيَّهُ مَعَ الْإِسْلَامِ ، أَمَّا الْجُزْءُ الثَّانِي
فَهُوَ إِسْلَامِيٌّ وَاضْعَفُ مُشَهُورٌ . فَهُوَ يَقُولُ :

عَنْتَ ذَاتَ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاهِرَ إِلَى عَذَرَكَمْ مَنْزِلَهَا خَلَاءٌ (١)
دِيَارٌ مِنْ بَنِي الْحَسَنِاسِ قَفْرٌ تُنْقِيَهَا الرَّوَاسِمُ وَالسَّمَاءُ (٢)
وَكَانَتْ لَا يَرَاهُ بَهَا أَبِيسٌ خَلَالٌ مَرْوِجَهَا نَعَمْ وَشَاءُ (٣)
فَلَمَّا هَذَا وَلَكِنْ مَا لَطِيفٌ يَوْرَقَنِي إِذَا ذَهَبَ الْعَشَاءُ (٤)
لِشَعْنَاهُ الَّتِي قَدْ تَيَّشَهُ فَلِبِسْ لَقْبَهُ مِنْهَا شَفَاءُ (٥)

(١) الْجَوَاهِرُ : مَوْضِعُ بِالشَّامِ كَانَ يَقْعُدُ فِيهِ الْمَارِثُ بْنُ أَبِي شَمْرِ الْمَلْكِ الصَّافِي ، وَكَذَلِكَ ذَاتُ
الْأَصَابِعِ ، وَعَنْدَهُ : مَوْضِعُ قَرْبِ دِمْشِقَ وَهُوَ مِنْ أَمَانَاتِ الْعَسَاسِيَّةِ الَّتِي كَانَ يَدْعُ عَلَيْهِمْ حَسَانٌ
وَيَدْعُهُمْ وَعَلَتْ : يَعْنِي دَرْسَ وَانْجَدَتْ آثارَهَا .

(٢) بَنِي الْحَسَنِاسِ : قَرْعٌ مِنْ بَنِي الْبَهَارِ مِنَ الْمَزْرُوجِ الْأَنْصَارِ وَقَفْرٌ : خَالِيَّةُ وَالْرَّوَاسِيُّ : الْرِّبَاعُ
إِلَى تَطْسِ الْأَكَارِ وَتَقْلِيَّهَا ، وَالْمَيَاهُ : الظَّرِيفُ هُوَ الْمَيَاهُ مَلِمْسُهَا الْرِّبَاعُ وَالْأَمْطَارُ

(٣) يَعْنِي هَذِهِ الْدِيَارِ كَانَتْ عَارِيَةَ بِالنَّاسِ ، وَكَانَتْ حَافِلَةَ بِالْمَرْوَجِ وَالشَّجَرِ الَّتِي تَنْجُلُهُ
الْإِبْلُ وَالظُّفَرُ .

(٤) يَعْنِي دُعَوَيْنِ التَّفَكِيرِ فِي حَاسِيقٍ ثُمَّ تَحْدَثُ عَنْ سَبِيلِ الْأَرْقَى الَّذِي يَتَنَبَّأُ بِهِ كُلُّ الْأَيَّلِ .

(٥) يَعْنِي فِي هَذِهِ الْبَيْتِ عَنْ تَسَاوِلِهِ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ عَنْ سَبِيلِ أَرْقَهُ ، مَيَاهًا أَنْ سَبِيلَهُ
هُوَ أَبْحَبُ الْحَقِيقِ الَّذِي لَا شَفَادَ مِنْهُ هَذِهِ الْمَرْأَةُ الْمُسْبَأَةُ شَفَاءُ .

كأن خبيثة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء^(١)
 على أنيابها أو طعم غضن من النباح هضنة الجنة
 إذا ما الأشربات ذكرت يوماً فهنّ الطيب الرّاح الفداء^(٢)
 توكلها الملامة إنّ النّدا إذا ما كان مفتّ أو الحاء^(٣)
 ونشربها فتركتنا ملوكاً وأشداً ما ينهنها اللقاء^(٤)
 يقول رواة ديوان حسان : قال العدوى : قال حسان القصيدة إلى
 هذا الموضع في الجاهلية ، ثم وصلها بعد بهذا القول في الإسلام
 عندنا خيلنا إن لم تروها تثير النّفع موعدها كناء^(٥)
 يُباريin الأنسنة مضغّيات على أكثافها الأسل الفداء^(٦)

(١) الخبيثة : المحرّم الموصولة الشينة القيمة . وبيت رأس : يلد بالأزرد يصف هذه المحرّم بالمرودة وما يزيد جودتها مصادفتها العسل والماء وعسل اسرم كان مؤخر وهو ذكرة المحرّم بمرودة

(٢) الرّاح : المحرّم وسميت الرّاح لشعور مصنفها بالراحة عند شربها ، وطيب الرّاح يعني به خبره التي يصفها والمعنى أن كل المفهور مورن هذه المحرّم وفداء لها .

(٣) نوروا من ولوجه ذلك كذا يعني نورجه إليها الملامة . وألئنا من أيام يام إذا صدر منه ما يلام عليه والذى يسكنون الذين القتال والمحاج العيب يعني إن صدر منا تقصير أو عيب أثراه المقصورة والقتل فإن المروم على هذه المحرّم التي لم تحدث أثراها المعناد كما يليل .

(٤) البشبة الكث والمراد لا تتصفنا القاء في الحرب .

(٥) النّفع : المباري وكناه : موضع ينطهر منه يتوجّد أهل الشرك في مكة بأن عيل المسلمين متدخل مكة

(٦) يباري يعني المحرّم والأنسنة جميع سنان الرّاح يزيد أن المفهور يضع الرّاح على عاتق المفهور وسناته إلى أيام والفترس يدلل كأنه يسابق وبياري سنان الرّاح ومتصفيات أي أن المحرّم متقدمة للطن كأنها مصفيه يذاتها والأسل هي الرّاح واللقاء جميع ظاهري يعني أن الرّاح عطاشن إلى الدمام

نظل حِبادنا مُنْطَهِراتٍ
 فَامْسَا تَعْرَضُوا عَنْنَا اعْمَرْنَا
 وَلِلَا فَاصْبِرُوا لِجَلَادِ يَوْمٍ
 يَعِينُ اللَّهُ فِيهِ مِنْ يَشَاءُ
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسْرَتْ جَنَدًا
 لَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ مَعْدَةٍ
 فَنَحْكُمُ بِالْقَوَافِي مِنْ هَجَانًا
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ أَرْسَلْتَ عِبَادًا
 يَقُولُونَ الْحَقَّ إِنْ نَقْعُ الْبَلَاءَ
 شَهَدْتُ بِهِ فَقَوْمًا حَسْلَقُوهُ
 وَجَرِيلٌ أَمِينُ اللَّهُ فِينَا

(١) مُنْطَهِراتٍ سَابِقَاتِ الْخَيْلِ مِنَ السَّرْعَةِ وَتَمْطِيرُ الْفَرَسِ خَرَجَ مِنَ الْخَيْلِ وَسَيَقَاهَا وَأَخْمَرَ جَمْعَ خَيَالِهِ مِنْ أَقْفَالِهِ رَأَسَ الْمَرْأَةِ يَعْنِي أَنَّ عَيْنَاهُمْ سَيَمْلِلُ مَكَةَ فَلَا تَجِدُهُمْ مِنْ يَدِهِمْهَا إِلَّا اسْنَاءً يَلْعَظُنَّ وَجْهَهُمُ الْخَيْلِ يَخْرُجُونَ وَقَدْ تَحْكَمَتْ هَذِهِ الصُّورَةُ حَتَّىْ أَنَّ الَّذِي يَعِينَ رَأْيَ اسْنَاءِ يَلْعَظُنَّ ذَلِكَ قَالَ لَأَنِّي يَكْرَهُ مَا ذَادَ قَالَ حَسَانٌ فَذَكَرَ أَبُو يَكْرَهَ الْبَيْتَ

(٢) تَعْرَضُوا عَنْنَا تَرْكُوكُولَا تَدْعُلُ مَكَةَ الْمُعْرِمَةِ

(٣) يَسْرَتْ هَيَّاتٍ وَعَرْضَةَ الشَّيْءِ الْقَدْرَةَ عَلَيْهِ وَالْفَسِيرَةَ فِي عَرْضَتِهِ الْمَرْبُ يَعْنِي أَنَّ الْأَنْصَارَ أَهْلَ الْأَغْرِبِ

(٤) وَمَدَّ جَدَ أَعْلَى لِقَرِيشٍ وَشَيْرَ إِلَى الْمُعْصِيَةِ بَيْنَ الْمَدَانِيَّينَ الْمَجَازِيَّينَ وَمِنْهُمْ قَرِيشٌ وَبَيْنَ الْقَهْطَانِيَّينَ الْبَشَّارِيَّينَ وَمِنْهُمُ الْأَنْصَارُ لِأَنَّهُمْ مِنَ الْأَزَدِ وَالْأَزَدِ تَرَحَّتْ أَصْدَلَ مِنَ الْبَيْنِ ثُمَّ تَفَرَّقَتْ

(٥) نَحْكُمُ نَكْتَ وَنَمْنَعُ

(٦) نَقْعُ الْبَلَاءِ اشْتَدَّ وَالنَّقْعُ فِي الْخَرَبِ الْقَبَارِ يَعْنِي أَنَّ الْبَيْرِقُولَ الْمَقْ مِهْمَا اشْتَدَّ حُوَلَهُ الْأَهْوَالُ

(٧) الشَّطَرُ الْأَوَّلُ عَلَى أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ، وَالشَّطَرُ الْآخَرُ يَوْمَ لِكَتِيبِ قَرِيشٍ زَيَادَ وَلَانْشَاءَ يَعْنِي لَا تَرِيدُ تَصْدِيقَهُ أَلَيْ لَيْسَ هَنَاكَ أَمْلَى فِي تَصْدِيقِنَا إِيَاهُ .

ألا أبلغ أبا سفيان عني
 فلأنت مجوفٌ نخبَ هؤلاء^(١)
 فمن يجوه رسول الله منكم
 ويمدحه وينصره سواه^(٢)
 هجوت محمداً فأجلت عنه
 وعن الله في ذلك الخزاء^(٣)
 آهجهوه ولست له يكتفي
 فشركما لخير كما الفداء^(٤)
 فإن أبي ووالله وعزمي
 لعرض محمد منكم وقام
 جديعة إن قتلهم شقاء^(٥)
 فيما تفتقن بنسو لوئي^(٦)
 أولئك ممثّل نصروا علينا
 ففي أظفارنا منهم دماء^(٧)
 وحذف الحارث بن أبي ضرار
 وحلف قريطةٍ مثاً براء^(٨)
 لساق صارم لا عيب فيه
 وبحرى ما تكثره الدلاء^(٩)

(١) أبو سفيان هو ابن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي وكان شاعراً ضد النبي قبل أن يسلم ومحبوب لدى فاروخ أجوف والشاعر كالهيم أيضان وهواء يعني لا وزن ولا قيمة له يعني أبا سفيان

(٢) تهون من شأن قريش يعني لا ضرر من معاوتك ولا نفع في معاوتك في كل الحالات لا قيمة لكم

(٣) يغافل أبا سفيان الشاعر قائلاً إنك هجوت النبي وفي ذلك منه آفة الظرى لك ولكن تصدّيت فأبيك زيارة منه

(٤) استخدم أسلوب الإقصاص كقوله تعالى (ولنا أو لا يذكر العمل هدى أو في شلال مبين) يعني تعالى للدع أن يكون شركماً أنت والنبي فداء لخير كما

(٥) تلقنه أدرك ولوي حليه فهو الملقب بقريش وجاذبة فرع من الأزد يعني به فرع الأنصار والمراد أن قريشاً إذا قاتلتنا في الحرب فإن قاتل قريش يشنف لقومنا

(٦) نصروا علينا أي أعادوا أعدائنا علينا والشطر الثاني يشبه الشاعر قوله باسمه ذوى

أظفار افترسوا أعدائهم ويقيسوا أثار النساء في الأظفار

(٧) الحارث من بين المصطلح من فزاعة وكانتها ضد المسلمين دون قومهم فزاعة وبين قريطة من البيهود ومنها براء يعني لهم ضد لنا والأصل تعن براء منهم

(٨) يشبه لسانه بسيط صارم جيد وفي الشطر الثاني ي يريد أن المجداء لا ينال منه كالمحسر اللاملا تؤثر فيها اختلافاته منه

ولستا نريد إلافاظة في التعقيب على الأبيات السابقة لأننا لستنا
بصدق درامة شعر حسان ، ولذلك نوجز حديث التعقيب عليها فنقول :
إن هذه الأبيات تكاد تكون صورة متكاملة لشعر حسان كله ، سواء
من حيث المستوى والتفاوت فيه بين الجاهلية والإسلام ، ومن حيث
انفعال حسان ببعض المعانى ، ومن حيث الرواية ، ومن حيث تزعة
العصبية ، ويمكن أن نلم بهذه الجوانب في الإيجاز الثاني .

١ - من حيث اختلاف المستوى بين الجاهلية والإسلام نقول :
إن الرواة يرون هذه الأبيات على أنها قصيدة واحدة قالها حسان دفعة
واحدة وفي وقت واحد ، ولكن العذو يلاحظ عدم تلاويم جزءها فيرى
أو يروى أنها قصيدة واحدة ولكنها قيلت في زمئتين متباينتين ، الجزء الأول
منها قيل في الجاهلية ، والجزء الثاني في الإسلام ، ولكننا إذا ألقينا نظرة
على هذه الأبيات نستبعد أن تكون قصيدة واحدة لأكثر من سبب ،
فمن هذه الأسباب اختلاف الموضوع ، حيث إن الجزء الأول يتكون
من مطلع لقصيدة مدح للحسانيين ، ثم وصف للآخر ، أما الجزء الثاني
فيدور حول تهديد قريش ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ، فكلا الجزئين
لا اتفاق ولا تقارب بينهما في الموضوع ، ومنها أنه من غير المألوف
أن يقول شاعر أبياتاً أو قصيدة ثم يكملها بعد سنوات عديدة ، فلا
ضرورة لذلك ، وما المسوورة التي تحتم عليه أن يضيف إلى القصيدة أو قصيدة
سابقة أبياتاً أخرى ؟ ثم ماذا يعني أن تكونا قصيدتين ؟

بل إن الناظر إلى هذه الأبيات لا يحتاج إلى جهد كبير ليتبين أنها قصيدة ، أو لاما جاهلية واضحة ، والأخرى إسلامية أشد وضوحا ، ولعل الذي دعا جامعي ديوان حسان إلى عدهما قصيدة واحدة صفر أبيات الجزء الأول ، فـأوا عددها قليلا لا يناسب الفصائد ، وخصوصاً فصائد الفحول مثل حسان ، ولكن الأخرى بهم أن ينظروا إليها نظرة ناقدة ليتبينوا ولو على سبيل الترجيح والتغليب الواضح أن الجزء الأول لا يعقل أن يتلاءم مع الجزء الثاني لتكون منهما قصيدة واحدة ، كما أنه بصورته هذه لا يعقل أن يكون قصيدة مستقلة ، وإنما يعقل أن يكون مطلاعاً ومدخلًا في قصيدة جاهلية ، بدأها بما تبدأ به فصائد الجاهلية من بكاء الأطلال ، ثم استرسل في معانٍ جاهلية حول النشوة بالغزل والخمر ، ثم استرسل في موضوع القصيدة وهو المدح الذي يتضمن المطلع أنه كان بعض الملوك الفسانيين الذين كثيراً ما مدحهم حسان ، ولكن لأسباب معينة فقد من الرواة موضوع القصيدة ، ولم تصل إليهم الأبيات التي تحمل هذا الموضوع ، كما فقد شعر كثير جداً من أشعار الجاهلية لأسباب متقاربة ، ثم وجد الرواة في شعر حسان الإسلامي قصيدة اهلها فقدت مطلعها في طريق الرواية التي لم تكن تهم في هذه الحقبة اهتماماً كبيراً بالشعر ، ووجدوا الجزء الجاهلي والجزء الإسلامي كلّاًهما من البحر وفافية واحدة ، فحسبوهما قصيدة واحدة ، أو تخاضوا فيما سبق من حيث الموضوع وادعوا أنها قصيدة واحدة ، وما كان لهم أن يتغاضوا عن جوهر واضح وهو أن الجزء الأول تبدو فيه حرارة الشباب وعواظمه وشهوانه .

ب بينما الجزء الثاني ليس فيه إلا صراع الأعداء و تحدياتهم ، كما أن الجزء الأول وإن كان لا يبعد من أجدود شعر حسان الجاهل إلا أنه من الواضح أن مستوى الفن سواء في التصوير وفي الأسلوب والتعبير أعلى من مستوى الجزء الثاني الإسلامي الذي لا يحمل في مجموعه سوى صدق العاطفة .

٢ - وأما من حيث استعادة حسان حبوبة شاعريته في بعض شعره الإسلامي ، فإننا نستطيع أن نرى الجزء الإسلامي كله من القصيدة سطحياً ساذج المآل ليس فيه جهد أدبي ولا شاعرية واضحة كقوله :
وقال الله قد أرسلت عبـداً يقول الحق إن نقـع البـلاء
شهدـت به قـومـوا صـلـقوـه فـقـلـمـ لا تـجـبـ ولا تـشـاءـ
ولـكـنـ حـسـانـاـ خـيـنـمـاـ يـعـرـضـ لـمـعـ يـثـيرـ مشـاعـرـهـ وـشـاعـرـيـتـهـ وـهـوـ الفـخرـ
عـلـىـ أـعـدـاءـ يـهـمـهـ أـنـ يـشـفـيـ غـلـيلـ عـصـبـيـتـهـ الـقـبـلـيـةـ مـنـهـ قـبـلـ غـلـيلـ الدـينـيـ
إـذـاـ هـوـ يـسـتـعـيدـ حـبـوبـةـ شـاعـرـيـتـهـ ، وـكـأـنـ هـادـ إـلـىـ شـابـاهـ فـيـ مـطـلـعـ حـيـاتـهـ
الـجـاهـلـيـةـ يـرـسـمـ صـورـةـ حـرـبـ شـدـيـدـةـ الصـحـبـ ، يـعـلـوـهـاـ غـيـارـ كـثـيرـ ،
وـتـشـعـلـهـ خـيـلـ يـبـلـغـ حـسـانـ فـيـ وـصـفـهـاـ وـوـصـفـتـ عـدـوـهـاـ وـوـصـفـتـ إـذـالـهـاـ
لـأـعـدـاءـ قـمـةـ الشـاعـرـيـةـ حـيـثـ يـقـولـ :

عـدـمـنـاـ خـيـلـاـ إـنـ لـمـ تـرـوـهـاـ ثـبـرـ النـقـعـ موـعـدهـاـ كـداءـ
بـيـارـيـنـ الـأـسـنـةـ مـصـفـيـاتـ عـلـىـ أـكـافـهـ الـأـسـلـ الـقـلـمـاءـ (١)

(١) مـيـارـةـ الـخـيـلـ مـعـ الـأـسـنـةـ أـيـ أـنـ اسـتـرـمـاحـ الـفـرـسـانـ مـتـجـهـةـ إـلـىـ أـمـامـ اسـتـرـادـاـ لـمـعـنـ يـهـاـ
وـأـنـفـيلـ فـيـ شـدـةـ عـنـوـهـاـ كـانـهـ تـسـاقـيـنـ الـأـسـنـةـ .

تظل جيادتنا متمطررات تلطمهن بالخمر النساء
فهذه الآيات تختلف اختلافاً واضحاً في مستواها الأدبي الرفيع عن
بقية الآيات الإسلامية التي تميل ميلاً واضحاً إلى السطحة والهبوط.
٣ - وأما من حيث نزعة حسان العصبية القبلية التي نتج عنها
ـ كما أشرنا ـ تعامله على قريش تعاملًا يتجاوز الناحية الدينية إلى
ما يوحي ببعض قريش لذاتها مع صرف النظر عن دينها وكفرها ، مما
كان يبذلو من حسان كثيراً حتى بالقياس إلى المهاجرين المسلمين
القرشيين كقوله المشهور (أمسى الجلابيب قد عزوا وقد كثروا . . .)
يعني كثرة المهاجرين القرشيين في المدينة وعزتهم عزة تفوق عزة
الأنصار أصحاب المدينة ، حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم ألح إلـى
حسان بلوغه على تعامله على قريش كما سلف ، وفي هذه القصيدة التي
معنا تبدو عنصرية حسان وعصبيته القبلية ضد قريش سافرة وواضحة
حيث يقول :

وقال الله قد يسرت جنداً هم الأنصار عرضتها اللقاء
لنا في كل يوم من معد قتال أو سباق أو هجاء
ففي البيت الأول منها يتحدث عن أن الذين يتتوعدون قريشاً هم
الأنصار ، وليس هذا يحق ، فالموعدون هم المسلمين عامة وليسوا
الأنصار خاصة ، وأين المهاجرون إذن ؟ ولكن حساناً يتفكير لمن زاوية
العصبية قبل زاوية الدين ، وفي البيت الثاني يصبح حسان يأن مصدر
العداء لقريش هو كونها من معد بن عدنان ، وهو قحطان يعني الأصل .

يبينما كان يتمنى أن يكون مصدر العداوة كون قريش على الكفر ، وهو في الإسلام ، وإنما المهاجرين القرشيين الذين يقاتلون مع الأنصار هم أيضاً من معد بن عدنان ، هل هم أيضاً أعداؤه ؟ إننا لو تبعينا شعره لوجدنا كثيراً منه يتنى عن أن نفسه لا تخلي من شعور بالعداوة لهم ، أو التغور منهم ، أو علم الاطمئنان إليهم .

ـ وأما من حيث اضطراب الرواية أو عدم وضوحها في بعض شعر حسان كما هو في كثير من الشعر الجاهلي والشعر القريب منه فإن هذه القصيدة تصلح أيضاً مثلاً لذلك .

والواقع أن معظم أو أهم ما يثار حول هذه القضية يكاد ينحصر في أمرين ، أحدهما سقوطه ، كثير من الشعر الجاهلي أو القريب منه ، وعدم وصوله إلينا ، والآخر هو الخلط . في نسبة بعض الشعر إلى غير أصحابه فيما عرف بقضية انتقال الشعر ، وهذا الأمر نجدهما واضحين في هذه القصيدة ، فاما عن سقوط بعض الشعر فإننا نلحظه بوضوح في الجزء الأول من القصيدة كما سبق ، حيث يبدو بوضوح أن هذا الجزء ليس جزءاً من هذه القصيدة ، وإنما هو جزء من قصيدة أخرى كانت في أغلبظن مدخلاً لآل غسان أو جزنا على أمجادهم الغايرة ، كما يبدوا في أغلبظن أن اسم بنى الحسخاس دخيل منحول على القصيدة ، وأن الأصل كان حديثاً عن بنى غسان فاستبدل بهم بنو الحسخاس الذين هم من أقرب البيوت نسبياً إلى بيت حسان لأنهم جميعاً من بنى التجار ، ومهما يكن من شيء فإن أبيات هذا الجزء من

القصيدة شديدة الوضوح في أنها غير ملائمة لا فيما بينها ، ولا فيما بينها وبين الجزء الثاني الإسلامي من القصيدة ، فما العلاقة بين ديار بنى الحسخاس بالمدينة وديار مواضع الشام ؟ وما العلاقة بين هذا كله وبين كداء في ظاهر مكة ؟ وما العلاقة بين صور جاهلية بحثة ك الحديث الخمر وبين صور إسلامية بحثة مدح النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فلابد إذن أن يكون هناك سقط. لأبيات كثيرة ليعود الوضع إلى تصوره الصحيح ، وهو ما رجحناه من أن الجزء الأول ليس إلا مطلعًا أو جزءًا غير مرتب من مطلع القصيدة مستقلة ، أما باقيها فقد سقط. خلال تنقلها بين الرواية في حقبة شغل الناس فيها بما هو أهم من الشعر ، وهو الدين الجديد وما اقتضاه من صراع وكفاح . كما يقول ابن سلام عن (حسان وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، وضعوا عليه أشعار كثيرة) .

وأما عن الخلط . في نسبة بعض الشعر إلى غير أصحابه فيما عرف بالانتحال كما يقول ابن سلام عن حسان وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة ، فإننا نجد له في القصيدة أيضًا مثلاً وأوضحًا ، وهو الحديث عن التفاح الذي لم تنبت الجزيرة العربية ، ولم تعرفه حياتها المئوية للعرب إلا بعد أن رحلوا في الفتوح الإسلامية إلى الشام ثم إلى بلاد أخرى تعرف التفاح ، كان ذلك بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أما هذه القصيدة فكانت في حياة النبي قبل فتح مكة بزمن غير يسير ، لكن هذا البيت لا يتحدث عن طم التفاح فحسب ، إنما يتحدث عن اجتنابه حيث يقول :

على أنيابها أو طم غمض من النفاح قصره الجناء^(١)
وكانه في بيته تعرف زراعة النفاخ وترى كيفية اجتنائه لا مجرد طعنه ،
وقد أدرك بعض النقاد كالسهيل أن هذا البيت دخيل على القصيدة ،
ومنحول على شعر حسان ، كما وأشار إلى ذلك بعض محققى ديوان حسان ،
وإذن ففى هذه القصيدة مثال على ما شاب شعر حسان من انتحال ووضع
زيادة على كونها مثلاً لاضطراب الرواية في شعر حسان وغيره في هذه
الحقبة ، وكونها مثالاً لاختلاف مستوى شعره في الإسلام عنه في الجاهلية ،
وكونها مثلاً على أن شاعرية حسان لم تكتب في الإسلام وإنما خبت دوافعه
إلى الشعر الذى يتبع من شاعريته لا من دينه ، وكونها مثلاً على أن حساناً
كان يحمل عصبية ضد قريش وضد العدنانيين^(٢)

ولكن الإنصاف لحسان يقتضى ألا يغى الحديث عن شعره الإسلامي
دون تعقيب ، فقد قلنا إن الاتجاه السائد لدى القدماء والمحدثين ،
والذى لا تكاد توجد معارضة له أن شعر حسان الإسلامي في مجموعه
يعيل إلى الصعف والهبوط ، وهذا من شأنه أن يترك في النفس انطباعاً

(١) التسريب في أنيابها يعنى أن يكون المرأة ولكنها جاءت فى سياق الحديث عن المخروحة
من اضطراب الرتيب فى القصيدة ولقصور بتشذيبه الصناد أمالة والبناد الجنى وبروى اجتناه
(٢) انظر فيما سبق عن حسان بن ثابت الأعالي للأمسقوهان ٤-١٣٤ وعزارة الأدب البغدادى
٤ / ٤٠٢٢٧ - ٧٤ / ٤ - ٣٨٤ . والصلة لابن رشد ١- ٨٩ وشرح البربرى لحاشة أبي تمام
٢- ٥٧ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٣- ٢٥٣ - ٣١٩ . وسيرة ابن هشام فى المؤرخات
ومواضع أخرى كثيرة تلقي بهم أهل الآثار لابن الجوزى ١٤٢ وديوان حسان تحقيق منه حتى
والاصابه فى تميز الصناعة لابن سير وتاريخ ادب العربى كارل بروكلمان ١- ١٥٢ و تاريخ
الأدب العربى حنا الفاسخورى ٢٣١ وطبقات فضول الشعراء لابن سلام ١- ٢١٥ ومواضع
أخرى .

برداة شعره الإسلامي ، وليس هذا يصح على إطلاقه للأسباب الآتية :

أولاً : توجد في شعر حسان الإسلامي كما سبق ثماذج وإن كانت قليلة محدودة من طراز شعره الجاهلي الجزل ، وذلك حينما تنفعل شاعريته فستعيد جزالتها وقوتها الجاهلية

ثانياً : يتبعى أن نراعى أن الحكم بميل شعر حسان الإسلامي إلى الصعف ليس تقويا له أو حكما عليه لذاته ، وإنما هو حكم نسبي قياسي يعنى أن النقاد سواء قدّيمهم وحديثهم إنما يقولون باهتزاز شعر حسان الإسلامي وجنوحه إلى الصعف إذا قيس بشعره الجاهلي ، فهذا القيد النسبي له أهمية في إنصاف شعر حسان الإسلامي ، ومنع ذلك أننا لو نظرنا إلى هذا الشعر لذاته دون موازنة بيته وبين شطره الجاهلي فإن الحكم يختلف ، لأن شعر حسان الإسلامي لذاته ليس ضعيفا ولا هو دون غيره من شعراء عصره ، بدليل أنه لم يرد أن أحدا من النقاد أو الشعراء المعاصرين له أو القريبين من عهده عاب هذا الشعر ، أو وجد فيه ما يحيط منه أو يرفع مناقبته عليه ، أو يعرض على تزكية له ، وهذا محمد بن سلام الجمحي وهو من أقدم علماء الشعر ونقاده ولا يزال قمة لم تعلها قمة أخرى يصف حسان بن ثابت بأنه أشعر شعراء المدينة ، وبأنه كثير الشعر جيده ، دون أن يعيّب أو يقلل من تدرّث شيء من شعره في أي مرحلة من مراحل حياته وينكر أن يغفل قيس بن الخطيم عليه ، وإنما يضع ملحوظتين ، إحداهما يصرح بها

تصريحاً ، وهي أنه نسب إلى حسان شعر كثیر من شعر غيره وقد يكون هذا مما أسماء إلى شعره الإسلامي ، والأخرى يلم إلیها إلماحاوهي أن أجود شعره كان في الجاهلية ، حيث يقول (ومن شعره الرائع ما مدح به نبی جفنة من غسان ملوك الشام ثم يسوق أمثلة) فهو يصف هذا الشعر ليس بالجودة فقط ، وإنما بالروعة .

وإذن فشعر حسان الإسلامي لا غضاضة فيه ، وليس هناك شعر آخر معاصر له أحمله أو تفوق عليه ، وإنما جاءته الغضاضة من أن لحسان في الجاهلية شعر أجزل من هذا الشعر ، لأن المدح في الجاهلية كانت شخصية تخصه هو ، أما دوافع الإسلام فكانت عامة له ولغيره . ثالثاً : من الإنصاف لشعر حسان الإسلامي إبراز ميزة واضحة فيه ، وهي صدق العاطفة ، فمن الواضح في شعره الإسلامي بصرف النظر عن جودته أو مستوى آلياً كان أنه صادق المشاعر ، وأنه يصدر فيما يقول عن حب واضح عجيب للشخص الذي صلى الله عليه وسلم وللإسلام نفسه ، وأوضح ما يكون هذا في رثائه النبي والخلفاء .

كعب بن مالك

وهو من فحول شعراء المدينة عامة ، وشعراء الإسلام خاصة ، فإن فحول شعراء المدينة كما عدتهم ابن سلام خمسة ، ثلاثة منهم من الخزرج ، هم شعراء الإسلام ، حسان بن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، والننان منهم من الأوس وقد ماتا على الشرك في المشهور من أخبارهما ، وهما قيس بن الخطيم ، وأبو قيس بن الأسلت ولكنهما مع شركهما لم يرد أنهما وقعا من المسلمين موقف عداء ، أو استخدما شعرهما ضد الإسلام كما فعل الشعراء المشركون في مكة بل كان في بعض شعر ابن الأسلت رغم شركه ما يدعو قريشا إلى الوحدة وعدم الشقاق وإراقة الدماء .

وإذن فقد كان كعب ثالثي ثلاثة من شعراء الإسلام ، ولكنه من الشعراء المخربين للشعر والمجيدين فيه منذ الجاهلية ، كما يصفه البغدادي بقوله : (كان مجوداً مطبوعاً قد غلب عليه في الجاهلية أمر الشعر وعرف به) ويصفه ابن سالم بأنه شاعر مجيد ، وكان صادقاً الدفاع عن الإسلام بشعره ، ومن المشهور أن النبي صلى الله عليه وسلم أظهر رضا الله ورضاه هو عن قول كعب :

زعمت سخينة أن ستغلب رها ولِيَلْبَنَ مقالب الغلاب ^(١)
حيث قال لكمب (ما نسي ربك هذا وما كان ربك نسي).

وكان كعب يحمل نزعة العصبية القبلية ضد قريش كحسان بن ثابت، وكثيراً ما كان يصرح في شعره بالتحامل على نسبة محمد كله بل له شعر ضد بني هاشم، ومن المشهور أنه كان أحد الثلاثة الذين خلقوا والذين نزل في قبول توبتهم قرآن يتشل، وصاحب الآخران هلال ابن أمية ومرارة بن الربع، وقد توفي بعد أن كتب بصره سنة خمسين أو ثلاث وخمسين من الهجرة عن سبعة وسبعين عاماً ^(٢).

(١) السخينة طام يختلف من الدقيق دون المصيدة في الرقة وفوق الحساء وكانت تعرف قريش فبرت به واصبح لقبها عليها

(٢) انظر الإساية في تغیر الصحابة لابن سمير وخزانة الأدب البغدادي ١ - ١٤٧ والأغاني للأستهانى ٢٢٦-١٦ وسيرة ابن هشام ٩٥٨ وتلقيح فهوم أهل الآخر لابن الجوزي ١٤٩ وطبقات فضول الشعراء لابن سلام ١ - ٢٢٠

عبد الله بن رواحة

هو ثالث شعراء الإسلام ، ومع أنه معدود من فحول شعراء المدينة إلا أن شهرته بالسيادة في قومه فوق شهرته بالشعر ، فيصفه ابن سالم بأنه (عظيم القدر في قومه ، سيد في الجاهلية ، ليس في طبقته التي ذكرنا أسوة منه . . . كان في الإسلام عظيم القدر والمكانة عند رسول الله) .

وكان أيضا يحمل نزعة العصبية القبلية ولكن دون نزعة حسان وكمب ، وكان يذكر نسب معد كثيرا ولكن دون جور في التحامل ، وقد قادمه النبي صلى الله عليه وسلم في عدة مواطن ولهم أشعار كثيرة في صراعهم مع قريش .

وقد شارك في غزوة مؤتة ، وأظهر شجاعة في بدايتها ، فلما استشهد القائد زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب وأُسندت إليه القيادة تردد في القتال وكأنه ضعف عن تحمل هول القتال حينئذ ، ثم قاتل واستشهد يومئذ وما يروى عن عبد الله بن رواحة أنه حين أُنشد أمام النبي قصيدة يهجو فيها قريشا بلغ إلى قوله

نخبروني أثمان العباء متى كنتم بطاريق أو دانت لكم مصر ؟
قال : فكأني حرفت في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم الكراهة إذ جعلت

قومه (أئمـان العباء) ولكنـه كان يـنـبـغـي أـنـ يـدـرـكـ أـنـ هـمـ يـشـيرـ سـخـطـ .
الـنـبـيـ إـنـكـارـ اـبـنـ رـوـاـةـ أـنـ قـرـيـشـ دـانـتـ لـهـ مـضـرـ ، فـالـحـقـيقـةـ أـنـ مـضـرـ
لـمـ تـدـنـ إـلـاـ لـقـرـيـشـ ، كـمـاـ قـالـ أـبـوـ بـكـرـ فـ خـطـبـ السـقـيـفـةـ إـنـ الـعـربـ
لـاـ تـدـيـنـ إـلـاـ لـهـذـاـ الـحـىـ مـنـ قـرـيـشـ (١)

(١) انظر مـنزـاتـ الـأـدـبـ الـمـدـادـيـ ٣٠٤ـ٢ـ وـالـمـدـدـةـ لـابـنـ رـشـيقـ ٢١٠ـ١ـ وـسـيـرـةـ اـبـنـ هـشـامـ
٨٢١ـ٨٢٨ـ٣ـ وـتـلـقـيـحـ قـهـومـ أـهـلـ الـأـبـرـ لـابـنـ الـجـوزـيـ ١٣٢ـ وـطـبـقـاتـ فـحـولـ الـشـعـرـاءـ لـابـنـ
سـلـامـ ٢٢٣ـ١ـ
الـشـعـرـاءـ الـمـخـضـرـمـونـ ٢٥٧ـ

شعراء الشرك

وكم تحدثنا عن شعراء الإسلام الذين نصبو أنفسهم للدفاع عنه فيبني الحديث عن الجانب الآخر ، أو الجهة المضادة لإسلام ، وهم الشعراء الذين نصبو من أنفسهم أعداء لإسلام ، وجعلوا الشعر سلاحهم في هذا العداء وذلك يقتصر الحديث هنا على الشعراء الذين استخدمو شعرهم في هذه الحرب ، وهم عدد قليل من شعراء مكة ، فهذا العدد القليل الذي يكاد ينحصر في عبد الله بن الزبيري السهري ، وأبوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار بن الخطاب القيسي ، وأبي عزة الجمحي ، وهبيرة بن أبي وهب المخزوي هم الذين يعنفهم الحديث بوصفهم لسانا للشرك ضد إسلام ، أما الذين لم يستخدمو شعرهم ضد إسلام فلا يعنفهم الحديث ، لأن الحديث هنا لا يعنيه دينهم لذاته ، وإنما يعنيه شعرهم من حيث موقفه من إسلام ، ولذلك أشرنا خلال الحديث عن كعب بن مالك إلى شاعرين كانوا من أكبر شعراء المدينة ، وقد ظلا على الشرك حتى ماتا ولكنهما لم يستخدما شعرهما ضد إسلام ، وهما قيس بن الخطيم ، وأبي قيس بن الأسلت ، فلا يعنينا إذن شعرهما ، لأنه لم يرتبط بإسلام ، لا تأييداً ولا عداء .

ولكن الحديث عن شعراه مكة يتطلب الإلتحاق إلى جوانب تحوط.
موقفهم ، فمن ذلك أن معظمهم أسلم وقال في الإسلام شعراً أراد أن
يُحِّوِّل به ما أسلف من شعر ضد الإسلام ، وجواب آخرى نلم به في
إيجاز لمجرد لفت النظر إليها كما يلى :

عدم شهرة قريش بالشعر :

ينقل الأصحابي في خسال حديثه عن عمر بن أبي
رببيعة^(١) أن العرب كانت تقر قريش بالتقدم في كل شيء عليها
إلا في الشعر . ومع أن قريشاً قبيلة من قبائل العرب ، وفيها ما في
العرب من استعداد للشعر ، بل فيها مثل ما في قبائل العرب من شعراً
إلا أنها لم تبلغ في الاهتمام بالشعر ما بلغه القبائل الأخرى ، ولم يبلغ
شعراًها ما بلغه شعراً القبائل الأخرى من جودة الشعر ، مع أن كل
الملابسات في ظاهر الأمر تستدعي عكس ذلك ، فقد أتيح لمكة طوال
عصور عديدة أن تكون مركز العرب الدين والاجتماعي ، وهذا يتبع
لها بسطة من ثقافة ومن تفوق في المعرفة ونحو ذلك مما كان ينبغي أن
يستفيد به شعراًها في السمو بشعرهم على شعر الآخرين ، ولكن
أحاطت بحياة قريش منذ الجاهلية الأولى عوامل لم تسع للشعر فيها
أن يبلغ مبلغ قبائل أخرى كبيرة في العرب ، ومن هذه العوامل .

١ - أن قريشاً يحكم زعامتها الدينية والاجتماعية منذ القديم لم
تدخل في صراع أو تناقض حقيقي مع قبيلة أخرى مما يدفع شعراًها
إلى استخدام شعرهم سلاحاً في هذا الصراع ، ومن الواضح أن أقوى

(١) الأغاني - ١ - ٧٨

عوامل الشعر بين القبائل كان نتيجة للصراع في التنافس وفي الحروب فيحاول كل شاعر من الطرفين أن يرفع من شأن قبيلته بالفخر أو بالتهديد أو غير ذلك ، كما يحاول أن يحط من شأن الخصوم بالهجاء أو الوعيد أو ما يشبه ذلك ، كما يقول ابن سلام (وإنما يكتب الشعر بالحروب بين الأحياء ، والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ناره ولم يحاربوا)^(١)

ولكن قريشاً لم تنافسها في مكانها قبيلة أخرى منافسة جادة تبلغ درجة الصراع ، وكان العرب كانوا يسلمون لها بالراغمة ، أو يتأثراً في منزلة تعلو القبائل الأخرى ، وحتى الصراع بين قريش والمسلمين لم يكن صراع أو تنافس عنصرين ، وإنما كان صراع دينيين ومنذهبين وإذن فلم يكن شعراء قريش في حاجة إلى استخدام شعرهم في صراع ليثبتوا لقبيلتهم التفوق على غيرها ، فإن هذا التفوق موجود فعلاً ولذلك لم يكن هناك صراع حقيقي ، أما الخلافات أو الحروب العارضة التي كانت تعرض في صلات قريش ببعض القبائل فلم تكن خلافات تنافس ، وإنما كانت نتيجة أحداث عارضة أو موقف وقتي .

٢ - على أن هذه العوامل التي كانت من أقوى حواجز القبائل إلى الاهتمام بالشعر كانت مفقودة داخل قريش ذاتها ، فقرىش بيوت وأحياء عديدة ، وبين هذه الأحياء خلافات وتنافس وصراع ، وقد كان يشفع أن يكون ذلك من عوامل قوة الشعر في قريش ، ولكن

(١) طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١٠٦-١٠٧ فصل (شعراء الثالث)

قريشاً كان لها تقاليدٌ تيزّت بها عن غيرها من القبائل ، ومن هذه التقاليد أنها توافضت فيما توافضت عليه أن تحرم على شعرائها استخدام شعراً في هذه العلاقات ، كما يقول ابن سلام الجمحي (١) و كان ما تذكر قريش و تعاقب عليه أن يجو بعضها بعضاً (٢) بل ما يروى أن قريشاً اتهمت عبد الله بن الزبيري المسمى الشاعر - وهو من قريش - ببيتين من الشعر وجدهما مكتوبين على دار الندوة : ألهن قصيَا عن المجد الأسطير و روشة مثل ما ترشى السفامير (٣) وأكلها اللحم بحثاً لا خليط له وقولها : رحلت غير مفتت غير وقد بلغ استنكار قريش للخروج على تقاليدها أن طلبوا قطع لسانه ، وكاد هذا ينفذ لو لا خشيتهم من انتشار قطع ألسنة الشعراء (٤) وإنْ فَهَذَا الْعَالِمُ الَّذِي كَانَ مِنْ أَقْوَى دَوَافِعِ الشِّعْرِ إِلَى الشِّعْرِ ، وإلى الإجاده فيه كان مفقوداً في داخل قريش نفسها .

٣ - لم يلجم شعراء قريش إلى التكسب بالشعر كما كان يفعل بعض شعراء القبائل الأخرى ، حيث كان من أقوى دوافع الشعراء إلى تجويد الشعر هو تكسبيهم به ولذلك كان أقوى شعر النابغة الذهبي مدائنه لآل المنذر ، وأقوى شعر بن ثابت مدائنه آل غسان ، وأقوى شعر زهير بن أبي سلمى مدائنه لهرم بن منان .

(١) طبقات قصور الشعراء ٤٣٦-١

(٢) السفامير جمع سفامير وهو المسار الوسيط بين البائع والمشترى وتصنيعه من كلام جد هاشم بن عبد مناف بن قصي

(٣) طبقات قصور الشعراء لابن سلام ٢٢٥-١

ولكن شعراً قريش كأنهم ترفعوا عن أن يتعلموا غيرهم ، وأن يربووا مياه وجوهم ألم شخص ليطلبوا منه أو يلمحوا إليه بعطاهم أو كأنهم خافوا أن تذكر قريش أو غيرها عليهم ذلك ، فلم يحتفوا التكسب بالشعر ولم يلتجأوا إليه ، وبهذا فقدوا عاملًا من أقوى عوامل جودة الشعر لدى الشعراء .

وكانت النتيجة أن قريشاً لم تأخذ مكاناً بين القبائل في التنافس بالشعر ، ولم يزد شعراً لها مع كثرةهم على مزاولة استعدادهم الفطري للشعر ، ولذلك لم يعرف الرواة بيتاً من بيوت قريش نبغ في الشعر أو عرف به ، كما عرفت بيوت كثيرة توارثت الشعر وعرفت به في العرب ، كبيت أبي سليمي المزني ، وبيت حسان بن ثابت ، وبيت النعمان بن بشير الأنصاريين ، وبيت نهشل بن حرثي ، وبيت جرير ابن عطية التميمي ، وبيوت أخرى كثيرة ليس منها بيت من قريش^(١)

شعر قريش الإسلامي :

وحين نشرك هذا العنوان (شعراء الشرك) على إطلاقه في حديثنا عن شعراً قريش لا تكون قد أصنفناهم ، فليس شعرهم كله شعر شرك وليس شعرهم كله ضد الإسلام ، فإن الذين حاربوا الإسلام بشعرهم معظمهم أسلم ، وقال شعراً كثيراً أو قليلاً يعتذر به عمما أسلف في شركه فعبد الله بن الزبيري وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وضرار

(١) انظر المعلمة لابن رشيق ٢٠٦-٢

بن الخطاب التهري وهم من الخمسة الذين تزعموا حملة الشعر ضد المسلمين ، هؤلاء كلهم أسلم وقال شعرا في الإسلام يحاول به أن يحرر إثمه في الشرك ، والشاعران الآخران ماتا على الشرك وهما أبو عزة الجمحي ، وهبيرة بن أبي وهب المخزوبي .

على أن من شعراء الشرك في قريش من مات على الشرك ولكنه قال شعرا يخدم الإسلام ، وهذا أبوطالب عم النبي صلى الله عليه وسلم مع أنه مات مشركا إلا أن له قصيدة مشهورة يمدح بها النبي ، والتي يقول فيها :

وأبيض يستنقى الخام بوجهه ربیسیع الیتای عصمة للأرماء
رغم اختلاف الرواة في عدد أبياتها ، وترجحهم أن أبياتاً كثيرة
وضعها شعراء متأخرن وأضافوها إليها وكذلك أبو عزة الجمحي الذي
مات مشركا له شعر في مدح النبي ^(١)
وقد أشرنا فيما سبق إلى بعض أشعار التائبين المعذرين بشعرهم
في الإسلام ^(٢)

شعر قريش والرواية :

أحاطت بهذه الحقيقة من بدء الإسلام وعهد حكم بنى أمية وحياة
خلاف الأحرar ^(٣) عوامل من الصراعات الدينية والسياسية والقبلية

(١) طبقات قمول الشرأ لابن سالم ٤٤٤-٤٤٥ وسيرة ابن هشام ٢٧٦-٢

(٢) نصل الشرأ التائبين

(٣) توف نحو ستة مائتين ومائة انظر هاشم ازحة الآباء لابن الأباري ٥٨

وغير ذلك أثُرَت ثماراً سبعة كثيرة ، كان من أسوأها في الأدب انتشار ظاهرة وضع الشعر ونسبته إلى غير أصحابه فيما عرف بالانتحال .

وقد كان تصيب شعراء قريش من هذا الانتحال كثيراً، وذلك من جانبيين :

١ - زيدت في شعر شعرائهم زيادات كبيرة نسبت إليهم ، ووضع شعر كثير نسب إلى الشعراء المعروقين من قريش ، وكان معظم الشعر الموضع في مواقف إسلامية أو أغراض تخدم الإسلام ، ومحمد ابن سلام يشير إلى كثير من ذلك ، كما أشار إلى ما زيد في قصيدة أبي طالب بن عبد المطلب التي ي مدح فيها النبي ^(١) وكذلك يشير إلى عدم صحة معظم ما نسب إلى الزبير بن عبد المطلب وكذلك ما نسب إلى أبي مسفيان بن الحارث بن عبد المطلب ^(٢) وابن هشام في تعقيبه على ما رواه ابن إسحاق في سيرته من شعر هؤلاء وغيرهم يشير في معظم هذا الشعر إلى عدم صحة نسبته إلى أصحابه ، وأنه منحول عليهم غالباً ما تكون عبارته (وأهل العلم بالشعر ينكرها له) ^(٣) .

٢ - لم يقتصر تحل الشعر على الشعر نفسه في إضافته إلى شعراء لم يقولوه ، وإنما تعدى ذلك إلى نسبة الشعر إلى أشخاص ليسوا

(١) ملقات فحول الشعراء ٢٤٤-١-

(٢) المسدر السابق ٤٠٢-١ ٢٤٦

(٣) انظر أشعار المفازى في سيرة ابن هشام

شعراً أصلاً ، فتجدهم ينسبون شعراً إلى معظم أعلام الإسلام وأسمائه
 الاليمة من القرشيين ، فينسبون شعراً إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي
 رضي الله عنهم ، وكذلك ينسبون شعراً إلى معاوية وإلى الحسن
 والحسين رضي الله عنهم ، وينسبون شعراً إلى حمزة بن عبد المطلب
 والعباس بن عبد المطلب ، وعبد الله بن عباس ، وعمر بن أبي طالب
 وفاطمة بنت النبي صل الله عليه وسلم ، وغير أولئك كثيرون ^(١) ،
 وقد يكون بعض هؤلاء قد قال شعراً ، ولكن ما لا ترتاب فيه النفس
 أن معظمهم لا علاقة له بالشعر والشعر المروي نفسه يكاد ينطوي بأنه موضوع ،
 بل يكاد ينطوي بأنه من التفاهة بحيث لا يسمى شعراً بالمعنى الصحيح
 والأشخاص الذين تسب إليهم هذا الشعر معظمهم كانوا قهقا في بلاغة
 القول ، وسموا البيان ، فلا يعقل أن يصدر عنهم هذا الشيء التافه
 الذي سموه شعراً ، وقد كان ابن سلام بالغ الدقة والنحو الأدبي
 حينما صاغ تقدمة لهذا المعنى في هذا التعبير الرابع في سياق حديثه
 عن شعر أبي سفيان بن حارث بن عبد المطلب ^(٢) (ولستنا نعد ما يروى
 ابن اسحاق له ولا لغيره شعراً ، ولأن لا يكون لهم شعر أحسن من آذن
 يكون ذلك لهم) ^(٣) .

(١) انظر المدة لابن رشيق ٣٢٣-٣٨

(٢) مطبقات نحول الشعراء ١-٢٤٧

شعر قريش ضد المسلمين :

منزلة الشعر وتأثيره في نفوس العرب وحياتهم أمر لا يحتاج إلى توضيح ، ولذلك يمكن أن نتصور مدى تأثير الشعر في الصراع المحمدي بين المسلمين والشركين من قريش ، ولنا أن نتصور أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليطلب شعراً المسلمين يستعين بهم في هذا الصراع لو لا إحساسه بخطورة الشعر وتأثيره في هذا الصراع ، والروايات تؤكد تأثير الشعر الخطير حيث ذكرت ، فهذا صفوان بن أمية وهو من زعماء الشرك يحشد للاعداد للحرب في أحد ، فيجعل من أهله ما يحشده الشعر لإثارة النفوس إلى القتال ، فيطلب من أبي عمرو بن عبد الله الجسحي الشاعر القرشي المشهور بتأيي عزة قاتلا : يا أبا عزة إنك أمرت شاعر فأعنينا بساننك ، وانخرج معنا ، ومع أن أبا عزة كان قد من عليه التي يوم يدر فاطلقة مقابل موئق أخيه عليه ، ألا يعين على المسلمين بشعره ، ومع ذلك فإن صفوان بن أمية ما زال به حتى استعماله فخرج ومعه شاعر جمحي آخر هو مسافع بن عبد مناف بن وهب يحرضان الشركين ، ويجمعان بشعرهم الجموع لقتال المسلمين .

ومن التأثير النفسي للشعر ما عبر عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين سمع هندا بنت عتبة ترتجز ببعض الشهـ بعد انتصار المسلمين في أحد ، شامته في المسلمين ، متشفية بقتل حمزة رضي الله عنه وتمثيلها به ، فقال عمر بعد ذلك لحسان بن ثابت : لو

سمعت يا ابن الفريعة ما تقول هند ، ورأيت أشرها ^(١) قائمة على
صخرة ترتجز بنا ، وتذكر ما صنعت بحمره ! قال حسان : أسمعني
بعض قولها أكفهموها ، فأشدده عمر بعض ما قالت ، فهجاها حسان
بشعر منه ^(٢) :

أشرت لکاع وكان عادها لوما إذا أشرت مع الكفر
ونظرة إلى ما روى الأخبار من الأشعار الكثيرة المتداولة بين المسلمين
في المدينة ، وشراط قريش في مكة أثناء الحرب المشتعلة بين الفريقين
طوال السنوات العشر التي عاشها النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة
هذه النظرة تربينا أهمية الشعر في هذا الصراع بين الفريقين وتأخذ
مثالاً لذلك ما قيل من شعراً المطربين في موقعة أحد وأثارها نرى هنا
الكم الكبير من الشعر ، والذى اشتراك فيه عبد الله بن الزبيري وضرار
ابن الخطاب الفهرى ، وأبو عزة الجمحي ، ومسافع بن عبد مناف ،
وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهبيرة بن أبي وهب ،
وعمر بن العاص ، وهند بنت عتبة من شعراً الشرك في مكة ، وحسان
ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهند بنت أثابة
من شعراً الإسلام في المدينة .

وإذا افترضنا أن بعض هذا الشعر أو كثيراً منه غير صحيح في
نسبته إلى أصحابه كما يوضح ذلك ابن هشام وابن سلام ، بل لو

(١) الأشر الترور والبلار

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٦٠٨-٤

افتراضنا أن هذا الشعر كله غير صحيح وأنه منحول على هؤلاء الشعراء فمن الواضح أنه حينئذ يكون عوضاً عن شعر قيل في هذه المناسبة ، ولكنه فقد ، فقيل هذا الشعر ووضع مكانه ، يعني أن الرواية في هذه الحقبة القريبية من هذه المناسبة كانوا يعلمون أنه قيل في هذه المناسبة شعر من هؤلاء الشعراء ، ولكن كلاً الطرفين كان مشغولاً عن الشعر بما هو أهم فلم يتمروا بروايته ، أو أن دخول مكة في الإسلام جعل المسلمين حرياً واحداً ، فلم يكن هناك داع لروايته ، لأن رواية مثل هذا الشعر الذي يمثل حرباً من فريقين إنما تروج في حال وجود الصراع والتنافس بين هذين الفريقين : أو نحو ذلك من الأسباب التي جعلتهم لا يروون هذا الشعر

نقول إذا افترضنا أن هذا الشعر كله موضوع ومنحول ، فمن البديهي أن الذين وضعوه إنما حاكوا به شعراً عرفاً وعرف المجتمع حينذاك أنه قيل في هذه المناسبة ، كما يشير إلى ذلك كارل بروكلمان في رده على بعض المستشرقين الذين يزعمون أن الشعر الجاهلي كله منحول ^(١) ومحمد ابن إسحاق الذي دون هذه الأشعار في كتاب (سيرة النبي) كان قريباً للعهد بهذه المناسبة ، وقد ولد في المدينة وهي موطن هذه المناسبة ، وعاش فيها نحو من ثلاثين سنة قبل رحيله عنها ولقى أكثر من شخص من علماء التابعين وأحد عنهم ^(٢) ، وكان

(١) انظر تاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان

(٢) ولد ابن أسمى نحو سنة ٨٨ هـ بمصر والمدينة ، وتوفي نحو سنة ١٥٦ بدماد

عصرة حافلا بالرواة والعلماء ، فلو أنه روى شعرا ولم يكن قد قيل في هذه المناسبة شعر لكتابه أكثر من شخص ، ولكن الذين شكوا في هذا الشعر لم يشكوا في أنه قيل شعر من شعرا طرف الصراع ، فهذا أمر لا نزاع فيه ، ولكن الشك هل ما رواه ابن اسحاق هو عن الشر الذي قيل ، أم أن الشر الذي قيل ضاغط بعضه فوضع بعض الشعراء المتأخرین شعرا مكانه ، أو زادوا عليه ؟

ولكن ذلك لا يعنينا هنا ، إنما يعنينا ذلك لو كنا في مقام تحقيق هذا الشعر أو تحليله أو دراسته الأدبية ، أما الذي يعنينا هنا فهو أنه قد قيل خلال الصراع بين المسلمين والشركين شعر من شعرا مكة ضد المسلمين وأن هذا الشعر كان ذاتا تأثير ، سواء أكان هو الذي قيل أصلا ، أم أنه محاكاة للشعر الأصلي ، فالذى يهمنا الآن أن شعرا مكة قالوا شعرا كثيرا ضد المسلمين ، وكان لهذا الشعر تأثير كبير ، سواء في نفوس الشركين إثارة وحمية ، أو في نفوس المسلمين غضبا وسخطا ، فهذه الحقيقة لا نزاع فيها ، وبزيدها وضوها أن النبي صل الله عليه وسلم إنما طلب من شعرا المسلمين أن يرددوا على شعر الشركين من قريش في مكة ، ولو لم يكن لشعرهم تأثير ما عنى النبي به .

وحيث كان الذي يعنينا هو شعر مكة بوصفه جبهة ضد المسلمين لذلك نختار حديثا موجزا عن شاعر من هذه الجبهة .

عبد الله بن الزبوري

هو عبد الله بن الزبوري بن قيس بن عدي بن معد بن سهم^(١) وأبن الجوزي يقول إن الزبوري في اللغة المي، ولذلك لقب بعبد الله بن زغب الإيادي^(٢) ويقول إنه مختلف في صحبته، ولكن جمهور الرواة يتفقون على أنه أسلم بين يدي النبي صل الله عليه وسلم، ويسوق ابن اسحاق سبباً مباشرأً للإسلام، وهو أنه سمع هجاء حسان بن ثابت إيه، فخرج إلى رسول الله صل الله عليه وسلم فأسلمه، فقال حين أسلم بسبعة أبيات يخاطب بها النبي متذرها بما عما أسلفت من إساءة، وتتفق معظم المصادر على هذه الأبيات التي مطلعها:

يا رسول الملك إن لساني راتق ما فنتتْ إذ أنا بُورُ
ويصفه ابن سلام الجمحي بأنه أبرع شعراء مكة شرعاً، ويسوق
القصة التي أشرنا إليها آنفاً، والتي تتضمن أن قريشاً أصبحت ذات
يوم فإذا دار الندوة مكتوب عليها
الله قصيا عن المجد الأساطير ورثوة مثل ما ترشى السفاسير

(١) في بعض آياته هذا التسبب اختلفت بين الروايات

(٢) لم أجد مصدراً وافق ابن الجوزي في هذا والعلم التبع عليه باسم شخص آخر
من الترجم فلم اتفق فهو أهل الآخر في عيون الأخبار والسير لابن الجوزي ٢١٨

وأكلها اللحم بحثا لا خليط له . وقولها : رحلت غير مضت غير ^(١)
 فقالت قريش : ما قالها إلا ابن الزبيري ، وأجمعوا على ذلك ،
 فمشوا إلى سهم وطلبوه منهم أن يدفعوا إليها ابن الزبيري ليحكموا
 فيه حكمهم ، قالوا : وما حكمكم فيه ؟ قالوا : نقطع لسانه ،
 فوافق بنو سهم على أن يقطعوا لسان كل من يجهوه من شعراء قريش
 ففهم بنو قصي أنهم يشيرون إلى الزبير بن عبد العظيم الشاعر الذي
 كان حيئذا في رحلة إلى اليمن ، والذي كانوا يتوقعون أن يرد
 على ابن الزبيري بهجاء بني سهم رهطه ، فخافوا على الزبير ففكوا عن
 تعقب ابن الزبيري ، وما تأخذ من هذه القصة أن ابن الزبيري . كان
 لاما في مكة ، وأن شعره كان ذا طابع معين يمكن أن يميز عن غيره
 والتمييز علامة الجودة في أي فن من الفنون ، وما لم يكن للشخص
 طابع معين متميز في أسلوبه أو نشجمه أو مهنته يصفه عامة فلا يستحق
 أن يوصف بالجودة ، وشعر ابن الزبيري كان أشد أشعار المشركين
 إغاظة للأنصار ونبلا منهم ، ومن شعره المشهور في أحد ضد الأنصار
 قصيدة التي يقول فيها :

ليت أشياعي بيذر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأصل ^(٢)

(١) السفاسي: السفاسرة وقصي جد هاشم وبني سهم رهط الشاعر فرع آخر من قريش غير

في قصي يعني أن في قصي شلائم التجارة والسميرة وحب الطعام عن إعمال المجد
 (٢) الأشياخ السادة يعني ليت سادتنا الذين قاتلهم المسلمين في بيدر يزورون مقبلاته بالخزرج
 في أحد ولهم يتحدث عن الخزرج بالذات لأن سان بن ثابت فرغه في الشعر ثم

ولذلك يعده الرواة أشد شعراً للشك على المسلمين ، وله أشعار
كثيرة تروها كتب السيرة ، ومع ذلك فمن الواضح أن معظم شعره
ضد الإسلام لم تروه الرواة ، لأن فيه بطبيعة الحال ما ينفر المسلمين
من روايته ^(١)

(١) انظر ملقات فحول الشعراء لابن سالم ٢٣٢-١ وما يليها وتلخيص قهوم أهل الأثر
لابن الجوزي ٢٦٨ وسيرة ابن هشام ٨٧٥-٤ والمدة لابن رشيق ٦٥-٦ وديوان حسان بن
ثابت تحقيق سيد حتى ٨٠ هامش .

شعراء القبائل

وما سبق تتبين أن أفراداً قليلين هم الذين شغلوا بالدين الجديد وهم النفر الذين نصبو أنفسهم للدفاع عنه في المدينة ، والنفر الذين نصبو أنفسهم للهجوم عليه في مكة ، وكل من الطرفين وإن كانوا لم يستخدموا شعرهم في حقيقة الأمر للدين نفسه وإنما استخدموه ضد الجهة المضادة لهم ، يعني أن شهادة كل طرف لم يتموا في الواقع الأمر بالدين نفسه بقدر اهتمامهم بالهجوم على أعدائهم في الطرف الآخر إلا أن شعرهم مع ذلك يعد مرتبطة بالدين الجديد ، إما له وإنما عليه ، على أنه لم يكن يخلو شعر الطرفين من إلعام بالحديث عن الدين ولو مروراً عابراً أو خاططاً إما إشادة به وإنما تهويتا من شأنه أو تشفيراً منه .

وأما شعراء العرب المتبنون في القبائل حاضرها وباديتها فهم على كثريتهم ، وعلى تفوق بعضهم في الشاعرية تفوقاً واضحأً فمن الغريب أنهم لم يشغلوا أنفسهم بالدين ، رغم أن بعضها غير قليل منهم كانت قبائلهم مشتركة في الصراع الدیني إما تأييدها وإنما معارضتها ، بل الأغرب من ذلك أن كثيراً من هؤلاء الشعراء كان يشارك قومه في هذا الصراع تأييدها أو رفضها ، سواء أكانت مشاركته بالقتال أم بغيره القتال ، فكثير من الشعراء تحدثنا الروايات بأنهم شاركوا قومهم أشد

المشاركة وأقواها في موقفهم من الإسلام ، ولكنهم لم يعبروا عن هذه المشاركة أو عن انفعالهم بها بشعرهم تعبيراً واضحاً أو محدداً ، مع أنه من المشهور والمعروف عن شعراء العرب منذ عرقو الشعر وهم يعبرون بشعرهم عن كل ما تنفعل به مشاعرهم وما يشغل حياتهم ، فقد عبروا عن كل شيء في حياتهم ومشاعرهم تعبيراً ملحوظاً إلا عن موقفهم من الدين ، وحتى في القصائد القليلة التي قالوها مرتبطة بالإسلام كقصيدة كعب بن زهير المشهورة (بانت سعاد) فلم تكن في حقيقتها تتحدث عن الإسلام وإنما كانت تعبّر عن خوف كعب من وعيد النبي صلى الله عليه وسلم إيه بالقتل ، وعن توسله إليه طالباً الغفو.

وحين نلتئم تعليلاً لانصراف شعراء القبائل العربية عن التعبير عن موقفهم من الإسلام بالشعر لا تستطيع أن تنتهي لهم لم يهتموا بالإسلام ، وأن عدم اهتمامهم به لم يثر مشاعرهم إلى الشعر ، فإن شاعراً من صفة شعراء العرب وأصحاب العلاقات مثل لبيد بن ربيعة العامري يبلغ من إيمانه بالإسلام ومن انفعاله ببيان القرآن الكريم أن هجر أعز ما يعتر به ، وما ميزة بين العرب بمكانة سامية وهو الشعر ، قائلاً إن القرآن يغتبه عن الشعر ، فلماذا لم يعبر عن مشاعره نحو الإسلام بالشعر؟ ولماذا لم يخدم الإسلام بشعره بدلاً أن يهجر الشعر؟ ولا تستطيع أيضاً أن تقول لهم استجابوا لتنفير القرآن الكريم من الشعر في سورة الشمراء ، فإنهم جميعاً باستثناء لبيد بن ربيعة ظلوا يزأرون الشعر كما كانوا يزأرونه قبل هذا التنفير ، فضلاً عن

أن هذه الآيات من سورة الشعراء نزلت في المدينة ، وطوال وجود الدعوة الإسلامية في مكة قبل هجرة النبي صل الله عليه وسلم إلى المدينة لم يظهر الشعراء في شعرهم موقفهم من هذا الدين ، وقد يقال إن الإسلام حينئذ لم يكن ظاهرا ، والجواب أن الذي لم يكن ظاهرا هو الصراع حول الدين ، فلم تكن القبائل تشعر شعراً وأيضاً بما يدور في مكة حول هذا الدين من صراع ، أما الدين نفسه فقد انتشر خبره في كل القبائل ، وكانت قريش نفسها من أهم عوامل انتشار خبره ، فقد كانوا يزيلون آن ينفروا القبائل منه ، فينشرون بين وقود الجميع من مختلف القبائل هذا التنبير ، ومن الواضح أن الشعراء حينئذ علموا خبر هذا الدين ، ولكنهم لم يعبروا عن موقفهم منه ، لا رفضاً ولا تأييداً .

بل إن القبائل العربية وقفت من الدين الجديد موقفاً بالغ الضراوة والشدة ، حينما ارتدت القبائل جميعاً عن الإسلام بعد وفاة النبي صل الله عليه وسلم ما عدا مكة والمدينة ، حتى تحول هذا الموقف إلى حرب شديدة العنف ، ومع ذلك أيضاً لم يبلغنا أن شعراً هذه القبائل عبروا عن موقفهم من الدين في شعرهم تعبيراً وأيضاً .

ومهما يكن من شيء ، ومهما نلتمس من أساليب لإعراض شعراً العرب عن التعبير عن موقفهم من الإسلام في شعرهم ، فلا أظن أننا سنجد سبباً معيناً يقنعنا كل الألقابع موقف الشعرا من الدين ، ولعل أقرب الأساليب إلى النقوس أن نقول إن الصراع حول الإسلام لم يكن

من بدايته في حقيقة الأمر صراعاً بـل ولا خلافاً حول الدين نفسه ، وإنما كان صراعاً على المصالح وعلى الكيان القبلي ، أما الدين نفسه من حيث هو عقيدة فلم يكن موضع الخلاف والصراع ، يعني أنهم منذ سمعوا الدعوة إلى الدين الجديد أحسوا فيما بينهم وبين أنفسهم أنه الدين الحق ، وأن الأنسان الذي يتخذونها آلهة هي مجرد وهم باطل لا يرقى في أحمق نفوسهم إلى درجة الموارنة بين الله سبحانه وتعالى والأنسان وقد سجل القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من موضع كقوله تعالى « وَلَئِنْ سَأَلْتُمُّهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُوا إِنَّهُ هُنَّ مُجْرَدُ وَهُمْ بَاطِلٌ ۝ إِذْنٌ فِي أَنَّ اللَّهَ هُنَّ حُقُوقٌ ۝ وَإِنَّ أَنْسَامَهُمْ وَكُلَّ آلهَتِهِمْ بَاطِلٌ ۝ وَهُنَّ هُوَ جُوهرُ الْإِسْلَامِ ۝ وَجُوهرُ كُلِّ الْأَدِيَانِ ۝ كَمَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (خَيْرٌ مَا قَاتَلَهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فَهُمْ إِذْنٌ فِي دَارِنَفُوسِهِمْ لَا يُعَارِضُونَ الدِّينَ الْجَدِيدَ فَضْلًا عَنْ مَعَادِهِ ، وَإِنَّمَا يُعَارِضُونَ كُلَّ مَا يَحَاوِلُ أَنْ يَسْلِبَهُمْ مَصْلَحةً شَخْصِيَّةً أَوْ كِيَانًا قَبْلِيًّا ، وقد تصوّروا أنَّ هَذِهِ الْمُؤْمِنَةِ النَّاسِيَّةِ بِاسْمِ هَذِهِ الْمِنَافِعِ عَلَيْهِمْ مُصَدِّرُ الْخَطْرِ عَلَى هَذِهِ الْمَصالِحِ وَعَلَى هَذِهِ الْكِيَانِ ، فَأَخْلَوْا يَقَائِمُونَ هَذِهِ الْجَمَاعَةِ النَّاسِيَّةِ ، وَالْأَغْرِيَادِ يَدَافِعُونَ عَنْ مَصَالِحِهِمْ وَأَمْجَادِهِمْ ، وَالْقَبَائِلِ تَدَافَعُ عَنْ كِيَانِهَا وَعَصَبَيْتِهَا وَهَكُذا كَانَ الْأَمْرُ فِي كُلِّ مَوَاقِعِهِمْ ضَدَّ الْإِسْلَامِ ، بِمَا فِي ذَلِكَ مَوْقِعِ الرَّدَّةِ فَلِيَقُولُوا لَمْ يَرْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ بِوَصْفِهِ دِينًا وَعَقِيْدَةً ، وَإِنَّمَا ارْتَدُوا عَنِ الْإِسْلَامِ لَأَنَّهُ فِي نَظَرِهِمْ يَعْسُنُ هَذِهِ الْمَصالِحُ وَهَذِهِ الْمُصَبَّبَةُ ، وَلَذِكَّرَ كَانَ حِجَّتُهُمْ هِيَ رَفْضُ الزَّكَاةِ لَأَنَّهَا تُخْيِلُ إِلَيْهِمْ أَنَّهَا جُزِيَّةٌ تُفْرَضُهَا قَرِيبًا عَلَيْهِمْ ، وَالَّذِينَ لَمْ يَحْجُجُوا بِالْزَّكَاةِ مِنَ الْمُرْتَدِينَ تَصْوِرُوا أَيْضًا أَنَّ

وجود السلطة في قريش بعد النبي صل الله عليه وسلم معناه أن قريشا سلبت من العرب كل شيء ، وأصبحت صاحبة السيادة والرياستة والملك مع اقتران هذا بمحو كيان القبائل وعصبيتها ، فإن الإسلام لا يعترف بعصبيه ولا يميز كيانا عن كيان إلا في حدود تشريعه ومبادئه وهذا ما يصطدم بالعرف العربي القبلي .

ونخرج من هذا بأن الإسلام من حيث هو عقيدة لم يكن فيحقيقة الأمر موضع الصراع أو الخلاف بين العرب ، وإنما الصراع والخلاف حول المصلحة الشخصية والعصبية القبلية ، ولذلك لم ينفع الشعراء بجانب العقيدة نفعا لا يشير شاعريلهم ، وإنما انفعوا بجانب العصبية ، ولذلك عبروا عن موقفهم منها بالأشعار كبيرة ، ولذلك كان كل الشعر المرتبط بالإسلام كالأشعار التي قيلت في الغزوات إنما تدور في جوهرها حول الصراع القبلي والحزبي ، وليس حول الدين نفسه .

وقد يقال إن الأشكال ما زالت قائمة ، وهو أنه إذا كان العرب ومنهم الشعراء قد أحسوا في دخيلة نفوسيهم منذ بدء الأمر أن الدين الجديد حق ، فلماذا لم يعبر الشعراء عن هذا الإحساس حين أسلموا ؟ ويعکن أن يقال إننا لا ينبغي أن ننسى بعض الحقائق ، ومن هذه الحقائق أن الشاعر لا تتعلق شاعريته إلا حينما ينفعه بشيء له فيه مصلحة شخصية والشعراء لم يتذروا إلى الدين على أن فيه مصلحة شخصية لهم ، وإنما نظر إليه المؤمنون منهم على أنه نور أشرق عليهم كما تشرق عليهم وعلى غيرهم ، ومن هذه الحقائق التي لا ينبغي أن ننساها أن القرآن الكريم

سجل على الشعراء - إلا من استثنى منهم - أنهم لا يسلكون سبيل الهدى ، وإنما يسلكون سبيل الغواية ، ولو لا هذا لنظروا إلى الدين على أنه مصلحة شخصية لهم فوق كل مصلحة ، وبالتالي كان يتبيّن أن تجود شاعريتهم فيه بأجود ما تجود به من شعر .

والشعراء المخضرون ليسوا قلة ، ومع ذلك فهذا العدد الذي وصل إلى هنا خبره ، والذى يقارب المائة من المؤكد أنه لا يعبر عن العدد الحقيقي لشعراء هذه الحقبة ، وهناك أكثر من سبب يحول دون الوصول إلى العدد الحقيقي للشعراء حيث إن ، وأولها سبب شديد الوضوح ، وهو أنه لم تكن توجد في هذا مصر ، ولا في أي عصر حتى اليوم وسيلة لحصر الشعراء أو أصحاب أي مهنة أو طائفة ، أو لم يفكّر أحد في أي عصر في إيجاد هذه الوسيلة حتى الآن .

ومن هذه الأسباب أن العرب الأوّلين لم ينظروا إلى الشعر أساساً على أنه حرقه أو مهنة ، بل كان أسلوباً راقياً للتعبير عما في النفس ولذلك كان كثير من الناس يقولون الشعر دون أن يعترفوه أو أن يوصفوا بأنّهم شعراء في عصرهم ، حيث كان كثير من وجوه القوم وсадتهم يقرضون الشعر دون أن يتخذوه مهنة أو صناعة ، وإنما يقولونه في الذالب عفواً ، وحسبما يستدعي المقام ، وهؤلاء لم يكونوا معلوّدين من الشعراء ، وبالتالي لم تنقل إلى هنا أخبارهم على أنهم من الشعراء رغم أن بعضهم قد يكون أجود شعراً من كثير من الشعراء المحرفين .

والشعراء الذين عرفوا بين العرب بأنّهم شعراء محترفون للشعر

أو أن الظروف دعتهم إلى الإسهام بالشعر حتى أصبحوا كثيرون محترفون
أولئك وهؤلاء عدد غير قليل ، وهم منتشرون في كل القبائل ، وكلهم
عاصر الصراع حول الدين الجديد وأحس بهذا الصراع ، بل وكثير
منهم أسمهم يتفسّه في هذا الصراع ، ومع ذلك لم يسمعوا بشعرهم ، أو
كان إسهامهم في مجموعهم لا يكاد يذكر .

فمن الشعراء في هذه الحقبة لبيد بن ربيعة العامري ^(١) ، وعيبة
ابن مرداس ^(٢) المشهور بابن فسدة ، وسحيم من وثيل اليربوعي ^(٣)
والتابعة الجعدى العامرى ^(٤)

وضابط بن الحارث البرجمي ^(٥) وابن مقبل العامري ^(٦) والزبرقان
ابن بدر ^(٧) (وكثير بن العريزة التميمي ^(٨)) وحميد بن ثور الهلالي

(١) انظر ترجمة وأشعار ابن الأدب البهادى ٣٣٩-٢٤٦-٢ والمقدمة ٣-٤-٥
والمندة لابن رشيق ١٨٤-٢ حماية أبي تمام وشرح الملقات الزروزى ومصادر أخرى

(٢) انظر مخازنة البهادى ٢٦٥-١ وأمثال الثالث ٢-٣ ، والشعر والشعراء لابن قبية
٢-٦٤٣ أو صحيات

(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قبية ٢٨٩ ومخازنة البهادى ١٦٧-٣ والمقدمة ١٠٦-٥٣-١
والمقدمة ٤-٢٥٢ وشرح المخازنة ١-٤١٠

(٤) انظر الشعر والشعراء لابن قبية ٢٥٠-١ والأصمعيات للأصمى ١٧٩ وشرح
المخازنة ٣١١-١

(٥) انظر مخازنة البهادى ٢٣١-١ والشعر والشعراء لابن قبية

(٦) انظر سيرة ابن هشام والأصحاب لابن سهر المسقلاني

(٧) انظر تاريخ الأدب العربي شوق ضيف ٢-٥٦

العامري^(١) وحرث بن محفض التميمي^(٢) وخداش بن زهير^(٣)
وعبدة بن الطبيب التميمي^(٤) ومتمم بن ذويرة البرجمي^(٥) وقيس
ابن عاصم المقرى التميمي^(٦) وعمرو بن الأحتم التميمي^(٧).

ومن قبيلة بني سليم الخنساء^(٨) والعباس بن مرداس^(٩) والفارار
السلمي^(١٠) وعمرة بنت مرداس^(١١) وخفاف بن ندية^(١٢)
وأبو شجرة السلمي^(١٣)

ومن شعراء هذيل أبو خراش^(١٤) وأبو ذؤيب^(١٥) والبريق بن

(١) الأغافل للأصنفهان ٤ - ٣٥٦ والشعر والشعراء لابن قبية ١ - ٣٩٠ وشرح حامة
أبي تمام ٢ - ٣٤٠ والكامل البريد ٢ - ٨٥

(٢) الشعر والشعراء لابن قبية ٢ - ٦٤١

(٣) الشعر والشعراء لابن قبية ٢ - ٦٣٤٥ وعزارة البندادى ٤ / ٧٩ والمدة لابن رشيق
١ / ٧٦ وهو أول من ألقى قريشاً بمحنة

(٤) الأغافل للأصنفهان ٢٤ - ٢١ والشعر والشعراء لابن قبية ٢ - ٧٢٧ - ٢٠٠ وحامة أبي تمام ٣٢٨

(٥) عزارة البندادى ٢ - ٤٢١ وحامة أبي تمام ١ / ٣٣ والكامل البريد ٢ - ٢٩٨ - ٢٦٥ - ٥

وأنظر المتفايات الفري والأغافل للأصنفهان والشعر والشعراء لابن قبية

(٦) انظر حامة أبي تمام ٢ - ٢٦٣ والأصابة لابن حجر المستلاني

(٧) انظر شرح حامة أبي تمام ٢ - ٣٠٠

(٨) عزارة البندادى ١ - ٤٢١ والشعر والشعراء لابن قبية ١ - ٣٤٣ والكامل البريد

(٩) انظر ترجمته في آخر الكتاب

(١٠) انظر حامة أبي تمام ١ - ٥٧ وكان الفرار صاحب راية بني سليم يوم النجاح

(١١) انظر حامة أبي تمام ١ - ٤٥٨

(١٢) انظر الأسميات للأصنفهان ٢١ (ماشن) وعزارة البندادى ٤ - ١٥ والأغافل
للأصنفهان ١٨ / ٧٤

(١٣) انظر الكامل البريد ١ - ٢٣٩

(١٤) الأغافل ٢١ - ٢٦٦ والكامل البريد ١ - ٢٦٧ وعزارة البندادى ١ - ٤٤٠

وديوان المظلين

(١٥) الشعر والشعراء لابن قبية في مواضع كثيرة وعزارة البندادى ١ - ٤٢٢ وديوان

المظلين ١ - ٣٤ والمدة لابن رشيق ١ - ٨٨ - ٢١ والأغافل للأصنفهان ٢٠٨ - ٢١

عياض^(١)

ومن شعاء قريش سوى من سق ذكرهم في الحديث عن شعاء الشرك في مكة النعمان بن عدي^(٢) وعاتكة بنت زيد بن عمر^(٣) وصفية بنت عبد المطلب ابن هشام^(٤) وقيلة بنت الحارث^(٥) وهند بنت عتبة^(٦) وهناك عدد آخر تحدثت عنه كتب المغازي وخصوصاً سيرة ابن اسحق من قريش ونسبت إليهم أشعار في الحرث التي دارت رحاها بين المسلمين والمرشكين ومنهم عمرو بن العاص ، إلا أن معظم هذا الشعر غير موثق به .

ومن شعاء مزينة كعب بن زهير بن أبي سلمي^(٧) ومن شعرائها من بن أوس وأوس بن يحيى وبهير بن زهير .

ومن شعاء اليمن عمرو بن معديكرب^(٨) وأبو الطمحان القبيسي^(٩)

(١) انظر تاريخ الأدب العربي شوق شيف ٦٦/٢

(٢) انظر سيرة ابن هشام ٨٢٤/٢

(٣) انظر حماسة أبي تمام ٤٦٠/١

(٤) المصدر السابق ٢ / ٣٧٥ وهي أم الزبير بن العوام وعمة النبي - صل الله عليه وسلم -

(٥) انظر سيرة ابن هشام ٢ / ٥٥٨ والمتن لابن رشيق ١/٥٦ وهي التي عانى بها على قتل

أهباً

(٦) انظر سيرة ابن هشام ٣ / ٦٦٦

(٧) ديوان كعب والأغاني للأستهانف ١٧ / ٨١ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ١٥٤

سيرة ابن هشام ٢ / ٨٥٩ والمتن لابن رشيق ١ / ٢٢ وديوان حماسة أبي تمام ٤٠٥/١

(٨) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٧٤ - ٣٧٥ وديوان البناوي ٤٣٦-٤٤٤/٢

وديوان الحماسة لابي تمام ١ / ٤٣ - ٥٢ والأسمايات للأسماني (هاش) والأسأل للقال ١٤٥/٣

(٩) الأغاني للأستهانف ١٣ / ٣ والشعر والشعراء لابن قتيبة ١ / ٣٨٨

والنجاشي الحارق^(١) وقيس بن المكشوح المرادي^(٢) وبشر ابن ربيعة الخعمي^(٣)

ومن شعراً ثقيف المغيرة بن شعبة^(٤) وأبو محجن^(٥) ومن شعراً قيس الأغلب العجلي^(٦) والنصر بن تولب^(٧)

ومن شعراً ذبيان الشماخ بن ضرار^(٨) ومزود بن ضرار^(٩)

ومن شعراً المدينة سوى من سبق ذكره من شعراً الاسلام النعمان ابن بشير^(١٠) وأبو قيس بن صرمة^(١١)

ومن الشعراء العذانيين على اختلاف قبائلهم الخطيبة المتسب إلى

(١) النمر والشعراء، لابن قتيبة ٣٢٩ وغزارة البغدادي ٤ - ٧٦ والمسدة لابن رشيق ٥٢ - ٥٣ ومواضع أخرى

(٢) انظر تاريخ الادب العربي د. شوق شيف ٦٣/٢

(٣) المصدر السابق ٦٣/٢

٧٤/١١

(٤) الاخفاف للاصبهان ١٩/١٠ - ١١ النمر والشعراء، لابن قتيبة ٤٢٣/١

(٥) الاخفاف للاصبهان ٢٨/٢١ النمر والشعراء، لابن قتيبة ٦١٣/٢ وغزارة البغدادي ٢٣٩

(٦) الاخفاف للاصبهان ٢٢ / ٢٧٢ - ٢٧٣ والشعراء، لابن قتيبة ٣٠٩/١ وغزارة البغدادي ٣٢١/١

(٧) النمر والشعراء، لابن قتيبة ٣١٥/١ وديوان المعاشرة لابن تمام ٤٤٢/١ وغزارة الادب البغدادي ١٩٦/٣ وكامل البرد ٧٦/١

(٨) النمر والشعراء، لابن قتيبة ٣١٥/١

(٩) الاخفاف للاصبهان ١٦ / ٢٨ والمسدة لابن رشيق ٨٨/١

(١٠) الاخفاف للاصبهان ١٦ / ٢٨ والمسدة لابن رشيق ٢ / ٣٠٦ وتلقيح فهوم أهل الآثير لابن الجوزي ١٥٥

(١١) انظر تاريخ الادب العربي د. شوق شيف وفيه أبو قيس صرمة

قبيلة بني عبس^(١) واللعين المترى^(٢) والأقىشر الأسدى^(٣)
وشوبيد بن كراع العكلى^(٤) وأنس بن أناس الدوى^(٥) وأبو
الأسود الدوى^(٦) وربيعة بن مقرنون الضبي^(٧) ومعبد بن علقمة^(٨)
وحرقة بنت التعمان بن المنذر^(٩) وعمرو بن أحمر الباهلى^(١٠)
وزرعة بن عمرو بن خوبيل^(١١) وشبيل بن وبقاء اليبربوعي^(١٢) وقطامة
بنت الأحجم الخزاعية^(١٣) ونهشل بن حرى الحنظلى^(١٤) وأمية بن
الأسكندر البكري^(١٥) وزيد بن حارثة^(١٦) وعمر وبن شاس^(١٧)

- (١) انظر الاخفى للاصفهانى / ٢٠٣ - ١٥٦ والشعر والشعراء لابن قتيبة / ١ ٣٢٢/١ ونزارة
البغدادى ٤ - ٤٠٦ - ٢٨٧ والصلة لابن رشيق ١ / ٧٦ وال الكامل للبرد ١
(٢) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة / ١ ونزارة الادب البغدادى ٤٠٧/٤
(٣) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة / ٥٥٩ ونزارة الادب البغدادى ٤٨٧/٤
(٤) انظر الشعر والشعراء لابن قتيبة / ٦٣٥/٢
(٥) المصدر السابق ٧٣٨/٢
(٦) المصدر السابق ٧٢٩/٢ وتاريخ الادب العربي شوق شيف ٤٠/٢
(٧) الاخفى للاصفهانى ٤٧/٢٢ وشرح حمامة أبي تمام ١٢/٤ ٢١٠ ، ١٢/١
(٨) شرح حمامة أبي تمام ٤٥١/١
(٩) انظر شرح حمامة أبي تمام ٥٢/٢ وفيه شعرها يوم القادسية أيام سعد بن أبي وقاص
(١٠) المصدر السابق ٣٣٦/٢
(١١) المصدر السابق ٣٤٤/٢
(١٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة / ٤٤٢/١
(١٣) شرح حمامة أبي تمام ١٣٧/١
(١٤) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦٣٧ ونزارة الادب البغدادى ١١٢/٣ والمدة لابن رشيق
٣٠٦/٢
(١٥) الاخفى للاصفهانى ٨/٢١
(١٦) نزارة الادب البغدادى ٣٠٦/٢
(١٧) تاريخ الادب العربي شوق شيف ٦٤/٢ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٤٣٥
والاخفى ٣ / ١ .

والحارث بن مرة ^(١) والمخبل بن زبيعة بن مالك من بنى أذن
الناقة ^(٢) ومسويد بن أبي كاahl الشكرى ^(٣) والأعشى بن قيس
ابن ثعلبة البكرى ^(٤) والحسين بن الحمام الرى ^(٥) وعمرو بن
الجموح السلى من بنى سلمة ^(٦) وأوس بن عفراه ^(٧) وزياد ابن
حنظة والأسود بن قطبة ^(٨).

ومن الشعراء غير العرب سعيم العبد ^(٩) ومن شعراء الماقفين
أبو عClark وعاصماء بنت مروان ^(١٠)

والطابع العام لشعراء القبائل من حيث الدين ، هو عدم اهتمامهم
به في شعرهم ، فجئن نتتبع شعرهم بصفة عامة نلحظ أن الدين لم
يشغلهم في شعرهم ، وإن شغل بعضهم به في سلوكه أو عقديته تأييداً
أو إعراضًا ، أما في الشعر فلم يجعلوا الدين موضوعاً أصلياً فيه ،
وذلك لأكثر من سبب ، ومن هذه الأسباب كما سبق أن الدين كان

(١) تاريخ الادب العربي شرق نسخة ٤٤/٢

(٢) الشمر والشمراء لابن قهوة ٤٢١

(٣) الشمر والشمراء لابن قهوة ٤٢١

(٤) تاريخ الادب العربي كارل بروكلمان ١٤٧/١

(٥) تاريخ الادب العربي شرق نسخة ٤٨/٢

(٦) منتخب قوم أهل الأثر لابن الجوزي ١٤٤

(٧) تاريخ الادب العربي شرق نسخة ٦٦/٣

(٨) المصدر السابق ٦٥/٢

(٩) الميزان والأغاني للأستهان ٢٢ / ٣٠٣ والشمر والشمراء لابن قهوة ١٤٨/١ وعزانة
الأدب البغدادي ٤/١٠٢

(١٠) الفتر سيرة ابن هشام ١٠٥١

أمراً عاماً لا يشغل فرداً أو شاعراً بعينة ، وليس هناك إغراء أو حافز شخصي للشاعر كالعصبية القبلية أو التطلع إلى العطاء ونحو ذلك ، ولذلك لم يكن الدين حينئذ غرضاً واضحـاً من أغراضـهم .
ونسوق حديثاً موجزاً عن بعض شعراء القبائل ، الذين يمثلون قبائل مختلفة ، ويمثل بعضـهم تزعـعات أو مواقـف خاصـة .

١ - الحطـيبة :

واسمه جرول بن أوس ، مشكوك في نسبـه ، وهو نفسه لم يستقر على نسبـ ، فأحياناً ينسب إلى بني عيسـ ، وأحياناً إلى بني ذهل ، وكان دمياً قبيحـ الهيئة قصيرـ القامة ، أسلم بعد وفـاة النبي صـلـ الله عليه وسلم ، ولكـنه كان إسلامـاً ظاهرـاً يـا لم يـيدـ فيـه الاعتقـادـ الـديـنـيـ الصـحـيحـ ، وكلـ الروـاـيـاتـ تـجـمـعـ عـلـىـ الشـكـ فيـ دـيـنـهـ ، وـقـدـ قالـ شـعـراـ مشـهـورـاـ أـشـنـاءـ رـدـتـهـ يـحـرـضـ الـمـسـلـمـينـ فـيـهـ ضـدـ خـلـاقـةـ آـبـيـ بـكـرـ ، وـكـانـ شـدـيدـ الـبـخـلـ ، مشـهـورـاـ بـالـشـعـشـعـ ، وـلـهـ فـيـ ذـلـكـ قـصـصـ كـثـيرـةـ .
فقد اجـتمـعـتـ فـيـ الحـطـيـةـ إذـنـ كـلـ مـساـوـيـ النـسـبـ ، والـهـيـةـ ، والـخـلـقـ ، والـدـيـنـ ، وهذا من شـائـعـهـ أنـ يـعـلاـ نـفـوسـ النـاسـ نـفـورـاـ مـنـهـ ، وـأـنـ يـعـلـلـ نـفـسـهـ خـفـيـةـ عـلـىـ النـامـ وـحـقـداـ عـلـيـهـ ، وـكـانـ هـذـاـ مـنـ أـسـابـ

(١) انظر في ترجمـةـ وـشـمـ: دـيوـانـ دـيوـانـ حـسـانـ بـنـ ثـابـتـ وـالـأـنـاثـ الـأـسـطـهـانـ ٤/٤ ، ٤/٣٢٧ـ وـشـمـ: أـبـنـ هـشـامـ فـيـ أـسـارـ الـزـوـاـتـ وـمـوـاضـعـ أـخـرىـ ، وـالـسـيـدةـ لـابـنـ دـشـقـ ١ـ ٤٤ـ ٤٤ـ ٦٧ـ ٥٣ـ ٨٩ـ وـالـشـعـرـ وـالـشـمـاءـ لـابـنـ قـبـيـةـ ١ـ ١٠٥ـ وـسـيـاسـةـ لـابـنـ دـشـقـ ١ـ ٤٠٢ـ ٣١٩ـ وـعـزـةـ الـيـنـدـيـ ٤ـ ١ـ ٧٤ـ ٢٢٧ـ وـمـوـاضـعـ أـخـرىـ ، وـقـارـبـ الـأـدـبـ الـعـربـيـ كـارـلـ بـرـوكـسانـ ١ـ ١٥٦ـ ، وـأـسـدـ النـايـةـ فـيـ سـرـقةـ الصـحـابةـ لـابـنـ الـأـثـيـرـ

سيطرة نزعة الهجاء على شعره ، فقد أصبح الهجاء سليمة فيه ، يجو
لأوهي الأسباب ، بل وبدون سبب في كثير من الأحيان ، فإن لم يجد
من يشبع فيه نزعة الهجاء هجا آباء ، أو أمه ، أو زوجه ، أو نفسه
وله في ذلك أخبار مشهورة .

وأما من حيث الشاعرية ، فقد كان شعره وخاصة الهجاء من أجود
الشعر العربي ، والأغراض التي طرقها الحطيثة يعد شعره فيها أجود
شعر عصره على الإطلاق ، والنقاد القدامى يصرحون بتفوق الحطيثة في
شعره رغم سخطهم على خلقه ودينه ، ومن هؤلاء ابن سلام وأبو عبدة
والأسمعي وأبن دريد وبالأخصون حديثهم عن شعره بأنه ما من شاعر إلا
وفي شعره مطاعن ، أما الحطيثة فقلما يجد الناقد مطعنة في شعره ،
ويصفون شعره باللذيع والانتشار ، ويصفونه بأنه شرور القافية ،
والحطيثة يعرف قدر شعره وتاثيره ، ولذلك يقول لكمب
ابن زهير مرة : ذهب الفحول غيري وغيرك ، وسئل من أشعر الناس
فأخرج لسانه ، ثم قال : هذا إذا طمع ، ومن تأثير شعره أنه استطاع
أن يغير من نظره الناس إلى بني أنت الناقة ، فيرفع من قدرها ،
وتحببهم الخجل من هذا اللقب ، ببيت من الشعر مدحهم به ، وهو :
قوم هم الأدب والأذناب غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة النبسا
كما أنه جعل الزيرقان بن بدر وهو من أكبر سادات تم يشعر
بهان قدره وقدر ذويه حين هجاه بقصيدة المشهورة ، والتي كانت
موجة الهجاء ، رغم خلوها من مقطوع الألفاظ ، فقد اعتمد فيها الحطيثة

على التصوير (الكاريكاتيرى) الساخر ، كتصويره يخل آل الزبرقان بأنه حاول عيناً استدار أو شيء من عطائهم ، مشبهاً إياهم بناقة حاول هو بكل جهده ، وبكل أساليب الحلب أن يستدر قطرة من ضرعها فلم يفلح ، فيقول :

لقد مرِّيْتُكُمْ لَوْ أَنْ دَرِّيْتُكُمْ يَوْمًا يَجِيْعُ بِهَا مَسْحِيْ وَإِبْسَانِي^(١)
ومن ذلك سخريته من الزبرقان بقوله

دُعَ الْمَكَارِمُ لَا تَرْحُلْ لِبِيْتِهَا وَاقْسِدْ فِيْلَكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي
مَقْتِبِيْسَا الشَّطَرِ الْأَخِيرِ مِنْ مَضْمُونِ قَوْلِهِ تَعْالَى (ذَقْ إِنْكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ)^(٢).
يَعْنِي أَنْكَ بِذَلِكَ جَهَدْتُكَ تَطْعُمْ وَتَكْسُوْتُ بَلْغَ الْمَكَارِمُ فَلَمْ تَبْلُغْهَا ، وَلَمْ تَقْرَبْهَا
وَمَا لَا شَكَ فِيهِ أَنَّ الطَّابِعَ الْخَلْقِيِّ وَالْمِيْنِيِّ الْبَالِعَ السُّوَءَ الْمُحْبِطَةِ
قَدْ حَطَّ مِنْ قَدْرِهِ كَثِيرًا ، وَمَنْ قَدْ شَعَرَهُ حِينَذَاكَ وَلَوْ قَلِيلًا ، وَلَوْلَا هَذَا
لَكَانَ لَهُ فِي مَجْمِعِهِ شَانٌ غَيْرُ هَذَا ، وَلَكَنْ ظَلَ رَقِيقُ الدِّينِ وَاهِيَ الْعَتِيدَةِ
حَتَّى مَاتَ ، وَمَا يَرَوْيُ أَنَّهُ حِينَمَا أَحْسَنَ الْوَرْتَ أَوْصَى عَالَمَ الْأَنْثَى مِثْلَ حَظِّ
الْدَّكْرِ ، فَقَسَلَ لَهُ : لَيْسَ هَكَذَا أَفْضَى اللَّهُ ، قَالَ : وَلَكِنْ هَكَذَا قَضَيْتَ^(٣)

٢ - أبو ذؤيب الهدلي :

واسمه خويلد بن خالد ، من هليل ، وقبيلة هليل عرفت بصفات

(١) مرِّيْتُكُمْ : من موى الناقة أي سمح ضرعها ، والقدرة الين والإيسام : صوت تشكين الناقة للطب فيقولون لها : بس . بس يعني لم أصلع أن أستنزل من ضرعكم قطرة

(٢) انظر نصوص أدبية من المسرح الإسلامي المؤلف

(٣) انظر في ترجمته وأخباره الأخلاق الاصفهاني ١٥٦-٢ ٢٠٣/٤٠٦-٢ وعزارة البنداري ٢٣٢-٣٢٢ و المسدة لأبن الرشيق ١-٧٦ والتكامل البردي ١-٢٣٢

معينة كانت تبهرها عن غيرها ، وهذه الصفات تنحصر في جانبين ، أحدهما الشاعرية ، والآخر ما يتعلق بحياة الصداليك وخصائصهم ، من شدة العدو ، ودقة الرى ونحو ذلك ، وأخبار العلماء القدماء فى ذلك متفرقة ، فالأسقفيان يروى عن الأصمى قوله (إذا فاتك الهلال أن يكون شاعراً أو ساعياً أو راماً فلا خير فيه) والجاحظ . ينقل عن يونس بن حبيب قوله (وليس في هليل إلا شاعر أو رام أو شديد العدو) وفي جيل أبي ذؤيب كانت هليل تحمل الشهرة بأنها أشعر قبائل العرب ، كما كان أبو ذؤيب يحمل الشهرة بأنه أشعر هليل ، فهذا ابن رشيق يروى عن حسان بن ثابت أنه سئل : من أشعر الناس ؟ قال : أرحاً أم حياً ؟ قيل : بل حيا ، قال : أشعر الناس حيا هليل ، ويروى ابن رشيق عن ابن الجهمي قوله : أشعر هليل أبو ذؤيب غير مدافع ، بل يروى ابن رشيق أن التوراة تحدثت عن أبي ذؤيب بأنه مؤذن زوراً ، وأن اسمه فيها ، مكتوب بالسريانية ، ومقطم مثل هذه الروايات عن التوراة وتحوها كان مصدره اليهود لأغراض يتعلّق معظمها بالرغبة في أن يغزو بدينتهم الأديان الأخرى ، ومن هذا القبيل الأسراويليات الكثيرة المنتشرة في كتب التفسير .

وقد أسلم أبو ذؤيب ، ثم رحل إلى المدينة ليلقى النبي صل الله عليه وسلم ، ولكنه لم يقدر له أن يلقاء حيا ، فقد توفي النبي قبل وصول أبي ذؤيب إلى المدينة بليلة واحدة ، فحضر أبو ذؤيب الصلاة على جثمان النبي ثم دفنه .

ومات لأبي ذؤيب بنون خمسة في عام واحد بمصر ، أصابهم الطاعون أو قتلوا في الغزو حسب اختلاف الرواية ، فقال فيهم شعراً من أجود شعره ، وبقى أبو ذؤيب إلى خلافة عثمان رضي الله عنه ، فهاجر إلى مصر ، ولعله أراد أن يغري نفسه بالرحيل إلى أرض ثوى فيها بيته ، فرحل غازيا مع عبد الله بن الزبير إلى مصر ، ولكن المنية أدركته في بعض الطريق ، فدفن حيث مات ، ودلاه ابن الزبير في حضرته .

و واضح مما سبق أن أبي ذؤيب كان من الفحول المشهورين بالشاعرية ، ويشترك مع شعراً قبيلته في الإجادة في وصف الطبيعة وحيوان الصحراء ، والبيئة الوحشية لكترة الصعاليك فيهم ، وهو لاء كانوا أخبر الناس بالصحراء ومجاهدتها ووحشتها ، ويعتاز أبو ذؤيب بالإجادة في الحكمة والمعانى النفسية ، كما في بعض أبيات قصيدته التي رثى بها بنيه ، حيث شاع بعض أبياتها على الألسنة لصدق تصويرها للنفس ، رغم عدم العمق في معانيها أو صياغتها .

وسلوك أبي ذؤيب في الإسلام لم يكن معيناً ، وفي جاهليته كانت له مساقط في مسلكه ، وبخاصة فيما يتعلق ببعض النساء ، وقد تحدث عن ذلك في شعره ، في قصص مشهورة في الروايات ^(١) .

(١) انظر ديوان المطلين ١ - ٣٤ وغزالة اليهودي ١ - ٢) ٤ - والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢ - ٦٥٣ وموائع آخرى كبيرة والمقدمة لابن رشيق ١ - ٨٨ - والأغاني للأستهانى ٢١ - ٢٠٨ والبيان والتبيين الجاحظ .

٣ - العباس بن مرداس :

هو العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي ، نسبة إلى قبيلة بنى سليم التي كانت تعيش قريبا من مكة فيما بين العرج والأبواه في طريق المدينة ، وكانت من القبائل القوية ، وقد عقد لهم النبي صلى الله عليه وسلم لواء خاصا عند فتح مكة وهو زن بقيادة خفاف بن ندبة وكان لوازهم يقارب الألف مقاتل ، وقد أسلم العباس قبل هذا الوقت . وقد نشأ العباس في بيته تجمع بين السيادة والشاعرية ، فأبوه مرداس من سادة قومه ، وقد تربى العباس في جوار النساء الشاعرة المشهورة ، التي كانت زوجا لأبيه ، أو كانت أمها في بعض الروايات . وكان لهذين الجانبيين أثر واضح في شعره ، فقد اكتسب من البيئة صقل شاعريته ، فكان من أجدود شعراء عصره شعرا ، واكتسب من بيته السيادة نزعة الفخر التي تسلطت عليه حتى شغلت معظم شعره ، والتي لم يستطع التخلص منها حتى في أشعاره الكثيرة التي تدفق بها بعد انتصار المسلمين في فتح مكة وهزيمة هوازن أمامهم ، فقد قال العباس حينئذ أشعاراً كثيرة ، ولكن طابعها جميعا . يطلب عليه الفخر بقومه وشجاعتهم . وادعاء أنهم كانوا السبب في نصرة الرسول وال المسلمين ، ولو لاهم لم يكن نصر^(١) وحين أعطى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ جماعة من المؤلفة قلوبهم منهم عبيدة بن حصن والأقرع ابن حابس كلما منهم مائة ثقة ، وأعطي العباس دون ذلك خصبة العباس

(١) انظر نصوص أدبية ، من المسر الإسلامي المؤلفات .

قريش إلى بني هاشم ، ويروى أن النبي حينما بلغه هذا الشعر ، قال :
لوبخني هذا قبل قتله لمننت عليه^(١) .

ومن هؤلاء الشاعر فاطمة بنت الأحجم الخزاعية ، التي رثت
أباها بشعر مؤثر ، بادي الصدق وعمق الإحسان ، وكان أبوها من
سادات العرب في الجاهلية ، أما هي فقد أسلمت ، وهي معدودة في
الصحابة ، وقد ارتبطت رثاؤها لأبيها بمناسبة في الإسلام ، ذلك أن
فاطمة بنت النبي صل الله عليه وسلم ، أو عائشة زوجه في رواية أخرى
تمثلت به عند وفاة النبي ، ومن هذا الشعر^(٢) :

قد كنت لي جيلاً ألوذاً بظله فتركتني أضحي بالجراوة^(٣) ضاح
تدكنت ذات حمية^(٤) ما بعشت لي أمشي البراز وكانت أنت جناني
فالب يوم أخضع للدليل وأنتي منه وأدفع ظالمي بالراح^(٥)
وأغض من بصرى وأعلم آنه قد بان حسد فوارسى ورماتي^(٦)
وكونه يقال في رثاء النبي صل الله عليه وسلم ، وبخاصة من بنته
أو زوجه ، يجعل له ولنشراته شأنًا أو ذكرًا في تاريخ الإسلام .
ومن الشاعرات الباقي ارتبط ، ذكرهن بالمناسبات والملابسات ،

(١) سيرة ابن هشام ٢ - ٥٥٨ و ٥٢٧

(٢) شرح حامة أبي تمام للبريزى ١ - ٣٧٦

(٣) الأجرد الهمدى والنساجي المكتوف لا تخل فيه

(٤) الحميه العزة والبراز يفتح الباء الفاء، نعنى كفت طليقة حرة فموقتك قص جناني

(٥) بالراح تعنى لم يعدل سلاح إلا كفى

(٦) بان الفصل والحد تعنى به القوس

الجاهلية ، من قبيلة مريضة . والبيئة الاجتماعية التي نشأ فيها كعب تغلب عليها نزعات موروثان ، إيجادها نزعة الشاعرية ، ففي أسرة كعب منذ الجاهلية ، ثم لعدة أجيال في الإسلام سلسلة من الشعراء الذين توارثوا الشعر ، والتزعة الأخرى هي التدين الواضح في القبيلة عامة ، وفي أسرة أبي سلمي خاصة ، ومن آثار ذلك أن قبيلة مريضة كان لها عند فتح مكة أول مقاتل في جيش المسلمين ، وهو أكبر عدد من القبائل المختصة إلى الإسلام حينئذ ، تليها بني سليم التي بلغ مقاتلوها حينئذ نحو تسعيناتي رجل ، وكانت أسرة زهير واضحة النزوح إلى الدين ، كما يلاحظ. هذا في شعر زهير الجاهلي ، فرغم أن زهيراً كان جاهلياً إلا أن في شعره بما يؤكد إيمانه بالله وبالبعث بعد الموت مما هو مشهور من شعره ، وكذلك كعب نفسه نجد هذه التزعة في شعره قبل أن يعلن إسلامه ، ومن الملاحظ أنه حينما أنكر على أخيه بجير إسلامه قبل أن يسلم هو ، لم ينكر الدين نفسه ، وإنما أنكر خروج أخيه على دين آبائه وعادتهم ، وكان أخيه بجير الشاعر قد اتفق معه على أن يذهب إلى المدينة ليعلم علم هذا النبي الجديد ، فحين لقي بجير النبي صل الله عليه وسلم آمن ، وعز عليه أن يفارق قوام في المدينة ، فقضى كعب وقال شعراً يلوم فيه أخيه لما شبيداً على مقارقة دين آبائه ، ويعرض في هذا الشعر بشخص النبي ، ولخطوره الشعر حينئذ في الدعاية ضد الإسلام وصد الناس عنه ، أهدر النبي دم أمثال كعب ، وحين ضاقت عليه المذاهب في الأرض جاء إلى النبي مسلماً في قصته المشهورة ، وأنشده قصيدة (بانت مساد) التي أكسيت

كعبا شهرة وشرقا لا يطاؤلواون ، فهن تكاد تكون أشهر قصيدة في الإسلام ، ولا تنافسها قصيدة أخرى في موضوعها ، فمن الغريب أن الشعراء لم يتجهوا إلى جعل شخص النبي موضوعاً أساسياً لل مدح أو حتى الاعتذار إليه حينما يعلنون إسلامهم ، ولكن ذلك كان يأتي عدواً خلال الشعر ، فباستثناء قصيدة الأعشى التي كان يريد أن يقدمها بين يدي إسلامه أمام النبي في بعض مايروى والتي أورتها :

ألم تغتصب عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدنا

والتي يشك بعض الرواة في صحة نسبتها إلى الأعشى ، باستثنائها لا نعلم قصيدة أخرى كان موضوعها الأصلي مدح النبي أو الاعتذار إليه كما كانت قصيدة كعب ، ولعل جلال شخص النبي في عيونهم من حيث سيطرة صفة النبوة على كل صفاتـه من جهة ، ثم علمـهم بأن مجرد إسلامـهم يكتـسم عـفوـه دون حاجة إلى التـرددـ إليه بالـشـعرـ جـعلـهم لا يـركـزـونـ جـهـدـهـمـ عـلـىـ الـاعـتمـادـ عـلـىـ الشـعـرـ فـصـلـتـهـمـ بـالـنـبـيـ ،ـ وـلـكـنـ مـوـضـوـعـ (ـبـاـنـتـ سـعـادـ)ـ وـمـاـ صـاحـبـهـ مـنـ مـلـايـسـاتـ ،ـ وـمـنـ شـهـرـ كـعبـ وـأـبـيهـ زـهـيرـ جـعـلـهـ تـحـتلـ هـذـهـ المـزـلـةـ ،ـ وـبـخـاصـيـةـ أـنـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ أـظـهـرـ رـضـاهـ عـنـهـ ،ـ وـكـانـ يـشـيرـ إـلـىـ الـمـسـلـمـيـنـ خـلـالـ بـعـضـ فـقـرـاتـهـ أـنـ يـسـتـمـعـواـ ،ـ وـبـعـدـ أـنـ اـنـتـهـيـ كـعبـ مـنـ إـنـشـادـهـ أـلـقـيـ عـلـيـهـ النـبـيـ بـرـدـةـ إـشـارـةـ إـلـىـ عـفـوـهـ عـنـهـ وـجـعـلـ الـبـرـدـ جـائـزـةـ لـهـ ،ـ وـقـدـ اـشـتـرـىـ مـعاـوـيـةـ فـيـمـاـ بـعـدـ هـذـاـ الـبـرـدـ بـعـشـرـيـنـ أـلـفـ دـرـهـمـ ،ـ ثـمـ ظـلـ الـخـلـقـاءـ يـلـبـسـونـهـ فـيـ الـأـعـيـادـ كـمـاـ يـرـوـىـ أـبـنـ قـتـيبةـ زـمـنـاـ طـوـيـلاـ .

وقد أسلم عقب غزوة حنين ، وعاش حتى خلافة معاوية ، وكان معروفاً بالتشيع لعل كرم الله وجهه ، وينسب إليه شعر في التشيع ، مشكوك في صحة نسبته إليه . وأما منزلته الشعرية ، فقد كان من صفوة الشعراء المعاصرين له بإجماع النقاد ، وقد ادعى الخطيب أنه لم يبق أثر منه ومن كعب بن زهير فلم ينكر عليه أحد ذلك ، وقد جمع السكري المتفق سنة ٢٧٥هـ ديوان كعب ، وهو مطبوع متداول وقد أضاف إليه بعض المحققين أشعاراً لم يثبتها السكري ، وشعره واضح الجودة ، وخاصة في الوصف ، حيث تجد أروع ما تجده به شاعريته إنما يكون في وصف البيئة بما فيها من حيوان وأرض ، وكوصفه الناقة وصفاً بالغ الدقة والتصوير في كثير من قصائده ، وعلى الأخص في مقدمة (باتت سعاد) وكوصفه الذئب والغراب في قصياته التي مطلعها (ألا يكرت عرسى) ، والتي تبني معاناتها عن أنه قالها بعد إسلامه كقوله (فأقسمت بالرحمن لا شيء غيره) ثم يصرح في البيت التالي لهذا بأسلوبه فيقول (لا تستشرن أعلى درسي مسلماً) ^(١) ومع ذلك يتحدث في القصيدة بأنه يعافر الخمر كقوله : وقد أشهد الكأس الروية لاهياً أعلى قبل الصبح منها وأنهى

ومن أحسن شعره في الوصف قصيده التي مطلعها (وهاجرة لاسترداد ظباوها) ، والتي أبدع فيها في وصف البيئة والصيد وحرر الوحش .

(١) اشترى التوب : ليسه والدرسي : التوب اليك ألي لايس ثوى وأنا على دين الإسلام

وكان كعب مشهوراً بثلاف المال كما يصفه السكري بأنه أتلق
للمال من الحطيبة ، وقد عاش فقيراً منكود الحظ. في تنصيبه من رحاء
العيش حتى مات^(١)

(١) انظر ديوان كعب بن زهير السكري وأغاني الأصنفان ١٧ - ١٨ وما يليها والشعر
والشعراء لابن قتيبة ١٥٤-١ ومعايدتها وشرح حمامة أبي تمام للغيريري ١-٢-٣ والمقدمة لابن
رشيق القميروانى ٢٢-١ وسيرة ابن هشام ٤-٨٥٩ وتاريخ الأدب العربي كارل بروكلمان ١٥٦-١

الفهرس

تقديم ...	٣
المحضر ...	١٨
الصحابي ...	١٣
عدالة الصحابة ...	١٤
الشاعر المحضر ...	١٨
الدين والشعر ...	٢٧
الشعراء ...	٣٤
الدين (في الجاهلية) ...	٣٨
في الإسلام ...	٤٤
الشعراء المافقون ...	٥٥
شعراء اليهود ...	٥٧
شراء الشرك ...	٦١
المتكسون إلى الشرك ...	٦٥
المتكسون في الإيمان ...	٦٩
الاتحراف في السلوك ...	٧٤
الحضر ...	٧٥

جوانب خلقية ...	٧٩
الشعراء التائيون ...	٩٥
المغتربون إلى النبي ...	٩٦
المغتربون ضمنا ...	٩٨
التائيون يمسلكهم ...	١٠٣
العصوب ...	١٠٨
بين الفحطانية والعدنانية ...	١١٥
الجلور الجاهلية ...	١٢٠
بين القبائل ...	١٢٦
الشعراء والعصبية القبلية ...	١٣١
السياسة ...	١٤٢
موقفهم من قريش ...	١٤٤
موقفهم من السلطان ...	١٥٣
موقفهم من الولاية ...	١٥٩
موقفهم من الحرية ...	١٦٣
الشاعر المحضرمات ...	١٧٤
هند بنت عتبة ...	١٨١
شاعر المناسبات ...	١٨٩
شاعر المجاز ...	١٩٤
اليهود والشعر ...	٢٠١
الشعراء المحضرمان -	٢٩٧

- تحل الشمر ٢١٤
 المخضر من والشمر ٢٣٢
 شعراء الإسلام ٢٣٤
 حسان بن ثابت ٢٣٤
 كعب بن مالك ٢٥٤
 عبد الله بن رواحة ٢٥٦
 شعراء الشرك ٢٥٨
 عدم شهرة قريش بالشعر ٢٥٩
 شعر قريش ضد المسلمين ٢٦٦
 عبد الله بن الزبيري ٢٧٠
 شعراء القبائل ٢٧٣



مطبوع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الایداع بدار الكتب ١٩٨٣/٤٦٤١
ISBN - ٩٧٧ - ٢١٥ - ٦